أوروبيون
فى الحرمين الشريفين

عرفه عبده على



31320

أوروبيون
فى الحرمين الشريفين

* على . عرفه عبده .
* أوربيون فى الحرمين الشريفين
* عرفه عبده على .
* ط1 . – القاهرة : عالم الكتب: 2014 م
* 250ص : 24 سم
* تدمك : 977-232-933-5 *رقم الإيداع : 15866 / 2013
1- الاستشراق والمستشرقون
أ- العنوان 953

عالم الكتب

* الإدارة :
16 شارع جواد حسنى - القاهرة
تليفون : 23924626
فاكس : 002023939027

* المكتبة :
38 ش عبد الخالق ثروت - القاهرة
تليفون: 23926401 – 23959534
ص . ب 66 محمد فريد
الرمز البريدى : 11518

www.alamalkotob.com -- info@alamalkotob.com

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

مع بدايات القرن التاسع عشر، تعدى الانجذاب إلي الشرق مرحلة الدهشة والانبهار بالأشياء الغربية.. والحلم الرومانسي الذي أسهم في تدعيم أسطورة الشرق، واختلاط الماضي بالحاضر في خيالات القراء والرحالة الأوروبيين.. تبدل إلي محاولة اكتشاف جديد للشرق القديم وانطلقت الرغبة في معرفة أدق عن الآخرين، ترقب وترصد، فيما يمكن أن نسميه " تحقيق عن الشرق ".

وما بين روائع آيات الماضي، ومعاقد التاريخ من ضفاف النيل الخالد وطور سيناء إلي بيت لحم والناصرة وبيت المقدس إلي مكة والمدينة، إلي ما يحف بهذه الأصقاع من آثار قدسها الله وما نهض في أحضان هذا التاريخ من إبداعات فكرية وحضارية.. تكونت حصيلة ضخمة من معارف أوروبا عن الشرق[1] ...

وكانت " الجزيرة العربية " هي محور الانبهار الحقيقي لرحالة الغرب.. وكان ذلك - بالطبع - قبل اكتشاف النفط بزمان!.. هؤلاء الذين أتوا من قلب الحضارة الأوروبية إلي تلك الأرض البعيدة ليلبوا " نداء الصحراء ".. وبكل ما يحويه غموضها الآسر من قصص وأساطير وحكايات بطلها " العربي الفارس "!

ويختصر " بيتر برنت " القول عن جزيرة العرب بأنها " تلك المنطقة التي ظلت الشمس طوال عشرين ألف عام تحولها - دون هوادة - إلي رمال وصخور.. لكن من هذا المكان خرجت أكثر الهجرات خصوبة في تاريخ العالم.. ومن جزيرة العرب أشرقت تلك الدعوة الإيمانية التي كان التجاوب معها مثارًا لتغيير التاريخ في ثلاث قارات.. ومع ذلك ما زال أهلها يفضلون حياة البداوة[2] "!.. وكما قال " كارستن نيبور " أشهر الرحالة: " البداوة تساوي الحرية.. فالعربي الجوال يفضل الحرية والبساطة البدوية على الثروة وحياة التقيد "!

هذه الحياة المطلقة، بين الرمل والفضاء، بين القمر والشمس، حركت مخيلات الشعراء

---

(١) عرفة عبده علي: الرحالة السويسري بوركهارت في مكة المكرمة، مجلة الحج والعمرة، السنة الثامنة والخمسون، العدد الثاني عشر، المملكة العربية السعودية، صفر ١٤٢٤ هـ/ إبريل ٢٠٠٣، ص ٣٨-٣٩.

(٢) سمير عطا الله: قافلة الحبر، الرحالة الغربيون إلي الجزيرة والخليج، دار الساقي، بيروت، الطبعة الأولى ١٩٩٤، ص ٨.

الغربيين بلا حساب.. من شيللر وشيلي وبايرون إلي لامارتين وبوشكين.. لكن فيما ظل الشعراء يحلقون في مخيلاتهم على إيقاع القوافي الجميلة، فضل الرحالة والأكاديميون اللحاق بالقوافل الصعبة على أرض الصخر البركاني الحار والرمل الطيار المتعدد الألوان والظلال!

والرحـالـة الذين تبعوا مخيلات الشعراء أو سبقوهـا، كانوا ينتمون هـم أيضـًا إلي عصـر رومانسي واحد، وتلك الرومانسية هامت بالعربي، دون غيره من الآسيويين الآخرين، أو بالأحرى " بالبدوي الحر، الفقير، الشجاع والجميل " الذي وصفه السير " ريتشارد بورتون " بأنه " خليط نبيل حقًا من العزم واللطف والكرم ".

كـل هذه الأرض، من تدمر والبتراء حتى جدة أو الحديدة، كان يعرفها العقل الغربي باسم " الجزيرة " أو " بلاد العرب " أو " أرابيا فيلكس Arabia Filex " أي بلاد العرب السعيدة كما سماها الرومان. وكانت لدى العقل الغربي الذي عرف القدس وفلسطين وبلاد المشرق منذ الغزوات الصليبية، أوهام وأحلام كثيرة حول هذه الأرض التي لم يدركها إلا في المخيلة كان هناك الإسلام الذي رأى الغربيون مصبه في أوروبا لكنهم لم يروا مصدره، وكانت هناك الصحراء، هذا السور الشاعري الكبير، وكانت هناك حكايات الثروات والحدائق الغناء و... " الكثبان التي تغني "!

ومنـذ قديم الزمان.. والإنسان تسيطر عليه الرغبة في الكشف عن المجهول، وكثير مما يتمتع به العالم في يومنا هذا، مرده إلي هذه النفوس المغامرة التي لا تحول الصعاب بينها وبين ما تريد، وما كشف العالم الجديد في نهايات القرن الخامس عشر إلا ثمرة من ثمار هذه النفوس المغامرة!

الاستشراق.. والبحث عن " عالم مفقود "!

لقد كانت شبه الجزيرة العربية بالنسبة للأوروبيين " عالمًا مفقودًا ".. ليس فقط لأنه يخفي بقاعًا يجب استكشافها، بل لأنه – وكما تشير جاكلين بيرن – يشكل إطارًا لحضارتين: حضارة إسلامية بمدنها المقدسة الغامضة، وسكانها وحياتهم الاجتماعية وتقاليدهم.. وحضارة عريقة في القدم لم يكن الناس يعرفون إلا تخمينًا: أنها كانت من أغنى الحضارات في العالم القديم، فكانت الرغبة في المعرفة هي التي أهابت بأوروبا إلي اكتشافها من جديد! [1]

كانت الرحلات والاتصال المستمر والصلات المباشرة من العوامل الفعالة في إزالة كثير من الأوهام التي علقت بأذهان الغربيين عن الشرق عمومًا، كما كانت كتابات الرحالة جزءًا رئيسيًا في منظومة " علم الاستشراق ".. والشرق الذي يتمحور ويتجلى في الاستشراق هو، كما يقول العالم الراحل د. إدوارد سعيد[2]: " نظام من التمثيلات مؤطر بطقم كامل من القوى التي قادت الشرق إلي مجال المعرفة الغربية، والوعي الغربي، وفي مرحلة تالية: الإمبراطورية الغربية، وإذا كان هذا التحديد للاستشراق – يبدو سياسيًا – فذلك ببساطة لأنني أؤمن بأن الاستشراق كان هو نفسه نتاجًا لقوى ونشاطات سياسية معنية، فالاستشراق مدرسة للتفسير حدث أن كان مادتها الشرق، بحضارته، وشعوبه، وأقاليمه.. واكتشافات الاستشراق الموضوعية هي حصيلة عمل باحثين لا يحصون نذروا أنفسهم له، فحققوا النصوص وترجموها، ووضعوا المعاجم، وأعادوا تركيب حقب منسية..... "

فالاستشراق.. مجال للاهتمام يحدده الرحالة، والمشروعات التجارية، والحكومات، والحملات العسكرية، وقراء الروايات والمغامرات المدهشة، والمؤرخون، والحجاج الذين يمثل الشرق لهم نمطًا خاصًا من المعرفة حول: أماكن وشعوب وحضارات معينة..

---

(١) جاكلين بيرن: اكتشاف جزيرة العرب – خمسة قرون من المغامرة والعلم، ترجمة: قدري قلعجي، دار الكاتب العربي، بيروت، ١٣٨٣ هـ / ١٩٦٣، ص ٢٥.

(٢) د. إدوارد سعيد: الاستشراق – المعرفة، السلطة، الإنشاء، ترجمة: كمال أبو ديب، مؤسسة الابحاث العربية، الطبعة الثانية، بيروت، ١٩٨٤، ص ٢١٤.

والاستشـراق بوصفه تبادلًا حيويًا بين الباحثين - الأفراد - وبين المؤسسات السياسية التي شكلتها الإمبراطوريات الثلاث: البريطانية، الفرنسية، الأمريكية، خلق " تراثًا امبرياليًا " خدم اللغات الشرقية، والتاريخ والجغرافيا، وعلم الأحياء، والنظريات السياسية والاقتصادية، والأدب الروائي...

والاستشراق الإمبريالي، مثل كثير من العلوم الطبيعية والاجتماعية، أصبح له منطلقات للبحث، وجمعياته العلمية، ومؤسساته الخاصة، وخلال القرن التاسع عشر اكتسب الاستشراق امتيازًا متعاظمًا، كما تعاظمت أيضًا الشهرة والنفوذ اللذان تمتعت بهما مؤسسات مثل: " الجمعية الآسيوية " و" الجمعية الملكية الآسيوية " و" الجمعية الألمانية للدراسات الاستشراقية " و" الجمعية الاستشراقية الأمريكية " وغيرها... ومع تنامي هذه المؤسسات في العواصم الأوروبية كلها، تزايد عدد كراسي الاستاذية في الدراسات الشرقية، وبالتالي توسعت مجالات الوسائل المتاحة لنشر علم الاستشراق، وتضاعفت دوريات الاستشراق بدءًا من مجلة " مناجم الشرق Fundgraben des Orientes " عام ١٨٠٩ وتزايد كم المعرفة وتضاعف عدد التخصصات[١].

ومما لاشك فيه، أن للدراسات الاستشراقية منهجية دقيقة وغزارة في الإطلاع وجدة في الاستنتاج.. لكن ما نود أن نقوله: أن المستشرقين مهما بلغت دقتهم العلمية، غرباء عن هذه الأمة في دينها وحياتها ومواطن اعتزامها، وفي أعماق أكثرهم من رواسب التعصب ضد الإسلام، والتوجهات السياسية الاستعمارية، ما يؤدي بهم إلي كثير من الشطط والبعد عن مقتضى الحقيقة والأدبيات الاستشراقية تضفي ثقلها العلمي على هذا التصور الجامد عن الإسلام والمسلمين!

وللحقيقـة العلمية المجردة، يجب أن نسدي الفضل لذويه، ونعترف بأن لكثير من المستشرقين - اليد الطولى - في إبراز معالم تاريخ الجزيرة العربية وكشف ما خفي من آثارها، فضلًا عن اسهامهم في إحياء التراث الإسلامي بشكل عام.. وفي ميـدان أدب الرحلات، ومع تباين أهداف ودوافع الرحالة المستشرقين، فإن آثارهم تعد مصدرًا من مصادر تاريخ جزيرة العرب، على الرغم من أن بعضها يتسم بروح العداء والنزعة الاستعمارية، والتجني في بعض الأحيان، وفي هذا الصدد يقول المؤرخ الكبير والرحالة حمد الجاسر[٢] " إن القاريء العربي كثيرًا ما تعتريه حالة من الريبة والشك حيال كتابات الغربيين عن العـرب، وهي حال مع منافاتها للحكمة، لا تتفق مع المنطق القويم في شيء، فالحق يجب قبوله أيًا كان مصدره، وأولئك بحكم بعدهم عنا، وجهلهم بأحوالنا في الماضـي تشوب كتاباتهم عنا شوائب من الخطأ، لا ينبغي أن

---

(١) يوهان فوك: تاريخ حركة الاستشراق، ترجمة: عمر لطفي العالم، دار قتيبة، الطبعة الأولى، دمشق، ١٩٩٦، ص ٦٤ - ٦٦.

(٢) حمد الجاسر: مقدمة كتاب جاكلين بيرن (اكتشاف جزيرة العرب) مصدر سابق، ص ١٥ - ١٦.

تكون حائلًا بيننا وبين المعرفة، بل الأجدر بنا أن تكون من الحوافز التي تدفعنا إلي معرفة كل ما كتب عن بلادنا وتاريخنا... "

وآثار الرحالة الأوروبيون هي امتداد لحركة الاستشراق - تراث الامبراطوريات الغربية - التي كانت وما تزال حريصة على ثبات مصالحها في دول الشرق، وحتى الرحلات العلمية، ذات الطابع الأكاديمي، كانت مرتبطة بالسياسة أكثر من ارتباطها بالعلم والحضارة!

وتجدر الإشارة إلي ما سطره " شيخ العروبة " د. أحمد زكي[1]، مبكرًا عام ١٩١٩ عندما صنف فريق من الرحالة الأوروبيين: " غايته الاساسية كانت مقصورة على استجلاء الغوامض واكتشاف الغرائب وتعريف أوروبا بدخائل الشرق وأحواله، وإحاطة أهلها خبرًا بمرافقه وموارده وتجارته، تمهيدًا لاستعمارها إياه أو لبسط نفوذها فيه... "

وفئة أخرى.. يضيف د. أحمد زكي " تمكن أفرادها من دخول الحجاز بل من زيارة البقاع المقدسة والأماكن المطهرة ولكنهم لم يكتبوا عنها ".. ومنهم:

(١) الثلاث النصارى الذين رآهم نيبور - **Neibuhr** في مكة، فقد روى أن ملاحًا إنجليزيًا توجه إليها سنة ١١٧٥ هـ / ١٧٦٠ م قاصدًا أوروبا عن طريق القسطنطينية، وأن رجلًا آخر أتي اليمن عن طريق مكة وركب البحر سرًا إلي بلاد الهند، وأن جراحًا فرنسيًا ذهب إلي مكة لمعالجة أمير الحج..

(٢) توماس كيت **T.Keith** جندي اسكتلندي أسره المصريون خلال الحملة الإنجليزية على الإسكندرية سنة ١٢٣٢ هـ / ١٨١٥ م ثم أسلم وأنتهى أمره أن صار واليًا على المدينة المنورة ثم قتل في محاربة الوهابيين!

(٣) طبال إنجليزي في الحملة الإنجليزية على الإسكندرية أيضًا، أسره المصريون وأسلم باسم " عثمان " وتمكن بدهائه من الاستحواذ على جميع أموال سيده المسلم، وكان يجتهد في التوفيق بين التوراه والإنجيل والقرآن!

(٤) الكابتن جورج فورستر سادلير - **G.F.Sadlier** الذي توجه إلي المدينة سنة ١٢٣٥هـ / ١٨١٩ م رسولًا من شركة الهند الشرقية إلي " إبراهيم باشا " لتهنئته على استيلائه على "الدرعية" وتميز على ما عداه من الأوروبيين الذين دخلوا الحجاز باحتفاظه بزيه الأوروبي ولكنه لم يقترب من أسوار المدينة، وهو أول أوروبي اجتاز شبه جزيرة العرب من الشرق إلي الغرب.

(٥) برتولوتشي **Bertolucci** قنصل عام السويد في مصر، وقد ذكر ريتشارد بيرتون " أنه

---

(١)د. أحمد زكي: مكة والمدينة ومن زارهما من الأفرنج، مجلة الهلال، عدد أكتوبر / نوفمبر، القاهرة، ١٩١٩ م.

أول أوروبي زار مكة دون أن يرتد عن دينه، ولكنه عندما وصلها تملكه الجزع والهلع فلم يتمكن من الدرس والبحث "!

(٦) البريطاني " تينث - **Tenneth** " الذي أشار " مالتزان - **Maltzane** " أنه ذهب إلي مكة باسم " الحاج عبد الواحد " سنة ١٢٢٨ هـ/ ١٨٦٣ م.

(٧) الإيطالي " فيراتي - **Ferrati** " الذي لقى في سفره عسرًا، ثم إدعى الإسلام وتردد كثيرًا بين مكة والمدينة، وجمع له المسلمون مالًا تاجر به حتى أثرى وصار من مشاهير التجار.

(٨) الفرنسي " مورسلي - **Morsly** " الذي كان يعيش في الجزائر، وقام برحلة الحج إلي مكة، وقد حسنت عقيدته فأسلم إسلامًا خالصًا.

(٩) الفرنسي " تشارلز هوبر - **Ch.Huber** " الذي قام برحلته الأولى عام ١٨٧٨ لاكتشاف نجد، واستمرت رحلته حتى عام ١٨٨٢، واكتشف خلالها " حجر تيماء " وفي عام ١٨٨٣ كانت رحلته الثانية برعاية " الجمعية الجغرافية الفرنسية: حيث زار الجوف وحائل وتيماء وجده وفي طريق عودته إلي حائل، لقى مصرعه يوم ٢٩ يوليو ١٨٨٤ في ظروف غامضة.. وقيل أنه أقترب كثيرًا من مكة وشاهد الحرم وجباله عن بعد...!

وهناك طائفة تظاهرت بالإسلام، وقاموا برحلاتهم وفقًا لنوايا وأهداف محددة سلفًا.. والبعض الآخر أسلم عن صدق عقيدة وإيمان عميق، وجميعهم سجلوا مشاهداتهم في موسم الحج وعن الحرمين الشريفين، والأوضاع السياسية والاجتماعية والاقتصادية والثقافية عمومًا في جزيرة العرب:-

(١) الإيطالي " لودفيكو دي فارتيما - **L.Di Varthema** " أول رحالة أوروبي استطاع التظاهر بالإسلام تحت أسم " الحاج يونس "، وزار الحرمين الشريفين سنة ٩٠٨ هـ / ١٥٠٣م.

(٢) الفرنسي " فنسان لوبلان - **V.Leblanc** " سنة ٩٦٨ هـ/ ١٥٦٨ م.

(٣) الالماني " يوهان وايلد - **J.Wild** " سنة ١٠١٦ هـ/ ١٦٠٧ م.

(٤) الإنجليزي " جوزيف بيتس - **J.Pitts** " سنة ١١٠١ هـ/ ١٦٨٠ م.

(٥) الاسباني " دومينجو باديا لبليش - **Doming B.leblich** " والذي اشتهر بـ " الأمير علي بك العباسي " سنة ١٢٢٢ هـ/ ١٨٠٧ م.

(٦) الالماني " أولريخ جاسبار سيتزن - **U.J. Seetzem** " المستشرق والطبيب وعالم النبات والدبلوماسي!.. سنة ١٢٢٤ هـ/ ١٨٠٩ م.

(٧) السويسري " جون لودفيج بوركهارت - J.L. Burckhardt " الذي اشتهر باسم " الشيخ إبراهيم " سنة ١٢٣٠ هـ / ١٨١٥ م.

(٨) الإيطالي " جيوفاني فيناتي - G. Finati " أو " الحاج محمد " سنة ١٢٣٠ هـ / ١٨١٥ م.

(٩) الفرنسي " ليون روش - Leon Roche " أو " الحاج عمر " صاحب الفتوى "الشرعية " بشأن جهاد الجزائريين ضد الفرنسيين، سنة ١٢٥٧ هـ / ١٨٤٢ م.

(١٠) الفرنسي " دي كوريه - De Couret " أو " الحاج عبد الحميد بك " سنة ١٢٥٧هـ/ ١٨٤٢ م.

(١١) الفنلندي " جورج أوجست والين - G.A.Wallin " سنة ١٢٦١ هـ / ١٨٤٥ م واشتهر باسم " ولي الدين " أو " عبد الولي ".

(١٢) البريطاني سير " ريتشارد بيرتون - R.Burton " أشهر الرحالة، وعرف باسم " الحاج عبد الله " سنة ١٢٦٩ هـ / ١٨٥٣ م.

(١٣) الإلماني " هنريس فريهر فون مالتزان - H.F.Von Maltzan " عرف باسم " سيدي عبد الرحمن "!.. سنة ١٢٧٦ هـ / ١٨٦٠ م.

(١٤) الإنجليزي " هرمان بيكنل - H.Bicknell " سنة ١٢٧٨ هـ / ١٨٦٢ م واشتهر باسم " الحاج عبد الواحد ".

(١٥) الإنجليزي " جون فريركين - J.F.Keane " صاحب كتاب: " Six mohths in Mecca " واشتهر باسم " الحاج محمد أمين " سنة ١٢٩٤ - ١٢٩٥ هـ / ١٨٧٧-١٨٧٨ م.

(١٦) الهولندي " كريستيان سنوك هورجرونيه - Ch.S. Horgronje " سنة ١٣٠٣ هـ / ١٨٨٥ م أحد كبار المستشرقين واشتهر باسم " الحاج عبد الغفار ".

(١٧) الفرنسي " جيرفيه كورتلمون - G.Courtelmont " سنة ١٣١١ هـ / ١٨٩٤ م واشتهر باسم " الحاج عبد الله ".

(١٨) السويسري " د. هيس - Hess " سنة ١٣٢٨ هـ / ١٩١٠ م.

(١٩) البريطاني " هاري جون فيلبي - H.J.Philby " أو " الحاج عبد الله فيلبي " سنة ١٣٥٥ هـ / ١٩٣٧ م.

وهناك أيضًا عدد آخر من الرحالة المستشرقين، نذكر منهم: الفرنسي " موريس تاميزييه - M.Tamisier " والمستشرق النمساوي الكبير " ليوبولد فايس - L.Weiss " والذي اشتهر

بـ " محمد أسد " والفنان الفرنسي الرائع " ناصر الدين دينيه ".. والرحالة المستشرق المجري الشهير " عبد الكريم جرمانوس - Germanus ".. والضابط الروسي النقيب " عبد العزيز دولتشين " والمستشرق الألماني المعاصر " مراد هوفمان "...

لـم يكن نتاج " العصر الذهبي " للرحلات الأوروبية لجزيرة العرب: إثراء أدب الرحلات فحسب.. فقد كانت مصادر علم رسم الخرائط - Cartography لوسط شبه جزيرة العرب وشمالها، تعتمد بالأساس على المعلومات التي جمعها وسجلها رحالة مستكشفون أوروبيون.. منهم في القرن الثالث عشر الهجري / التاسع عشر الميلادي: سادلير (Sadleir) والين (Wallin) وليم بالجريف (W.Palgrave) لويس بلي (L.Pelly) جورماني (Guarmani) آن بلنت (A.Blunt) دوتي (Doughty) هوبر (Huber)..

وفـي القرن الرابع عشر الهجري / العشرين الميلادي.. كان منهم: موزيل (Musil) الكابتن وليم شكسبير (C.W.Shakespear) رونكيير (Raun Kiaer) الكابتن ليتشمان (C. Leachman) السيدة جيرترود بل (G.Bell) ستارك (Stark) جون فيلبي (J. Philpy)...

التسلل إلي الحجـاز:-

كانت نجد شبه مغلقة على الرحالة الأوروبيين، وفي حين كان الحجاز في مكة المكرمة والمدينة المنورة، مغلقًا إلا على الذين يعتنقون الإسلام، فإن الجزء الآخر من الجزيرة العربية، أي الجنوب الغربي منها، كان مفتوحًا في وجه المسافرين منذ أواخر القرون الوسطى.

ومـن بين ثلاثة أوروبيين استطاعوا التسلل إلي الحجاز في القرن السابع عشر، كان الأكثر غرابة وغموضًا هو الرجل الذي يعرف عنه العالم أقل من أي رحالة آخر، إنه " براهمي " سابق مولود في جزيرة " جوا " يدعى " ماثيو دي كاسترو " وقد اعتنـق الكثلكة ورسم مطرانًا في روما ثم عاد إلي " جوا " ومرة أخرى إلي روما. وقد قام بزيارة إلي مكة المكرمة في العام ١٦٤٣، وليس معروفًا أي شيء إلي الآن عن ظروف رحلته الغامضة التي يعتقد أن تفاصيلها إما ضاعت أو هي مخبأة في أدراج الفاتيكان[١]!.. وفي نهاية القرن السابع عشر عرف الحجاز أوروبيًا آخر هو " جوزيف بيتس " الذي باعه قبطان بريطاني في أحد أسواق تونس. وسوف يلتقي بيتس نفسه برجل إيرلندي في أحد شوارع مكة، يقول له إنه " منذ أن اعتنق الإسلام انتقل من الجحيم إلي السماء "!

وقـد كثر الغامضون بين الرحالة وتعدد المثيرون، بمن فيهم المضحكون أحيانًا مثل فارتيما. ولعل أبرز المراحل الاستكشافية بدأت مع ازدياد المطامح الفرنسية في الشرق في أواخر القرن

(١) سمير عطا الله: قافلة الحبر.. مصدر سابق، ص ٥٠.

الثامن عشر وأوائل القرن التاسع عشر. ومن أشهر الرحالة وأكثرهم غموضًا كان الإسباني " دومينجو باديا ليبليش " المولود في بيسكاي العام ١٧٦٦. وقد أوفد نابلوليون بونابرت عميله السري السنيور ليبليش في مهمة طويلة ومعقدة بدأت في طنجة العام ١٨٠٣ حيث وصل الرجل مدعيًا أنه الأمير " علي بك العباسي " وأنه في الطريق إلي الإسكندرية منها إلي مكة المكرمة. وسافر علي بك في المغرب تحف به مظاهر الثراء والوجاهة وأمضى هناك عامين، ثم غادر المغرب في موكب بالغ الفخامة في الطريق إلي أداء فريضة الحج، فاستقبله باشا طرابلس واستضافه ثم التقى في الإسكندرية الكاتب الفرنسي الشهير شاتوبريان الذي سيصفه بأنه " أكثر الأتراك ثقافة في العالم " وأنه يليق به أن يكون " من أحفاد صلاح الدين "!

وعندما نتحدث عن الرحالة الإنجليز في " العصر الفيكتوري " فلابد أن ترد إلي الاذهان ثلاثة أسماء: " ريتشارد بيرتون " و" ويلفريد بلنت " و" تشارلز دوتي ".. وقد عرف هؤلاء عند العرب الذين اتصلوا بهم بألقاب: " الحاج " و" الشيخ " و" النصراني " على التوالي!

وقد لمعت أسماء هؤلاء الرحالة في العقد الثامن من القرن التاسع عشر.. يوم كان " بيرتون " منكبًا على ترجمة " ألف ليلة وليلة " وبلنت متحمسًا للدفاع عن قضية إستقلال مصر وارتبط اسمه بالثورة العرابية، أما " دوتي " فكان منقطعًا إلي وضع كتابه " رحلات في الصحراء العربية[١] "..

وقد نشأ هؤلاء الرحالة الثلاثة وهم يرقبون اهتمام بلادهم بالوطن العربي، حيث جندت البعوث لاكتشافه وشجعت العلماء والجمعيات العلمية على دراسة تراثه.. كل هذا من أجل فهم النفسية العربية فهما يمكنها من بسط نفوذها عليها!

وعدا هؤلاء الرحالة الثلاثة الذين ارتبطت أسماؤهم وحياتهم بالمشرق العربي.. لمعت أيضًا أسماء أخرى مثل " لورنس " و" جيرترود بيل " ثم " ويلفريد تيسيجر " الذي نشر كتابًا عن منطقة الأهوار بالعراق، وقبل ذلك كان قد قطع " الربع الخالي " وسجل رحلته في كتابه الشهير " الصحراء العربية - Arabian Sands[٢] ".

وتشارلز دوتي في رأي " دائرة المعارف البريطانية " أشهر من جاب أنحاء الجزيرة العربية، وهو في رأي " بلنت " أعمق المستعربين الإنجليز فهمًا للعرب.. وكتابه " أفضل ما كتب عن الجزيرة العربية ويتميز بالعمق والدقة غير أن عيبه الوحيد أنه لم ير غير الجانب السيء في العرب وتغاضى عن محاسنهم "!

(١) Doughty , C.M.: Travels in Arabia Desert , Jonathan Cape , London, 1964 .

(٢) Thesiger, W.: Arabian Sands , Book club Associates , London , 1959 .

لـم يقدم أحدًا للدراسات العربية - فائدة أكبر - مما قدمه " تشارلز دوتي[1] " ١٨٤٣ - ١٩٢٦ كان دوتي إنسانًا قوي الإرادة، عنيد، عزوف عن المجتمع، ولا يعرف المجاملات، يقول ما يعتقد به، ولا يحفل برأي أو بنقد، وعندما كان يجوب جزيرة العرب، أصر على أن يعرف البدو أنه " نصراني "!.. وعندما عاد منها، كان يسير في بلدته " سفولك " بملابسه القطنية البيضاء المصنوعة في مدن الشرق، متمنطقًا بحزام أخضر، منتعلًا صندلًا دون جوارب، رافعًا فوق رأسه مظلة خضراء، ودوتي الرحالة، يختلف عن بلنت وبيرتون، فهو لم يكن ثريًا مثل بلنت، ولم تسهر على رحلاته الجمعيات الجغرافية ولم تتعهده الحكومات مثل بيرتون.. لقد قام برحلته وهو لا يملك سوى بضع ليرات ذهبية، وصندوق من الدواء، معتمدًا في كثير من الأحيان على ضيافة وكرم العرب!

وهـو في رأي بلنت: أعمق المستشرقين الإنجليز فهمًا للعرب، فقد جاب بنفسه بعض المناطق التي وصفها دوتي في كتابه " الصحراء العربية " خاصة منطقة نجد.. وهذا الكتاب في رأيه " خير ما كتب عن جزيرة العرب ".. ورأي فيه لورانس: " أول كتاب عن العرب في صحرائهم لا يستغنى عنه أي مستشرق ".. وإذا كان الرحالة الإنجليز مثل بيرتون وبلنت ولورنس، قد أقبلوا على الصحراء العربية برومانسية وتوق إلي المغامرة، فان دوتي يختلف عنهم في أنه أقبل عليها بروح واقعية تبحث عـن ماضيها، لم ير فيها " جنة الأحلام " بل أرض الماضي الدفين التي تنتظر من يكشف عن أسرارها، وعن غموضها.. وهذه الروح العلمية واضحة في كتابه، في التفاصيل الدقيقة، والوقوف عند الآثار القديمة... انها روح عالم الآثار، وقد ذكر هو نفسه: أن من أسبـاب رحلته إلي جزيرة العرب، رغبته في الكشف عن آثارها وجمع المعلومات الجغرافية[2]..

وقـد قدم دوتي معلومات قيمة عن طبيعة البلاد وطبوغرافيتها، صحاريها ومناخها.. وعن الحيوان والنبات.. وعن أهل جزيرة العرب، ووصف البدو وأكثر ما أعجبه منهم " إيمانهم العميق بالله وبعدله، مما جعل الانتحار بينهم معدومًا، ومثل هذا الإيمان يفتقده الأوروبيون "!.. وتحدث عن العلاقات القبلية وأساليب المعيشة ونظرة العرب إلي الحياة معتمدًا على ملاحظاته.

أمـا " ولفريد بلنت ".. سليل أسرة ثرية ارستقراطية حاكمة.. في إمبراطورية قوية مسيطرة، ومع ذلك تبنى قضايا المستضعفين ودافع عن حقوق شعوب مصر والسودان والهند.. واشتهر بلقب " صديق العرب ".. في عام ١٨٧٣ رحل بلنت وقرينته " ليدي آن " إلي استامبول عن طريق بلغراد ونهر الدانوب، وإقامته في استانبول جعلته يدرك المؤامرات الغربية التي كانت تحاك

---

(١) Robin , ch.: Studies in the History of Arabia, supplement aux Annales is lamologiques , T.5, IFAO , le Caire , 1988 , P. 114 .

(٢) Doughty , C.M.: OP. cit. P. 18 .

ضد الدولة العثمانية، وبدأت من هنا كراهيته للتسلط الأوروبي.. وقضى شتاء عام ١٨٧٤ في الجزائر، وشاهد كيف يستبد الفرنسيون بالجزائريين وتكشفت لعينيه " الأخلاق الأوروبية على حقيقتها "!

وفي شتاء عام ١٨٧٥، كانت أول زيارة له إلي مصر، فأحبها واهتم بقضيتها[١] واشترى قصرًا كان من أملاك الخديو إسماعيل، قضى فيه وقرينته أجمل سنوات عمرهما " حيث ينسى فيه الإنسان، تردي أوروبا الخلقي وجشعها وقبح الحياة فيها، هنا يطهر جمال الشرق روح الإنسان من أدران الغرب "!

وقد قام بلنت وقرينته في عامي ١٨٧٨ و١٨٧٩ برحلتين على ظهور الخيل والجمال، من حلب إلي الفرات إلي نجد ثم أواسط الجزيرة العربية، وأقاما بين القبائل العربية وعقدا صداقات مع شيوخها، وقد تركت هذه الرحلة اثرًا رائعًا في وجدانهما، وأحبا العرب، ودرسا اللغة العربية حتى أتقناها، ونذرا نفسيهما للدفاع عن قضايا العرب كما عشقا الخيول العربية، حتى أنهما أقاما في مدينة " سكس " بإنجلترا، مزرعة لتربية الخيول العربية وبيعها.. وكان نتاج هاتين الرحلتين كتابان بقلم ليدي آن بلنت هما: " القبائل البدوية[٢]- The Bedouim Tribes " والثاني: " الحج إلي نجد[٣] - A pilgrimage to Nejd ".

و مما يسترعي النظر، أن كثير من المستشرقين الذين كتبوا عن " ريتشارد بيرتون " أعظم الرحالة الذين جابوا الجزيرة العربي، قد ركزوا على ملامحه العربية ووصف المستشرق الشهير " هارولد نيكسون " عينا بيرتون بأنهما " عينان نفاذتان كعيني الفهد "!..

وكان بيرتون مغرمًا بالترحال وحب الاستطلاع اللذين كانا جزءًا من معالم النهضة الأوروبية في الفكر والفن والأدب - خاصة في بريطانيا - وقد أنعمت عليه الملكة " فيكتوريا " بلقب " سير " تقديرًا لجهوده في مجال البحث والاكتشاف، وقد شيدت مقبرته في " مورتليك " على شكل خيمة عربية من الحجارة والرخام، والزائر لمتحف مدام داسو بلندن، يمكنه أن يشاهد تمثلًا من الشمع لبيرتون بملابسه التي حج بها إلي مكة!

وقد اعتبر د. " إدوارد سعيد " ريتشارد بيرتون - وبحق - الأول في سلسلة الرحالة الفيكتوريين إلي الشرق.. " فهو كرحالة مغامر شارك في حياة الناس الذين عاش في أرضهم واستطاع بنجاح أبعد بكثير من - لورانس - أن يصبح شرقيًا، فهو لم يتكلم اللغة بطلاقة

---

(١) Blunt, W.S.: Secret History of the English occupation of Egypt , London , 1907 .

(٢) Blunt , Ann: The Bedouin tribe of the Euphrates , London , 1879 .

(٣) Blunt , Ann: A Pilgrimage to Nejd , London , 1881 .

ترجم هذا الكتاب إلى العربية بعنوان: "رحلة إلى نجد مهد العشائر العربية" ترجمة وتعليق: أحمد ايبش، دار المدى للثقافة والنشر، دمشق، ٢٠٠٥م.

وحسب، بل إنه استطاع أن ينفذ إلي قلب الإسلام، ويحقق متنكرًا كطبيب هندي مسلم، الحج إلي مكة،.. ولم يكن في وسع شخص لم يعرف العربية والإسلام - كما عرفهما بيرتون - أن يبلغ المدى الذي بلغه إذا أصبح فعلًا حاجًا إلي مكة والمدينة.. ولقد تمثلت حرية بيرتون في كونه حرر نفسه من إسار أصوله الأوروبية إلي درجة تكفي لكي يعيش كشرقي، وكل مشهد في الحج يجلوه منتصرًا على العقبات التي تعترضه، ذلك أنه امتلك قدرًا كافيًا من المعرفة بمجتمع أجنبي[1]"..

عرف بيرتون أن الشرق - بشكل عام - والإسلام، بشكل خاص، كانا نظامين للمعلومات والسلوك والاعتقاد.. كما أدرك إلي حد بعيد: أن الحياة الإنسانية في المجتمع الإسلامي محكومة بقواعد وأنظمة وممارسات..

نداء الصحراء:-

وما بين منتصف القرن الثامن عشر ومنتصف القرن العشرين، كان أكثر الرحالة الأوروبيين قد تركوا لنا أدق وأجمل الآثار عن الجزيرة العربية، في تلك المرحلة التي غاب فيها أي عمل تسجيلي عربي!.. وهذه الكتابات الأوروبية خضعت لجدال حاد بين كبار المؤرخين والنقاد.. فقد تأثر المؤرخ الأشهر " ادوارد جيبون " بما كتبه دارفيو ونيبور، فأثنى على حب العرب للضيافة وفنون الشعر وقال: " إن العربي رجل يولد حرًا".. وقال السير " وليم جونز " أبزر علماء اللغات في عصره إن " العرب هم الأمة الفضلى بالنسبة لي "!.. ووصف أهل الحجاز الذين التقى بهم بأن " عيونهم ملأى بالحياة ولغتهم سهلة ويتميز سلوكهم بالرجولة والتهذيب وعقولهم حاضرة دائمًا ومتيقظة ".. والبعض لم يتفق مع مثل هذه الآراء، فالاسكتلندي " وليم ليشجو " لم ير في العربي شجاعة بل حبًا للعصيان والتمرد!.. والحسم بين الفريقين كان على يد السويسري " بور كهارت " الذي برع في رسم الملامح العربية الثابتة: الاعتزاز بالكرامة والحرية وكرم الضيافة ورهافة الحس.. كان بوركهارت أول أوروبي يرسم صورة مفصلة لمكة المكرمة والمدينة المنورة في كتاب تلقفه الأوروبيون في كل مكان[2].

وقد وجد بور كهارت المكيين " طيبين وأذكياء ومضيافين " وأقرب في الطباع إلي أهل البادية الذين يحبهم، من أي عرب حضر! لكن إعجاب هذا المواطن السويسري بأهل الصحراء لن يتوقف عند حد، والرحالة هنا يتحول إلي شاعر يلقي قصائد المديح في حضرة البدو أينما وجدوا، ويجمع المعلومات عنهم ليس فقط في السهوب الصحراوية، بل أيضًا في الدروب والأسواق، وثمة من يقول أيضًا إنه جمع القسم الأكبر من تلك المعلومات في مكة والمدينة ولم يتوغل كثيرًا في الداخل إما بسبب حالته الصحية أو بسبب الحملات العسكرية المتكررة التي كان

---

(١) د. إدوارد سعيد: الاستشراق.. مصدر سابق، ص ٢٠٦.

(٢) Burckhard , J.: Travels in Arabien , London , 1968 .

يقوم بها محمد علي باشا آنذاك لإخضاع الصحراء، غير أن تعلق بور كهارت بالحياة البدوية لم يكن يقبل أي شك ولا أي نقاش. وكان إذا ما رأى أي مسلك خاطيء من البدو سرعان ما يرده إلي تأثير خارجي ويحمل الآخرين المسئولية ولذلك اعتبر أن البدوي الحقيقي هو في قلب نجد " معقل الطباع البدوية الأصيلة والصفاء "!..

ومـن المؤكد أن " بور كهارت " لم ير سوى جزءًا يسيرًا من جزيرة العرب.. لكنه بالتأكيد رأى منها ما عصي على الرحالة الذين لم يعتنقوا الإسلام: مهبط أعظم الرسالات "!

ومما لا شك فيه، أن وصف المدينتين المقدستين: مكة المكرمة والمدينة المنورة قد شغل مكانًا بارزًا في المؤلفات التاريخية والجغرافية وفي أدب الرحلات سواء الإسلامية أو الأوروبية.. لكن يبقى للمستشرقين والرحالة الأوروبيين فضل الانتباه إلي الأمكانية الفريدة التي توفرها هذه المصادر لبعث تاريخ مكة المكرمة والمدينة المنورة والجغرافية التاريخية لهاتين المدينتين المقدستين ...

وكتـابـات هؤلاء الرحالة تنبيء عن أصحابها.. بمعنى أن الرحالة إذ يجتهد في تصوير البلاد التي يرتحل إليها، في مشاهد تتضمن وتحقق الفائدة والامتاع والمؤانسة، فأنه لا يملك أن يخرج عن الإهاب الحضاري الذي يصدر عنه ولا أن يبتعد عن الثقافة التي ينتمي إليها ...

فمـن هم أولئك الرحالة الذين أتوا من شتى بقاع أوربا، الذين اختلفت أفكارهم وطباعهم.. وتباينت توجهاتهم وأهدافهم.. لكنهم جميعًا اشتركوا في تلبية "نداء الصحراء وسحرها الغامض"!

دوافع وأهداف

الرحالة الأوروبيون في بلاد العرب

كـانـت المعرفة الغربية للإسلام ترتقي وتتطور كلما ازدادت بعدًا عن العقدة الصليبية والقرون الوسطى وما رافقها من أكاذيب وأساطير وحماقات وأحقاد. ومع هذا التنور زادت الرغبة في عبور أسوار الجزيرة. غير أن هذا العبور كان متنوعًا أيضًا بتنوع الرغائب والنوايا. كان هناك أصحاب النوايا الرديئة، قبل الرحلة إلي شبه الجزيرة وبعدها. وكان هناك الذين ذهبوا بنوايا سيئة ثم وقعوا تحت نداء الإسلام وسحر الصحراء فأسلموا واستعربوا وأقاموا حتى الموت. وكان هناك الذين ذهبوا، من الأساس وهم مأخوذون سلفًا بما راح مفكرو الغرب الكبار يكتبونه عن انبهار بالرسالة وموطنها. كما كانت هناك فئة ذهبت إلي الصحراء، أو إلي " بلاط العرب " بحثًا عن سلالات الخيـول العربيـة.. أو اقتنـاء المخطوطـات والنقـوش الأثريـة.. أو جمع الفراشـات!!

غيـر أن النتيجة في ذلك كله كانت جبل من الوثائق والرسوم والمفكرات والحكايات واليوميات التي كتبها الرحالة الغربيون على مدى قرن ونصف القرن.

وقـد شكلت منظومة المعرفة الأوروبية ما عرف بـ " علم الاستشراق " حيث تلقي المستشرقون تدريبًا أكاديميًا مكثفًا، وأصبح لكل جامعة أوروبية برنامج دراسي كامل في الاستشراق، وقد حظى هذا الاتجاه، بالدعم المالي من الحكومات والجمعيات والمؤسسات العلمية، كذلك لا يمكننا تجاهل – الدور الكريه، الذي أداه هؤلاء المستشرقون في التمهيد للاستعمار الأوروبي وتوسعه، فكانت عيونهم تجوس بلاد الشرق، ولم يكن ما كتبوه مجرد تسجيل لانطباعاتهم، فنجد كثيرًا من التفاصيل، في عرض دقيق للجغرافيا السياسية والاقتصادية، وفحص للتقاليد وأنماط السلوك، ودراسة للأوضاع الاجتماعية والثقافيـة والإدارية، والاستحكامات الدفاعية لا تخلو من نوازع سياسية، واستكشاف لما يحقق مصالح دولهم[1]

---

(١) عرفة عبده علي: الرحالة السويسري بوركهارت في مكة المكرمة، مصدر سابق، ص ٣٩.

لقـد ملأت الجزيرة العربية مخيلات الغربيين بلا حدود إلا حدود الخيال. وحين بدأ البعض في الوصول إليها اكتشفوا أن الخيال دون الحقيقة، وأن المخيلة دون الخلق، بعضهم جاء ومعه قول شكسبير الشهير في " ماكبث ": كل عطور الجزيرة العربية لن تغسل أصابع هذه اليد الصغيرة! وبعضهم جاء من كتب رائد التاريخ العلمي "هيرودوتس" الذي قال إنها آخر بقعة في جنوب الأرض. إنها، في الحقيقة، قلب الأرض، وقد امتدت على مسافة مليون وربع المليون ميل مربع، يحيط بها المحيط الهندي والبحر الأحمر والخليج العربي، تمددت على تقاطع الطرق بين ثلاث قارات، تملؤها واحات نجد الرائعة وصحاريها الهائلة من الدهناء إلي النفود وترتفع شاهقة فيها جبال الحجاز حتى اليمن وفي منبسطها، مكة، أم القرى وسيدة المدن.

سمـى العسكر الرومان ومؤرخها بطليموس جزيرة العرب ببلاد العرب السعيدة لأنهم لم يستطيعوا الدخول إليها. وألهبت مخيلات الغزاة والشعراء والعلماء لأنها ظلت بمنأى عنهم. وحين تغيرت في الغرب النظرة إلي العرب ودخلت أوروبا عصر النهضة، وجد الحالمون بالسفر أنهم غير قادرين على دخول أرض الإسلام، فكان أن أشهر البعض إسلامه بكل صدق والتحق بالقوافل المتجهة إلي مكة المكرمة أو تخفى البعض الآخر بلسان عربي وثوب إسلامي للقيام بالرحلة. وكانت هناك دربان للقوافل في موسم الحج: الأولى، وهي الأكبر، تنطلق من دمشق ويرافقها نحو ٤٠ ألف جندي تضم الحجيج القادم من تركيا وروسيا وكردستان وآسيا الوسطى، وتتجه عبر الصحراء السورية والنفود إلي المدينة المنورة، والثانية كانت قافلة الحجيج القادمة من القاهرة والتي تضم حجاج مصر وشمال إفريقيا، وتستغرق رحلتها إلي مكة المكرمة ٤٠ نهارًا عبر صحراء سيناء وجبال الحجاز!

لـذلـك نلاحظ أن معظم الرحالة الأوائل كتبوا فصولًا طويلة في وصف الطريق من أولها وسردوا الحوادث والتفاصيل الصغيرة التي عاشوها بين القوافل والأدلة، وغالبًا ما دل السرد على طبائع الرحالة أنفسهم أو على أهدافهم الحقيقية والمهمات التي كلفوا بها. غير أن معظم ما كتبوه بقي مجهولًا أو دون نشر لم يقرأه سوى المختصين، إلي أن زال جو العداء الأوروبي للعالم العربي. ويقول " ريتشارد ترينش " إن معظم الذين حاولوا أن يعدلوا أو يصححوا الجهل الأوروبي كان عليهم أولًا " أن ينتصروا على أنفسهم، فالقلة منهم كانت نخبة حقيقية، اما الباقون فكانوا إمبرياليين أو مغامرين أو وصوليين أو جواسيس أو بحاثة عاديين "!

يقـول ترينش إن " أكثرية هؤلاء جاءوا وهم يحملون الكره للإسلام، وجاء آخرون يدعون أنهم أبناء الإسلام، أما الباقون فجاءوا وفي نيتهم أن يستغلوا الإسلام. لكن أحدًا منهم لم يغادر هذه الأرض إلا وهو يكن للإسلام احترامًا عميقًا إلي ابعد الحدود. والبعض أشهر إسلامه، أما

أولئك الذين لم يتغيروا بعد هذه التجربة العميقة فقد ماتوا بأيديهم. على أن ما كان يجمعهم كلهم هو ذلك الهوس بالجزيرة العربية وبالبدو وبحياة البداوة وبأنفسهم[1]"!

لقد ذهبوا من كل العواصم، وتحت كل الذرائع. كان بينهم من أوفدته الحكومات لدراسة طبيعة الأرض. وكان بينهم من أرسل لدراسة القبائل. وكان بينهم من أرسل فيها بعد لتقصي الإمكانات النفطية. وكان بينهم من أرسل لإغراض سياسية. وكان بينهم – بكل مباشرة – المعتمدون السياسيون! وكان بينهم النساء اللواتي ذهبن منفردات إلي البادية. وكان بينهم من أرسل لإثارة الفتن.

ويتفق المؤرخون الأوربيون على أن أول القادمين إلي الجزيرة العربية كان مغامرًا إيطاليًا يدعى لودفيكو دي فارتيما[2] الذي غادر إيطاليا في العام ١٥٠٢ وكان دي فارتيما على ما يبدو من رجال النهضة حقًا إذ قال: " إذا سألني أحد عن الدافع الحقيقي إلي رحلتي أجيب أنه المعرفة ".

لكن يبدو أن المعرفة لم تكن زاده الوحيد وهو يتنقل في بساتين البلدان التي زارها يتحمل " الجوع والعطش والبرد والحر والحروب والأسر والرعب "! من روما اتجه فارتيما إلي الإسكندرية فالقاهرة وبيروت وطرابلس قبل أن يرسو على الساحل السوري في اللاذقية ومن هناك سار مع قافلة متجهة إلي حلب ودمشق " مدينة جنائن التين والبرتقال والمشمش والتوت والرمان ".

وقد أمضى زمنًا في دمشق يتعلم اللغة العربية ويدرس طباع أهلها ويسير معهم على ضفاف بردي كما فعل ابن بطوطة قبله بقرنين. وهناك أيضًا تعرف إلي " أمير الحج " وأقنعه بالسماح له بالسفر مع القافلة تحت اسم " يونس "، الجندي الأوروبي الهارب إلي خدمة المماليك. في ١١ نيسان / أبريل ١٥٠٢ انطلقت القافلة من دمشق وفيها ٤٠ ألف نسمة و٣٥ ألف جمل و٦٠ مملوكيًا[3]. وكانت القافلة تسير في الصحارى ٢٢ ساعة في اليوم ثم ينفخ قائدها البوق فتخر الإبل دفعة واحدة " أولًا على قوائمها الأمامية فترمي رأسها إلي الأمام، ثم على قوائمها الخلفية فترميه إلي الخلف. وبعد استراحة قصيرة كانت الأبواق تنفخ ثانية فتقوم القافلة من جديد. وقد اعتاد أهلها النوم على ظهور الجمال وهي ترتج في الاتجاهين.

لا ندري مدى جدية هذا الإيطالي المرح والمحب للمبالغة. لكننا لا نلبث أن نراه في جدة.

ولقد أثارت الإمبراطورية العثمانية الاهتمام أكثر من بلاد فارس – تقول " سارة سيرايت " – لأن وجودها كان أكثر أهمية بالنسبة إلي أوروبا. ومعظم العالم العربي آنذاك كان يشكل جزءًا

---

(١) سمير عطا الله: قافلة الحبر.. مصدر سابق، ص ١٦.

(٢) Bidwell , R.: Travellers in Arabia , Gamet Publishing limited , Berkshire , 1994 , P. 20 .

(٣) Bidwell , R.: OP. cit. P 21 .

مهمًا من هذه الإمبراطورية. وحين أسس وليم بدويل " مركز الدراسات العربية في إنكلترا " شدد على أهمية العربية كلغة عالمية في الدين والدبلوماسية والتجارة من الأطلسي إلي بحار الصين. وقد وضع بدويل كتابًا خاصًا بعنوان " الترجمان العربي " ضم فيه كل المصطلحات التي يستخدمها الرحالة. لكن المشكلة التي لابد من ملاحظتها هي أن معظم المهتمين بالعالم العربي باديء الأمر كانوا من رجال الدين المسيحيين، الذين غالبًا ما أقحموا مواقفهم وعواطفهم في المشاهدات أو الدراسات. وقد تعدل هذا الأمر، واعتدل أيضًا، مع حلول القرن الثامن عشر، حين أخذ العلماء والدارسون يفصلون بين الخرافات التي " ركبت " على العرب وبين الحقيقة التي بدأوا يتعرفون إليها عن كثب!

ولـن يكون أول رحالة غربي يتخطى المشرق ليصل إلي الجزيرة العربية نفسها، بريطانيا أو فرنسيًا. لقد كان شابًا من الدنمارك يدعى " كارستن نايبور "، ترك كوبنهاجن في العام ١٧٦١ مع بعثة علمية مؤلفة من ستة أشخاص[١]، ولم يبق منهم حيًا في طريق العودة سواه. الباقون قتلهم المرض والتعب في واحدة من أكثر المغامرات مشقة في التاريخ. أما أعضاء الرحلة الآخرون فكانوا: السويدي بيتر فورسكال وهو عالم نباتات شهير، كريستيان كارل كريمر وهو طبيب دنماركي غليظ الطباع ورئيس البعثة، أخيرًا خادم البعثة " برجـن "!

وبالإضافـة إلي كونها رحلة علمية بحتة، فقد كان لها أيضًا جانب تجاري ودوافع دينية تتمثل في ضرورة التعرف على المدائن والبلاد التي ورد ذكرها في التوراة ومحاولة تحديد مواقعها، والبحث عن إجابات لعدة أسئلة تتعلق بالكتاب المقدس[٢] وعلى رأسها تحقيق وقائع خروج بني إسرائيل من مصر..!

مـا هي حكاية أول رحلة إلي الجزيرة ؟ إنها قصة طويلة قليلًا، مثيرة كثيرًا، ولابد من تفاصيلها لأنها ترسم لنا، بدقائق مذهلة أو محزنة، صورة الرحالة ورحلاتهم من الداخل... قبل الوصول وبعد الوصول!

أمـا " دومينجو باديا " أو الأمير الغامض " علي بك العباسي " فقد كتب قبل الشروع في رحلته إلي الشرق: " بعد أن قضيت عدة سنوات في بلاد المسيحيين، أدرس علوم الطبيعة والفنون التي لا يستغنى عنها الإنسان، عزمت أخيرًا على زيارة بلاد المسلمين ومن خلال أداء فريضة الحج سوف يتسنى لي دراسة سلوك وعادات وطبيعة البلاد التي سوف أمر بها.. خدمة للوطن الذي

---

(١) Bidwell , R.: OP. cit. P 32 .

(٢)OP. Cit., P. 35 – 36

د. محمد بن عبد الهادي الشيباني: أهداف الرحالة الغربيين في الجزيرة العربية، بحوث ندوة الرحلات إلي شبه الجزيرة العربية، دارة الملك عبد العزيز، ١٤٢٤ هـ، الجزء الأول، ص ٥٣١.

أخترته مثواي الأخير "!... شخصية شكلت لغزًا كبيرًا، من خلال مغامراته بالمغرب وإثارته للفتن السياسية بها، ثم رحلته إلي مكة ومشاركته في " غسل الكعبة ".. وقد تضاربت الآراء بشأنه.. هل كان يعمل لحساب الحكومة الأسبانية أم كان – على الأرجح – يعمل لحساب نابوليون بونابرت[١] الذي كان يفكر في غزو الجزيرة العربية والوصول إلي مسقط.. فكان الأمير علي بـك أو " الجنرال باديا " عضوًا فاعلًا في مؤامرة دولية كانت تحاك للمنظمة في ذلك العصر..[٢]!

وفـي الوقت الذي غادر " علي بك العباسي " القاهرة إلي الحجاز، كانون الأول / ديسمبر ١٨٠٦، كان عميل دولة أجنبية أخرى يحاول الانطلاق من العاصمة المصرية إلي الحجاز في هدف مشابه، إنهم هذه المرة، الروس قادمون مع أن اسم موفدهم الخفي يوحي بأنه ألماني الأصل! كان أولريك ياسبر سيتزن في التاسعة والثلاثين من العمر، وكان على الأرجح يحمل من الكفاءات العلمية أكثر من اي " رحالة " أوروبي آخر. فقد درس الطب وعلم النباتات والهندسة المدنية وهندسة المناجم، بالإضافة إلي اللغة العربية. وقد أطلق سيتزن على نفسه لقب مستشرق لكن مهمته الحقيقة كانت إرسال التقارير إلي القيصر عن الوضع العسكري في آسيا الوسطى التي وقفت في وجه التوسع الروسي نحو الهند. ومن أجل أن يعطي تلك الرحلة المصداقية المطلوبة جاء إلي مكة المكرمة يدعي تأدية فريضة الحج. على أن هذا المبعوث المتعدد العلوم كان يعاني من خلل نفسي ظاهر. وكان مقتنعًا بأن مرافقيه الصرب سوف يقتلونه، لكن بعد أيام قليلة غطس هؤلاء في نهر الدانوب المتجمد تقريبًا لكي ينقذوه من الغرق، بعدما رمي نفسه في نوبة حزن شديدة.

جـاء سيتزن إلي القاهرة قادمًا من دمشق وحلب حيث حاول بلا جدوى العثور على آثار البتراء في الأردن، متنكرًا في زي متسول. إلا أنه نجح في رسم أول خريطة للبحر الميت. وفي القاهرة اختفى بين الناس كمتسول حقيقي لمدة ثلاث سنوات، ثم عاد فظهر تحت اسم "موسى" الطبيب[٣]. ومن القاهرة سافر في قافلة إلي السويس ومنها استقل الباخرة إلي ينبع، لكنه منع من الدخول فأبحر إلي جدة واستطاع التسلل إلي مكة المكرمة ثم إلي المدينة المنورة (١٨٠٩) حيث اعتقل ومثل أمام المسئولين فأدعى أنه اعتنق الإسلام قبل فترة قصيرة، ومع ذلك طرد، فعاد إلي مكة المكرمة وأخذ يضع الخرائط لشوارعها ويجمع المعلومات عن التيارات

---

(١) Bidwell , R.: OP. cit. P 29 - 30 .

(٢)أسعد الفارس: الرحالة الغربيون في شبه الجزيرة العربية، بحوث ندوة الرحلات إلي شبه الجزيرة العربية، دارة الملك عبد العزيز، ١٤٢٤ هـ، الجزء الأول، ص ٥٨٠.

(٣) Bidwell , R.: OP. Cit. P 121 .

الفكرية في المجامع الإسلامية. وفي نهاية آذار / مارس ١٨١٠ غادر المدينة المقدسة إلى جدة حيث أقنع عالمًا يدعى الشيخ حريزة بمرافقته إلى اليمن!

ومثـل كارستن نايبور رحالتنا الأول، ذهب " لودفيج بوركهارت " إلى الجزيرة العربية وهو مفتون بها سلفًا ومع أنه وضع كتبه بالإنجليزية وسافر لحساب " الجمعية الجغرافية الإفريقية " في لندن، إلا أنه كان، خلافًا لمعظم الرحالة، سويسري الجنسية، ولد في مدينة " بال " في العام ١٧٨٤ من عائلة من النبلاء كانت تحتفل " بيوم آل بوركهارت " منذ العصور الوسطى[١]. وكان والده أيضًا قد تعرف إلى المؤرخ والمفكر إدوارد غيبون في لوزان كما كان من أصدقاء الشاعر الألماني غوتيه ومن أصدقاء المفكر الفرنسي جان جاك روسو، وجميع هؤلاء كان مأخوذًا بالتاريخ العربي والإسلام، وقد شتتت الثورة الفرنسية العائلة، فذهب يوهان لودفيج إلى ليبزيج ومنها إلى إنجلترا حيث كان يأمل بدخول الجيش أو الوظيفة. إلا أن انتظاره طال وماله نفذ، ومع ذلك ظل على ولعه بإنكلترا الملكية وكرهه لفرنسا الجمهورية. فقد كانت بريطانيا البلد الوحيد في أوروبا حيث يشعر المرء بحريته الفردية. وعندما ذهب إلى الجزيرة العربية كانت حرية الصحراء هي ما يصبو إليه أيضًا.

فـي العام ١٨٠٩ اتفق مع " الجمعية الإفريقية " في لندن على القيام بمهمة شديدة الخطورة وهي اكتشاف قلب إفريقيا الغربية من الشمال عن طريق القاهرة. غير أنه لم يصل إلى إفريقيا الغربية في نهاية المطاف أبدًا بل بقي في الشرق العربي الذي أحبه حتى موته في العام ١٨١٧ بمرض الإسهال، الذي كان يقتل معظم الأجانب في تلك الحقبة!

وقـد تنقل بور كهارت في الجزيرة كمسلم. غير أن الكثيرين من البحاثة الغربيين رأوا أنه كان مسلمًا في قلبه ولم يكن فقط مدعيًا الإسلام. " وربما في النهاية – تقول كاترين تيدريك – أصبح هو حقًا الشيخ إبراهيم، الأسم الذي انتقاه لنفسه، أو العالم الفقير القادم من القاهرة وحلب ". ولم يصبح بور كهارت " الشيخ إبراهيم " فحسب بل أصبح بالفعل أيضًا العالم الفقير الذي كاد يستعطي ليعيش بسبب بخل الجمعية الإفريقية!

وفـي مكة المكرمة شك بعض من حوله في أمره، ولاحظ مرافقيه أنه يدون الملاحظات فأخذه إلى أحد القضاة[٢] يمتحنه في معرفته بالقرآن الكريم، فأعجب القاضي بما سمع وصار يدعوه إلى تأدية صلاة العشاء معه. وتقول تيدريك أنه " أصيب بحمى شديدة وهو في مكة لكنه شعر في المدينة المقدسة وكأنه في بيته. وقد كتب فيما بعد أنه لم يشعر في حياته بالراحة النفسية التي شعر بها وهو في مكانه "!

---

(١) OP. cit: P 50 .

(٢) OP. cit , P. 54 .

يقـول " روبن بيدويل " إن المرء لا يستطيع أن يعتبر بور كهارت أحد رحالة الجزيرة فحسب، إذ كان هو الذي اكتشف، في خلال إعداده للرحلة، أثنين من أهم الآثار في العالم العربي اليوم: البتراء وأبو سمبل! وهذا السويسري القادم من بلاد صناعة الساعات وضبط الثواني، أعد العدة لرحلته بدقة مثيرة، ولذا لقي من المتاعب (باستثناء الاعتلال الصحي) أقل بكثير مما لقي الآخرون[١]

الـواقـع أن التحدي الجغرافي الذي ذهب من أجله في الأساس، أي اكتشاف منابع نهر النيجر والوصول حتى تومباكتو، كان أقسى بكثير من تحديه الصحراء. وحيث قبل بور كهارت القيام بالرحلة لقاء أجر قدره جنيه واحد في اليوم، كان يعرف أن أحدًا من الذين سبقوه إلي المغامرة لم يعد منها حيًا!

وبعـد نهاية القرن الثامن عشر سوف نرى نوعية أخرى مـن المسافرين الأوروبيين. ها هو "شاتو بريان" يتوسل قارئه ألا يتوقع عملًا مليئًا بالمعلومات "لأنني ذهبت بحثًا عن المشهد لا أكثر " ومع ذلك فهو يقدم إلي جانب المشاعر الشخصية، بحرًا من المعلومات المستقاة من الكتاب الآخرين، كما يسارع إلي تقديم انطباعه عن البدو: حواجب مقوسة عالية وأنف مثل منقار النسر وعينان متموجتان!

العـرب البدو، كانوا يختلفون بالنسبة إلي شاتو بريان عن الهنود الأمريكيين! إنهم ليسوا قومًا بدائيين " بل هم بقايا حضارة علاها غبار الزمن "!

وتجـدر الإشارة في هذا الصدد، إلي الندوة الدولية التي أقيمت بمعهد العالم العربي بباريس عن " الرحالة المستشرقين ".. والتي قدم فيها أ.د. " عبد الله المدني " الاستاذ بجامعة الملك عبد العزيز بحثًا عن الرحالة الهولندي " سنوك هورجرونيه " الذي رحل إلي مكة عام ١٨٨٥ مدعيًا أنه مسلم من أصول عربية!.. لإدراكه مدى صعوبة ارتياد الأماكن المقدسة وهو الأمر الذي يصعب على الأوروبيين لسهولة التعرف على ملامحهم الغربية!

وقـد قدم د. عبد الله المدني تحليلًا لشخصية الرحالة الهولندي " هورجرونيه " والتداعيات التي أتت به إلي الحجاز، وتضارب الآراء حول واقعه من هذه الرحلة، وهل اعتناقه للإسلام كان حقيقيًا أم مجرد " قناع " لدخول مكة والمدينة.. وهل كان ذلك من أجل البحث والدراسة أم كان " جاسوسًا " يعمل لحساب السفارة الهولندية ؟!

ويشيـر د. عبد الله المدني إلي أن " هورجرونيه " قد حصل على درجة الدكتوراه عام ١٨٧٤ وفي عام ١٨٨٥ حصل على دعوة من أجل التعرف ودراسة حياة المسلمين في الجزيرة العربية..

---

(١) OP. cit , P. 59 .

وعندما وصل إلي جده أطلق على نفسه اسم " عبد الغفار " مدعيًا أنه جزائري حتى يستطيع أن يدخل مكة المكرمة.

وأقترن بمكية من أصل باكستاني أو أندونيسي.. لكن بعد ستة أشهر افتضح أمره وعرفت جنسيته.. وتزايد الشك في أنه كان يعمل جاسوسًا لحساب بلاده عندما عين في منصب كبير بالسفارة الهولندية فور إطلاق سراحه!.. ويجدر بالذكر أن " هورجرونيه " هو الذي غير الحروف العربية المستخدمة بالسفارة الهولندية إلي اللاتينية!

وتشير بعض المصادر إلي أن " هورجرونيه " قد مات مسلمًا.. ولكن د. المدني يتشكك في ذلك ودليله أن هورجرونيه عندما غادر مكة عاد إلي اسمه الهولندي مرة أخرى.. ويؤكد أنه جاء إلي الحجاز من أجل التجسس بالفعل، لأن هولندا كانت تستعمر الجزر الأندونيسية في تلك الفترة، وكانوا يخشون من توافد الحجاج الأندونيسيين خلال موسم الحج إلي البقاع المقدسة.. وقد ركز هورجرونيه في كتاباته على ذكر تفاصيل طقوس الحج، ويوميات الطلاب والمناهج التي يدرسونها، ويشير د. المدني إلي أن هورجرونيه قد تحدث بقدسية شديدة واحترام بالغ لمشاعر الحج، وسادت كتاباته الطابع الايجابي وهو يحلل ويفحص تفاصيل الحياة اليومية لشعب الجزيرة العربية، من الاحتفالات الخاصة بالأفراح والختان والموالد والمآتم والمناسبات الدينية، وخصص جزءًا عن المعاملات الإسلامية اليومية من حسن معاملة الجار وعدم التعرض للمارة والرفق بالحيوان.. غير أنه تناول بعض السلوكيات بسلبية شديدة ووقف طويلًا عند معاملة الرقيق وأدان العرب بسوء معاملتهم للرقيق!.. ويختتم د. المدني بحثه بأنه لا يعتقد أن " هورجرونيه " قد اعتنق الإسلام.. ولكنه يقر بأنه كان محبًا للإسلام!!

وتجدر الإشارة إلي أن النصف الثاني من القرن التاسع عشر، قد شهد تعاظم نفوذ روسيا في الشرق الأوسط وفي آسيا الصغرى، خاصة بعد ضم أقليم تركستان إلي روسيا عام ١٨٩٨، وبالتالي فقد التحق بقوام الإمبراطورية الروسية الملايين من المسلمين.. وفي ذلك العام، قررت السلطات الروسية إرسال ضابط روسي مسلم إلي مكة هو " عبد العزيز دولتشين ".. الذي أعد تقريرًا تضمن معلومات تفصيلية عن الحج بصفة عامة، والأوضاع الصحية والإجراءات الوقائية، ووصفًا مفصلًا عن مكة والمدينة والتقسيمات الإدارية وطرق السفر.. وكذلك تضمن التقرير معلومات ذات طابع عسكري وسياسي وأثنوجرافي واقتصادي[1]!

---

(١) يفيم ديزفان: الحج قبل مئة سنة، الرحلة السرية للضابط الروسي عبد العزيز دولتشين إلي مكة، دار التقريب بين المذاهب الإسلامية، بيروت، الطبعة الثانية، ١٤١٤ هـ/ ١٩٩٣ م، ص ٣٢.

وجـاءت حقبة " الإمبراطورية البريطانية " إلي الشرق الأوسط، وقد هيأ لها الرحالة والمغامرون – أرضية أسطورية – من الثقافة والحضارة الوطنية.. وقد لاحظ الكاتب البريطاني " ديفيد جونز " أن " الخيال الإنجليزي كان أسير نزعته الفريدة والمتأصلـة التي تقول بضرورة صون وإعزاز كل ما هو مختلف وكل ما هو رائع الجمال! ".. بعبارة أخرى أن " العقل البريطاني يأسره جمال مخيمات البدو بقدر ما يأسره جمال حديقة يانعة في وطنه.. وصور الخيام وأهل العباءات المسدلة الذين يمشون على مهاد الرمال تحتاج إلي تفاصيل من صقل وتصوير في إبداع الكتابة الوصفية "..

ثـم جاءت التوجهات الاستعمارية لتعزز هذا اللون من النشاط، فلكي تستطيع السيادة على مقاليد أهل البلاد عليك أن تفهم حياتهم وتتحدث لغتهم.. فكان الأمر في حاجة إلي كثير من الدهاء.. وهذا يعني القدرة على أن تندس بين أهل البلاد دون أن يلحظك أحد وأن تتصرف كأنك واحد منهم.. فيتوفر لك أكبر قدر من الفهم والمعرفة!.. كان ذلك فكر وتوجهات شرائح معينة من الطبقات العليا الإنجليزية.. وبالتالي كانت رواية " كيم " التي أبدعها " راديارد كيبلنج " حول عالم الجاسوسية والتخفي في زي المواطنين المحليين في الحدود الشمالية الغربية من الهند، ينظر إليها بوصفها أعظم عمل فني أنجزته الحقبة الاستعمارية!!

وفـي هذا الإطار المحدد.. يمكننا القول بأن: توماس إدوارد لورانس والذي اشتهر باسم " لورانس العرب " قد تقمص شخصية " كيم " في رواية كيبلنج.. كان لورانس – خريج جامعة اكسفورد – يجيد اللغة العربية.. وقد كلفته الاستخبارات العسكرية البريطانية بالإبحار إلي ميناء جدة ليستطلع آراء الشريف حسين بشأن عقد تحالف مع بريطانيا بهدف طرد الاتراك الموالين للألمان[١]، خصوم بريطانيا في الحرب العالمية الأولى.. وكان من بين الأغراض التي حملها معه لورانس كتاب تشارلز دوتي " رحلات في صحارى العرب "[٢].. وبمقاييس الإبداع الأدبي كان كتاب لورانس الشهير " أعمدة الحكمة السبعة[٣] " خلاصة تجربته ورؤيته العامة عن المجتمع الصحراوي وسنوات التنظيم والدهاء في رسم الخطط واستثمار الأحداث.. لم يكتفي بأن يرتدي " الدشداشة " البيضاء بل عاش تمامًا سيكولوجية هوية العربي في الصحراء!.. وقد بكاه " تشرشل " خلال جنازته عام ١٩٣٥ قائلًا[٤] " أيًا كانت حاجتنا بعد ذلك فلن نجد إنسانًا

---

(١) روبرت كابلان: الحملة الأمريكية – مستعربون وسفراء ورحالة، ترجمة: محمد الخولي، عن كتاب The Arabists كتاب الهلال، عدد ٥٤٦، القاهرة، يونيو ١٩٩٦، ص ٩٩ – ١٠٠.

(٢) Doughty , C.M.: Travels in Arabia Deserta , New York , 1921 (reprint , New York 1979) introduced by T.E. laurence , 2 vols .

(٣) Laurence , T.E.: Seven Pillars of Wislom , a Triumph , London and Toronto , 1935 .

(٤) روبرت كابلان: الحملة الأمريكية.. ص ١١٥.

مثله... " لقد كان تشرشل على حق، فبرغم المثالب التي شابت شخصية لورانس وأيًا كانت المبالغة في الدور الذي لعبه مع العرب – الذين انتمى إليهم وانتموا إليه – فحقيقة الأمر أن لورانس هو " كيم " في واقع الحياة.. بمعنى أنه كان يمارس أحلامه و" هذيانه " بينما كان يجمع في الوقت نفسه معلومات استخبارية لها قيمتها.. كان مركزه الرسمي هو ضابط مخابرات سياسي استطاع في نهاية المطاف أن يسلم العرب إلي أيادي بريطانيا العظمى!!

لقد كان الشرق الأوسط في تلك الفترة " ساحة قصية مفعمة بالأسرار " مما دفع بريطانيا إلي إرسال عدد من الخبراء ومن ذوي المهارات اللغوية.. وكان من الصعب التمييز بين العالم والدبلوماسي وعميل المخابرات!.. والالتزام العاطفي للورانس تجاه العرب كان جزءًا من العبة السياسية حتى وهو يشارك كعضو في الوفد البريطاني في مؤتمر " فرساي " مرتديًا الملابس العربية كاملة!.. لقد كان لورانس مقتدرًا بوصفه "عميلًا سريًا "!

وبالطبع لا يمكننا أن نغفل الدور الذي قام به " هاري سان جونز فيلبي " الذي اشتهر باسم " جاك فيلبي " عندما بعثت به الحكومة البريطانية إلي نجد.. وجاك فيلبي هو والد العميل البريطاني المزدوج " كيم فيلبي " الذي هرب إلي الاتحاد السوفيتي عام ١٩٦٣ بينما كان يشغل مكانة بارزة في المخابرات البريطانية!.. ومن المدهش أن فيلبي قد خالف آراء كل زملائه عندما أعلن عن قناعته بـأن " رجـل الأقدار في جزيرة العرب هو عبد العزيز آل سعود وليس الحسين بن علي "!

وكـان فيلبي واحدًا من مجموعة ضباط تم تجنيدهم لحساب البعثة البريطانية في البصرة، حيث أضاف اللغة العربية إلي قائمة اللغات التي يجيدها، ومنذ أول لقاء في نوفمبر عام ١٩١٧[١] لم يضيع فيلبي وقتًا لكي يكتسب ود " عبد العزيز بن سعود ".. حتى عام ١٩٢٥ عندما نجحت قوات " عبد العزيز " في زحفها نحو الغرب من وسط الجزيرة، أن تجتاح منطقة الحجاز، ويذهب شريف مكة إلي المنفى، وأصبحت مدينتا مكة والمدينة المقدستان جزءًا من المملكة العربية السعودية، وليثبت فيلبي أنه الوحيد الذي كان على حق.. وما كانت هذه الحقيقة بالشيء الذي يستهان به!..

أصبـح فيلبي الساعد الأيمن للملك عبد العزيز وأمين سره وحاجبه.. وأصبح على كل أجنبي يأتي إلي الرياض سعيًا نحو امتيازات النفط وغيره من العقود التجارية.. أن يبدأ مباحثاته أولًا مع فيلبي[٢]!.. واستغل موقعه المتميز لكي يسافر إلي أماكن لم يكن ليسمح عادة للأجانب بالولوج إليها ثم ينتج عشرات من الكتب والدراسات حول الثقافة العربية والإنسان العربي

---

(1) Bidwell, R.: OP. cit, P. 96 - 97.

(٢) روبرت كابلان: الحملة الأمريكية.. ص ١٢٠ -١٢١.

والكشوف الجغرافية والتي تصنف باعتبارها كتابات كلاسيكية شديدة الأهمية بالنسبة لخبراء المنطقة.. في عام ١٩٣٠، أصبح فيلبي على استعداد – كما عبر عن نفسه – لأن " يذهب مع العرب حتى آخر الشوط "!.. ومع بداية شهر أغسطس من ذلك العام، ارتدى ثياب شيخ عربي وقام بتوقيع وثيقة تشهد بقبوله الإسلام واتخاذه اسم " عبد الله ".. ومن ثم استطاع أن يسافر لأول مـرة إلي مكة وأن يؤدي شعائر العمرة ووصف ذلك بقوله بأنها " كانت تجربة مؤثرة تبعث الرهبة في النفس "!.. وارتقت مكانته في البلاط الملكي.. لكن العلاقة بين الملك سعود وفيلبي شهدت توترًا حتى عام ١٩٥٥ عندما استدعاه الملك سعود بن عبد العزيز في مشهد درامي ينتهي بنفيه إلي لبنان[(١)]!

في يونيو عام ١٩٥٤ نشرت جريدة Daily Star عدة مقالات لفيلبي بعنوان أيام اخري في الجزيرة العربية، ضمنها فصل بعنوان " قصة إبعادي " جاء فيه: " كانت بداية حكم الملك سعود بن عبدالعزيز في نهاية ١٣٧٣ هـ/ ١٩٥٣ م مدخلًا جديدًا لكتابة المقالات " وكتب أنه لابد من إعطاء الملك الجديد فرصة، كما كتب عن التجربة الواسعة التي اكتسبها الملك سعود وهو نائب لوالده.. وأشار الي تقارير عن أحاديثه في الظهران تسربت الي الديوان الملكي، ثم الزيارة التي قام بها عدد من كبار مستشاري الملك حيث طلبوا منه نص أحاديثه في أرامكو والمذكرات التي بني عليها أحاديثه، وأشاروا بأن الملك سعود غاضب من نقد فيلبي وأن عليه مغادرة البلاد، واعتقد فيلبي أن ذلك كان نابعًا من تأثير بعض مستشاري الملك.. كتبت اليزابيث مونرو: " لقد استنفدت محاضراته في أرامكو الصبر الملكي وهي السبب الوحيد لابعاده " (فيلبي الجزيرة العربية، ترجمة: أحمد عمر شاهين، مكتبة الملك عبدالعزيز العامة، الرياض، ١٤٢٤ هـ، ص ٣٢١)

أهداف وغايات الرحلات إلي بلاد العرب:-

ولـدراسـة دوافع وأهداف الرحالة الأوروبيون إلي جزيرة العرب بشكل عام، لابد من أن ننظر إلي معطيات الفترة التاريخية، وأن نرصد الوسط العلمي الذي خرج منه هؤلاء الرحالة.. وكتابات وتقارير هؤلاء الرحالة وحصيلة رحلاتهم تعد امتدادًا لحركة الاستشراق وجهود المستشرقين، وكما يقول د. " أسعد الفارس "[(٢)]: حتى الرحلات العلمية ذات الطابع الأكاديمي كانت مرتبطة بالسياسة أكثر من ارتباطها بالعلم والحضارة، ونادرًا ما حادت عن أهدافها السياسية بالإضافة إلي الأهداف العلمية، ومما يدل على ذلك – وبشكل صريح – ما ورد في الفصل العاشر من كتاب " Leachman ": أن التعاون الوثيق بين المجمع الجغرافي الملكي،

---

(١) Bidwell , R.: OP. cit , P. 114 .

(٢) أسعد الفارس: الرحالة الغربيون في شبه الجزيرة العربية.. مصدر سابق، ص ٥٥٩ - ٥٦٠.

ووزارة الحرب في مطلع القرن العشرين مكن من القيام بالعديد من الرحلات السرية بهدف مزدوج: جغرافي أكاديمي، وهذا الهدف المعلن المقنع للآخرين كان المسوغ لأن يباشر الضباط ذو المهام الخاصة رحلاتهم، وهذه هي الوسيلة التي استخدمتها جميع الدول الكبرى لتحقيق أهدافها فـ " موزيل " ارتحل تحت رعاية المعهد الجغرافي العسكري الإمبراطوري في فيينا، والألمان ارتحلوا تحت رايات المتاحف والجامعات البروسية العظيمة!

أولاً: الدافع السياسي والاستعماري:-

بلـغ التنافس السياسي والاستعماري ذروته بين دول أوروبا، وواكب ذلك تنامي الرغبة في الاكتشاف والريادة، فكان الصراع بين إنجلترا وفرنسا والبرتغال، والصراع المبكر بين شركة الهند البريطانية وشركة الهند الهولندية، بشأن توطيد العلاقـات مع السلطات المحلية وإقامة مراكز تجارية على السواحل[1]، ودراسة أوضاع الوافدين من المستعمـرات المقيمين في مكة والمدينة بالتحديد ومدى تأثير إقامتهم في سلوكهم العام، وإذا كان هؤلاء الرحالة قد سجلوا المعلومات الهامة عن الأوضاع الإدارية وجغرافية المدن والمواقع والطرق، ورسم الخرائط لهذه المدن والاستحكامات الدفاعية، فقد كانوا أيضًا أكثر حرصًا على تسجيل ومتابعة الأوضاع السياسية، مثلما فعل الرحالة الفنلندي " جورج أوجست والين[2] " الذي اشتهر باسم " الشيخ عبد الولي "!.. والذي قام بتكليف من جامعة هلسنكي بالرحيل إلي جنوب نجد عام ١٨٤٥ للتعرف على طبيعة الوهابيين وتوجهاتهم ومستقبل دعوتهم!..

وبالإضـافـة إلي الأدوار والأهداف السياسية المريبة لكل من الجنرال باديا وسنوك هروجرونيه إلي: لورانس العرب وجاك فيلبي وغيرهم.. تجدر الإشارة إلي " ريتشارد بيرتون " أشهر الرحالة والذي أسدى أعظم الخدمات لجيوش الإمبراطورية البريطانية، والذي قام برحلته بتكليف من "الجمعية الجغرافية الملكية البريطانية[3]" لدراسة بلاد العرب ووضع تقارير جغرافية وإدارية وسياسية واقتصادية واجتماعية عنها، ولسـت في حاجة إلي الإشارة إلي علاقة أجهزة الاستخبارات البريطانية بالجمعية الجغرافية الملكية وغيرها من الجمعيات العلمية، وهو ما

(١) محمد محمود الصياد: الرحالة الأجانب في الجزيرة العربية، مصادر تاريخ الجزيرة العربية، جامعة الملك سعود ١٣٩٩ هـ/ ١٩٧٩ م، الجزء الثاني، ص ٤٤١، أنظر أيضًا: على عبد الله فارس " شركة الهند الشرقية ودورها في تاريخ الخليج العربي ١٦٠٠ - ١٨٥٨، الشارقة، الطبعة الأولى، ١٩٩٧ م.

(٢) Wallin , G.A.: Narrative of a Journey From Cairo to Medina and Mecca , in G.A. Wallin , travels in Arabia 1845 and 1848 .

(٣) د. محمد بن عبد الهادي الشيباني: أهداف الرحالة الغربيين في الجزيرة العربية.. مصدر سابق، ص ٥٣٦.

نشهده في عصرنا الحالي من سيطرة أجهزة الاستخبارات الغربية – في ارتباط أوثق ونطاق أوسع – على مراكز البحوث التابعة للجامعات والهيئات العلمية في الغرب.. وكان بيرتون دائم التردد على السفارة البريطانية وتزويدها بتقارير ومعلومات، وكافأته حكومته بأن جعلته قنصلًا عامًا في البرازيل ثم في دمشق! كما كانت توجهات بعض الرحالة أكثر عصرية أو حداثة نحو تدعيم سياسة دمج المستعمرات بالوطن الأم أي الارتباط بروابط ثقافية وحضارية مشتركة والتي رآها البعض أقوى من روابط الهيمنة بالقوة!!

ثانيًا: الدافع الديني:-

أكثر هؤلاء الرحالة قاموا برحلاتهم إلي جزيرة العرب وفق نوايا وأهداف محددة سلفًا، فبعضهم استطاع التخفي والتظاهر بالإسلام، بل وتمكن من الدخول إلي مكة المكرمة والمدينة المنورة مع الحجاج!.. وكان أولهم هو: لود فيجو دي فارتيما أو "الحاج يونس "!.. وقد وضح من خلال ما دونه في رحلته ومن كتابات غيره: مدى التعصب الأعمى ضد الإسلام والمسلمين، وبعضهم قد أتي للإطلاع على أوضاع اليهود في بلاد العرب، والبعض حاول التحقق من المدائن والمواقع التي وردت في التوراة خاصة فيما يتعلق بقصة خروج بني إسرائيل من مصر!..

ومنهم من أتى لزيارة بيت المقدس والبحث عن جذور المسيحية في بلاد الإسلام.. وفي هذا الصدد، لا يمكننا إغفال دور البعثات والإرساليات التبشيرية: الفرنسية والإنجليزية والهولندية، وتفوقها الإرساليات الأمريكية.. وكان للبعض منهم دور في بذر الدعوات العلمانية وإثارة الفتن الطائفية وتجدر الإشارة إلي " وليم بالجريف[1] " الذي تحول أباه عن ديانته اليهودية إلي المسيحية البروتستانتية، وقد خدم بالجريف في الجيش البريطان بالهند سنة ١٨٤٧، ثم تحول بدوره من البروتستانتية إلي الكاثوليكية وقدم استقالته من الجيش وقرر أن يكون " راهبًا " فأنضم إلي جماعة " يسوع " ودرس اللاهوت في روما سنة ١٨٥٣ لمدة أربع سنوات ثم رحل إلي لبنان ليقوم بالأعمال التبشيرية لصالح " جماعة يسوع " وسرعان ما أصبح المسئول الأول عن البعثات التبشيرية في لبنان!.. واضطر لمغادرتها عند نشوب الحرب الأهلية عام ١٨٦٠[2]، ثم أصبح محاضرًا في علوم اللاهوت والتبشير في بريطانيا وإيرلندا، إلي أن رحل إلي فرنسا، حيث أقنع " نابوليون الثالث " بفكرة " تحويل سكان شمال جزيرة العرب إلي المسيحية "!!

---

(١)راجع وليم جيفور بالجريف: وسط الجزيرة العربية وشرقها، ترجمة: صبري محمد حسن، المجلس الأعلى للثقافة، المشروع القومي للترجمة ٢٦٩، القاهرة، ٢٠٠١.

(٢)د. محمد بن عبد الهادي الشيباني: أهداف الرحالة الغربيين في الجزيرة العربية.. مصدر سابق، ص ٥٣٧.

ثالثًا : الدافع العلمي :-

كـان لبعض الرحالة أهداف علمية واضحة – ليست بمعزل عن الأهداف والتوجهات السياسية – وعلى رأس هؤلاء " تشارلز دوتي " خريج جامعة كمبريدج، المتخصص في علم طبقات الأرض، ثم في فقه اللغة والآثار، ويعد كتابه " رحلات إلي الصحراء العربية " من أهم وأفضل كتب الرحالة عن الجزيرة العربية.

وكـانـت جهود الرحالة – جزءًا رئيسيًا – من المنظومة العلمية لجهود المستشرقين في الكشف عن كنوز التراث الإسلامي وجمعها وفهرستها ثم دراستها وتحقيقها وترجمتها ونشرها طبقًا لمناهج علمية، فكان لهم الفضل في اكتشاف الآثار العربية ونشر الثقافة الإسلامية العربية وتطوير العلوم في البلاد العربية، والأهم إبراز معالم تاريخ جزيرة العرب وكشف ما خفي من آثارها، وبالإضافة إلي القيمة العلمية لما دونه هؤلاء الرحالة – كمصدر من مصادر تاريخ جزيرة العرب – فقد ألقت الضوء على أهمية الموقع الجغرافي لمدن مثل مكة والمدينة وجدة، وتاريخ هذه المدن وأوضاعها الإدارية والاقتصادية والاجتماعية والمؤسسات التعليمية وتفاصيل الحياة اليومية، إلي جانب دراسة اللهجات العربية وحياة البدو في الصحراء.

وإذا كانت الطبيعة الصحراوية القاسية قد عرضت حياة هؤلاء الرحالة للموت أو القتل كما حدث للرحالة الفرنسي " هوبر " على أيدي بدو الصحراء.. فالتساؤل الذي يطرح نفسه – وحاولنا الإجابة عنه في هذه الدارسة – عن ماهية الدوافع التي جعلت هؤلاء الرحالة والمغامرون يعرضون أنفسهم لهذه المخاطر ؟!.. وتظل النظرة العربية المرحالة الأجانب بأنهم جواسيس يمهدون لأهداف سياسية أو أنهم أتوا إلي الجزيرة العربية من أجل نهب خيراتها.. أو من أجل مزيد من المعرفة عن الإسلام والمسلمين!.. من خلال مشاهد عن حياة الشرق في الجزيرة العربية اختلطت فيها المعرفة الدقيقة للعنصر الإنساني وللطبيعة ومتغيراتها بأنماط الحياة في الصحراء.. فتعددت الرؤى.. وامتزجت فيها الرومانسية بالواقعية. تاركين لنا كثيرًا من الحقائق.. وأيضًا مزيد من الغموض!!

دي فارتيمـا ..
أول مغامر أوروبي يزور مكة و المدينة !

أجمـع المؤرخون الأوروبيون على أن أول القادمين إلي جزيرة العرب كان مغامرًا إيطاليًا يدعى " لودفيكو دي فارتيما - Ludovico Di Varthema " وفـي الوقـت الذي غادر فيه - دي فارتيما - البندقية سنة ١٥٠٢[١] كانت الأساطيل البرتغالية تقيم المحطات التجارية على سواحل الهند وتقصـف مدنهـا، وكانت رحلته في جوهرها: الاستطلاع والتجسس لحساب البرتغاليين على جميع الشعوب الإسلامية التي مر بها، بدءًا من قدراتها الدفاعية إلي حصر منتجاتها الزراعية والصناعية وقيمتها بالنسبة للتجارة العالمية حتى رصد العادات والتقاليد!

كـان دي فارتيما أحد المغامرين الأوائل الذين كشفوا كثيرًا من معالم الجزيرة العربية وآثارها، وكان واضحًا أن الطموح والمغامرة يتنازعان نفسه، فالمعرفة لم تكن زاده الوحيد وهو يتنقل بين البلدان التي زارها[٢]، بالرغم من محاولته التأكيد على هذا المعنى وهو يقدم لرحلته:

" كثير من الناس كرسوا أنفسهم للبحث في هذا العالم، بتقديم العون للبحوث والدراسات والرحلات، محاولين بذلك تحقيق رغباتهم... وهناك آخرون، كان ذكاؤهم أكثر حدة، فبدأوا في استعراض وملاحظة المناطق العليا في السماء، فحققوا ذواتهم... ولهذا فقد قررت أن أتقصى بعض البقاع في كرتنا الأرضية... وأن أرى بعيني وأتأكد من مواقع المدن والآثار ونوعيات البشر وأجناس الحيوانات، وأن أرى بنفسي الثمار المختلفة والأشجار العطرية التي تنبت في مصر وسوريا، وان أشاهد صحراء الجزيرة العربية، وبلاد العرب السعيدة وبلاد فارس والهند وأثيوبيا، واضعًا في اعتباري أنه ليس من رأى كمن سمع..."!

---

(١) Bidwell, R.: Travellers in Arabia, P. 20 .

(٢) Dionisius , A: Voyagers and Explorers of the sixteenth century, studies in the History of Arabia , 2003, T.2 , P. 12 .

وبالـرغـم من أهميـة رحلة دي فارتيمـا، إلا أن الغموض يغلف سيرته الذاتيـة.. فيقول المستشـرق " بيرسـي بادجـر " أن معظـم ما نعرفه عن دي فارتيها هو ما ذكره عن نفسه، والمؤرخ الإيطالي " زورلا " لم يذكره بين أشهر الرحالة الايطاليين!..

وتشيـر موسوعة التراجم العالمية في القديم والحديث، باريس ١٨٢٧، إلى أنه " رحالة إيطالي قام برحلة في القرن السادس عشر، وهذه الرحلة هامة جدًا للمشتغلين بالتاريخ والجغرافيا وللمؤرخين بشكل عام، وإضافة تعرفنا بالعالم من حولنـا... [١]"!

ويشيـر د. " عبد الرحمن الشيخ " إلى أن دي فارتيها لم يكن فيه من إيطاليـا سوى أنها موضع مولده ومصدر لغته، فالرجـل كان يعمل لحساب البرتغاليين وهم في أوج اندفاعهم نحو الشرق، وملك البرتغـال قام بتمويل رحلته، وقدم له نائبه في الهند " براءة الامتياز والفروسية ".. وضمه أحيانًا إلى جيوشه المحاربة!!.. لذلك تشير بعض المصادر إلى أنه رحالة برتغالي!

ومهمـا يكن من ملاحظات حول بعض ما كتبه دي فارتيها، وتعصبه ضد الإسلام، إلا أن قصة رحلته لاقت نجاحًا هائلًا طوال نصف قرن، حيث تعاقبت طبعاتها وترجماتها خلال ثلاثين عامًا دون إنقطاع!

غـادر فارتيها البندقية في ديسمبر ١٥٠٢، وبعد زيارة قصيرة للقاهرة، توجه إلى دمشق، حيث أمضى زمنًا يتعلم اللغة العربية[٢] ويدرس طباع أهلها، ويسير معهم على ضفاف " بردي " كما فعل الرحالة الأشهر " أبن بطوطة " قبله بنحو قرنين.. وهناك تعرف إلى " أمير الحج " الشامي، وأقنعه بالسماح له بالإنضمام إلى القافلة تحت أسم " يونس " الجندي الأوروبي الهارب إلى خدمة المماليك!

فـي الثامن من إبـريـل عام ١٥٠٣، غادرت قافلة الحج الشامي دمشـق في طريقها إلى مكة المكرمة، ويقول دي فارتيها أن القافلـة تكونت من ٣٥ ألـف جمل و٤٠ ألـف حاج وعدد هائل من الخيـول " وقد كنا ٦٠ مملوكـًا نحرس كل هذه القافلـة "!

بعـد ثلاثة أيام، بلغت القافلة في المرحلة الأولى من رحلتها: " مزيريب " في حوران.. حيث أدرك دي فارتيها ولأول مرة طباع البدو الذين التقى بهم في هذه المنطقـة[٣]...

وفـي الطريق بين تبوك ومدائن صالح، وبعد مسيرة اثنى عشر يومـًا، اجتازت القافلة واديًا

---

(١) رحلات فارتيها (الحاج يونس المصري) ترجمة: د. عبد الرحمن عبد الله الشيخ، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٩٤، ص ١٠.

(٢) Bidwell , R.: OP. Cit , P. 20 - 21 .

(٣) جاكلين بيرن: اكتشاف جزيرة العرب.. مصدر سابق، ص ٤٠.

يمتد نحو عشرين ميلًا... فتوهم دي فارتيما نتيجة تراثه الديني أنهم في مدينتا سدوم وعاموراء ويقول: " وجدنا وادي سدوم وعاموراء، حقا إن الكتاب المقدس لم يكذب، حيث نرى رأى العين أنهما قد دمرتا بسبب معجزة الرب "!!... ويعلق المستشرق " بيرسي بادجر[1] " أن دي فارتيما قد تأثر برواية الكتاب المقدس عن خراب مدينة سدوم - والتي أشار إليها القرآن الكريم في أكثر من موضع - وطريق الحج الشامي في هذا الموضع يبعد نحو عشرين ميلًا إلي الشرق من وادي " عربه " جنوب البتراء، ومن الواضح أنه خلط بين الممر الجدب القاحل الذي يتشعب من سلسلة الجبال الرئيسية والمعروف بـ " عقبة الشامي " وبين وادي سدوم وعاموراء، يؤكد ذلك أن " بوركهارت ". وصف عقبة الشامي باعتبارها تقع على مسيرة اثنى عشر يومًا...!

كذلك يشكك " بادجر " في رواية دي فارتيما عن الجبل الذي يقطنه ما بين أربعة آلاف وخمسة آلاف يهودي[2].. " يروحون ويغدون عراة، ويبلغ طول الواحد منهم خمسة أو ستة أشبار وأصواتهم كأصوات النساء، ويغلب عليهم السواد، ولا يأكلون إلا لحوم الغنم، وهم مختونون ويعترفون بأنهم يهود، وإذا ما وقع أحد المسلمين بين أيديهم سلخوه حيًا.. "!

حيث أن الرحالة الأوروبيين الذين زاروا الحجاز فيما بعد لم يشيروا إلي شيء من هذا.. ويضيف دي فارتيما: " وعند سفح الجبل، بالقرب من بركة ماء يتجمع ماؤها في موسم هطول الأمطار، وجدنا ثماني شجيرات شائكات جميلات، وقد عششت فيها قمريتين، فبدت لنا كمعجزة وسط هذا الهجير القاحل، فقد سافرنا خمسة عشر نهارًا وليلة لم نصادف خلالها طيرًا أو حيوانًا.. "!

دي فارتيما في المدينة المنورة:

في اليوم التالي، وصلت القافلة إلي مشارف المدينة المنورة، وعلى مسافة أربعة أميال، يقول فارتيما: " وجدنا بئرًا، توقفت القافلة عندها يومًا، حيث استحم كل أفراد القافلة وارتدوا ملابس الإحرام من الكتان النظيف، ومدينة النبي تضم حوالي ثلاثمائة منزل شيدت من الحجارة، ويحيطها سور من الطين... والمنطقة المحيطة بالمدينة قاحلة باستثناء بستان يضم نحو ستين نخلة، وفي نهايته قناة تنحدر نحو أربعًا وعشرين درجة، ومن هذه القناة ارتوت القافلة عند وصولها للمدينة "[3] كان واضحًا أن دي فارتيما يصف حدائق قباء وعين الزرقاء، وكان

---

(١) راجع تعليقات " بادجر " رحلات فارتيما.. مصدر سابق، ص ٤٧ - ٤٨.

(٢) المصدر السابق، ص ٤٩.

(٣) رحلات فارتيما.. مصدر سابق، ص ٤٢.

سائدًا في أوروبا - في ذلك العصر - الاعتقاد بأن " جسد النبي محمد معلق في فضاء المسجد الحرام بمكـة " .. وقام دي فارتيما بتصحيح هذا الاعتقاد الخاطيء والغريب.. حيث قال: " أن أولئك الذين يقولون بأن رفاة محمد معلق في الهواء بمدينة مكة - كاذبون - ويستحقون التوبيخ[١]!.. فقد رأيت قبره بالمدينة المنورة التي مكثت بها ثلاثة أيام وكنت حريصًا على رؤية كل شيء فيها، وفي اليوم الأول من وصولنا، كنا مجبرين على أن يصطحبنا بعض الأشخاص (مطوفين) الذين أمسكوا بأيدينا وقادونا إلي ضريح النبـي محمـد "..

ووصـف دي فارتيمـا مسجد النبـي فـأشـار بأن طوله يبلـغ مائة خطـوة، وعـرضـه ثمانيـن خطوة، وفي كل واجهة من واجهاتـه الثلاث بابان، أما الواجهة الرابعة فلا أبواب فيها، وسقفه يرتفع على عقود تعتمد على أكثر من أربعمائة عمود من الحجـارة المطلية باللون الأبيض، ويزدان بثلاثة آلاف من المصابيح... " وإلي اليمين من رأس المسجد يوجد برج مربع، يبلغ طول كل ضلع من أضلاعه خمس خطوات، وقد غطي بالحرير، وعلى بعد خطوتين حاجز معدني مشغول جميل، يقف النـاس ازاءه لرؤية هذا البرج، الذي يدلف إليه من باب صغير، وعلى كل جانب من جانبيه نحو عشرين كتابًا تتناول سيرة النبي وأحاديثه وكذلك سير الصحابـة ومآثرهم ... ويوجد إلي الداخـل قبور محمد وعلي وأبي بكر وعثمان وعمر وفاطمة "!!.. (من المعـروف أن أبا بكر وعمر رضي الله عنهما فقط المدفونان بالروضة الشريفة، والإمام علي كرم الله وجهه هناك رأي بانه مدفون بالكوفة - العتبات المقدسة – وهناك رأي اخر بانه دفن في النجف، أما ذو النورين عثمان فمدفـون بأطراف المدينة، وفي البقيع مثوى السيدة فاطمة الزهراء) ويسقـط دي فارتيما ثقافتـه المسيحية على أعلام الإسلام عندما قال عن أبي بكر الصديق " يمكن وصفه بأن كاردينـال - **Cardinal** وكان يطمح أن يكون بابا - **Pope**"[٢]!

ويشيـر دي فارتيمـا إلي أنه وأصحابه لم يروا ما ادعاه بعض الشيـوخ الذيـن التقوهـم خارج المسجد " النـور الذي يسطع ليلًا من بيت النبي "!.. فكان تعقيب أحد هؤلاء الشيوخ، بعد أن عرف أنهم مماليك " أنكم لن تستطيعوا رؤية هذه الأمور الروحية، فأنتم لستم صادقين في عقيدتكم "!

ويشيـر دي فارتيمـا إلي أن ساحـل البحـر الأحمـر يبعد عن المدينـة مسيـرة أربعة أيام، والمؤن الغذائيـة تأتيها من اليمن والقاهـرة وأثيوبيـا عن طريـق البحـر.

---

(١) المصدر السابق، ص ٤٣.

(٢) المصدر السابق: ص ٤٤.

في مكة المكرمة:

وبعد أن حدثنا دي فارتيما عن تجهيز القافلة للرحيل إلي مكة.. " مع الأدلة الذين راحوا يفحصون الخرائط والبوصلات "!.. ويستبعد المستشرق " بادجر " أن يستخدم الأدلاء البدو خرائط أو بوصلات لمعرفة الطريق من المدينة إلي مكة، وربما استخدموا البوصلة المسماة " قبلة نامة – Kibleh Nameh[1] " التي كانت تستخدم لتحديد الاتجاه أثناء الصلاة، بالرغم من أن العرب عرفوا البوصلة وكانت شائعة الاستخدام في البحر الأحمر والخليج باسم " بيت الأبرة"!

ومضت القافلة جنوبًا في رحلة شاقة ومروا بـ " بئر رائعة زاخرة بالمياه الوفيرة " وقال بأن الرجال كانوا يركبون فوق جمالهم داخل صناديق خشبية (الشبرية أو التختروان) حيث يأكلون وينامون داخلها!

وكان دخول القافلة إلي مكة المكرمة في الثامن عشر من مايو سنة ١٥٠٣ ووصفها دي فارتيما بأنها مدينة رائعة الجمال وتضم نحو ستة آلاف أسرة، وأعجب ببيوتها " كمنازلنا في إيطاليا"!.. والجبال المحيطة بمكة هي بمثابة أسوارها... " ويوجد في الناحية الجنوبية من مكة جبلان يكاد أحدهما يلامس الآخر، بينهما بوابة تفضي إلي بوابة مكة " وعند سفح أحد الجبال توجد مستودعات للمياه مشيدة بشكل رائع، مخصصة لقوافل الحج القادمة من القاهرة ودمشق... وأشار إلي الجدب الذي يحيط بمكة " فالمنطقة المحيطة بها لا تنبت عشبًا ولا شجرًا ".. وتحدث عن معاناة أهل مكة من نقص المياه، وأن جانبًا كبيرًا من مؤونتهم يأتيهم من القاهرة وبلاد العرب السعيدة عن طريق ميناء جدة الذي يبعد عن مكة نحو أربعين ميلًا... وأشار إلي تجارة هائلة تعبر مكة، فمن أثيوبيا والسواحل الشرقية لأفريقيا تأتي البهارات، ومن الهند ترد تجارة المجوهرات بأنواعها، ومن بلاد البنغال ترد تجارة هائلة من الأقمشة القطنية والحريرية والشموع والعطور، وأضاف دي فارتيما أنه لم ير في حياته مثل هذا الحشد الهائل متجمعًا في مكان واحد.. " كما رأيت هنا في مكة خلال العشرين يومًا التي قضيتها في هذا البلد، لقد أتى بعض هؤلاء من أجل التجارة والبعض الآخر طمعًا في أن تغفر ذنوبهم "!

وصف الكعبة والمسجد الحرام:

وقد شاهد دي فارتيما الكعبة في حالتها القديمة.. وقال: " في وسط مكة يوجد معبد (يقصد المسجد الحرام) رائع جدًا يشبه الكولوزيوم في روما – Collesseum of Rome!..

---

(١) The Travels of ludovico di Varthema , by J. Winter Joues and edited by G. Percy Badger , 1863 , P.53 .

مشيد من الطوب الأحمر وله تسعون أو مائة باب ذات عقود[1]، وحول مدخل هذا المعبد، تجمع عدد من باعة الجواهـر ولا شـيء غيـرهـا "!

ويتـوهـم دي فارتيما أن جميـع أرجـاء المسجد وجـدرانه مغطـاة بالـذهـب!.. ونحو خمسة آلاف، رجال ونساء، يفترشون أروقة المسجد، يبيعـون العطور بأنواعها للقادمين من بقاع الأرض.. " يا لروعة هذه الروائح الزكية التي شممتهـا في هذا المكان فتبعث في النفس انتعاشًا وبهجـة "!

ويصـف دي فارتيما الكعبة فيقول: " وتتوسط صحن المعبد المكشوف (المسجد الحرام) برج - Tower (الكعبة المشرفة) ويبلغ طول كل ضلع ست خطوات، وقد غطى بالحرير الأسود (الكسوة) ومدخله من الفضة الخالصة بارتفاع قامة الإنسان، وعلـى جانبي هذا المدخل توجد جـرة يقولون أنها مليئة بالبلسم.. وفي كل ركن من أركان (الكعبة) حلقة ضخمة "...

ويشيـر دي فارتيما إلي أن الحجيج في الرابع والعشريـن من مايو، بدأوا قبـل بزوغ الشمس في الطواف سبعًا حول الكعبة، وهم يتمسحون بأركانها ويقبلونها، وعلى مسافة اثنتـي عشرة خطوة من الكعبـة، يوجـد بناء آخـر تميزه أربعـة أبـواب، بداخله بئر رائعة، ماؤها مالح قليلًا (أشـار بيرتون إلي أن البناء المحيط ببئر زمزم قد شيـد سنة ١٠٧٢ م وقدر المسافة بين البئر والكعبة بنحو أربعيـن ذراعـًا) ويقـف عليها ستة أو ثمانية رجال لسحب المياه، ويقومون بصب ثلاثة أواني على كل حـاج من أعلى رأسـه، حتـى لو كان مرتديًا ثيابًا من حرير!.. " ويقولون أنهـم بهذه الطريقـة يتخلصـون من الخطايا "!.. ثم يتوجه الحجيج إلي سفـح جبـل " منى " لتقديـم الأضاحي " وما من رجل أو امرأة إلا وينحر رأسين أو ثلاثة على الأقل، حتى قد تـم ذبح أكثر من ثلاثين ألف رأس من الغنم في اليوم الأول "!... ففاض الخير على فقراء مكة...

وأشـار دي فارتيما إلي أن أحد العلماء صعد إلي قمة الجبـل وخطب في الناس خطبة استغرقت نحو ساعة (خطبة وقفة عرفات) فأهـاج مشاعر الناس طالبين من الله الرحمة والمغفرة... ويصف دي فارتيما شعيرة رمي الجمرات، وأشار إلي " حمام الحمى " والذي يتراوح عدده ما بين ١٥ و٢٠ ألف حمامة " ويعتقدون أنها من سلالة الحمامة التي كانت تحدث النبي بوصفها الروح القدس "!.. ومن الواضح انها احدي الحكايات أو الخرافات التي استمع إليها في دي فارتيما خلال رحلته وقام بتدوينها في مذكراته!

---

(١) أشار جوزيف بيتس الذي وصف الحرم المكي سنة (١٦٠٨) بأن عدد أبوابه اثنين وأربعين بابًا، وقال الأمير علي بك العباسي (١٨٠٧) أن للمسجد الحرام تسعة عشر بابًا وهو نفس ما ذكره بوركهارت (١٨١٤) وأشار تاميزييه (١٨٣٥) بأن عدد أبواب الحرم ستة عشر بابًا، وقال دولتشين (١٨٨٩) بأن للحرم أربعة أبواب كبيرة هي: السلام، الصفا، إبراهيم، الزندة بالإضافة إلي ١٨ مدخلًا صغيرًا..!.

ثـم تحدث دي فارتيما عن اثنين من حيـوان وحيـد القرن داخل موضع مسور بأحد جوانب المسجد!.. " أهداهما ملك اثيوبيا إلي شريف مكة باعتبارهما أطرف وأجمل ما في العالم[1]"!

وعـزم دي فارتيما على الهرب من قافلة الحج الشامي، فلم يشأ العودة إلي دمشق، والتقى مملوكًا (تاجرًا) في أحد الأسواق، الذي آواه في بيته، وبينما كان مختبأ في جناح الحريم " كان صوت المنادي ينذر المتخلفين بالإعدام شنقًا "... ويزعـم أن صاحبة الدار وأختها ذات الخمسة عشر ربيعًا فد أحاطتاه برعاية فائقة ويتمكن من الوصول إلي جدة " مدينة مزدحمة، لا يحيط بها سور، وإنما يحيط بها منازل غاية في الجمال.. " ومنها إلي " جيزان " وأدهشه وفرة الفاكهة بها، ثم إلي " عدن " التي وصلها عن طريق البحر، وخلال تجواله، وشى به بأنه نصراني يتجسس لحساب البرتغاليين[2]، فألقي القبض عليه، وسيق مصفدًا إلي قصر الحاكم، بينما جموع الناس تطالب بشنقه، إلي أن تم ترحيله إلي سلطـان اليمن، حيث تظاهر هناك بالجنون... ويزعم أن السلطانة قد وقعت في غرامه " بعد أن رأته من نافذتها، فرقت لحاله لا سيما وأن بياض بشرته قد أثر فيها كل التأثير "!.. وقد كذب المؤرخ " روبين بيدويل "[3] هذه الرواية واعتبرها من نسج خيال دي فارتيما، واعتبرها من جملة الادعاءات التي ضمنها كثير من الرحالة يومياتهم، متأثرين بحكايات وأساطير " ألف ليلة وليلة " التي كانت في خيال الأوروبيين نموذجًا لحياة الشرق بكل ما فيها من سحر وغموض!

---

(١) رحلات فارتيما.. مصدر سابق ص ٥٨ - ٥٩.

(٢) د. عبد الرحمن الشيخ: لودوفيكو فارتيما الرحالة الإيطالي والعميل البرتغالي ورحلته إلي الأماكن المقدسة سنة ١٥٠٣، مجلة جامعة الملك سعود، المجلد الرابع، ج ٢، الرياض ١٤١٢ هـ/ ١٩٩٢.

(٣) Bidwell , R.: Travellers in Arabia , P. 23 .

أول ألماني!

اتفق المؤرخون والمستشرقون الأوربيون على أن البولوني " لودفيكو دي فارتيما " كان أول رحالة أوروبي أتي إلي جزيرة العرب، سنة ١٥٠٣، والشكوك تحوم حول صحة الرواية القائلة بأن الرحالة " كابوت " قام بزيارة مكة المكرمة فيما بين عامي ١٤٧٦ و١٤٩٠...!

كذلك ما أشارت إليه "جاكلين بيرن"[1] بأن الملك "جان" عاهل البرتغال قام بإرسال "بدرو دي كوفيلها" إلي جزيرة العرب سنة ١٤٨٧، وكان يتحدث العربية، للتحقق من إمكانية الوصول إلي الهند مرورًا بالبحر الأحمر، وقد إنضم إلي قافلة من المغاربة رحلت من القاهرة، وأبحر إلي عدن على ظهر مركب، ومنها إلي الهند، وعقب عودته إلي القاهرة، تلقى أمرًا من مليكه بالتوجه إلي بلاد الحبشة، وقد روى "كوفيلها" قصة أسفاره، زاعمًا أنه قام برحلة إلي مكة والمدينة.. لكن ليس هناك ما يؤكد صحة مزاعمه!

وإلي جانب خدمة مصالحهم التجارية، فقد كان للبرتغاليين هدفهم في شن حرب صليبية وحملات تبشير، وقد بدأت بتوجيه جانب من هذه الحملات إلي الحبشة، فكان ذلك منشأ رحلات الأستطلاع الموجهة إلي الساحل الغربي للبحر الأحمر[2] فيما بين عامي ١٥١٥ و١٥٢٨.. فكان القرن السادس عشر: عصر السيادة البحرية البرتغالية على بحور سواحل شبه الجزيرة العربية، حتى تأسيس شركتا الهند الإنجليزية والهولندية في أوائل القرن السابع عشر.

لم يبذل البرتغاليون أي جهد للتوغل داخل جزيرة العرب، بينما كان للأسرى فضل كشف بعض الجوانب من حياة العرب وبلادهم، وكان الاتراك حريصون على الإيقاع بأكبر عدد من الأسرى، ويقبلون الإفراج عمن تدفع عنهم فدية مالية كبيرة.. فكان من بين هؤلاء الأسرى " جوزيف بيتس " أول بريطاني وثاني أوروبي يزور مكة المكرمة سنة ١٦٨٠.. وهؤلاء الأسرى

---

(١) جاكلين بيرن: " اكتشاف جزيرة العرب " ص ٣٧.

(٢) المصدر السابق: ص ٥٩.

يمكن أن نطلق عليهم " رواد بالمصادفة "!.. وقبل نحو سبعين عامًا من رحلة " بيتس " وقع شابان في الأسر، وتم بيعهما أكثر من مرة، وساقت الأحداث بأحدهما إلي المدينتين المقدستين!.. فما هي قصة أول ألماني وصل إلي مكة المكرمة والمدينة المنورة ؟!

الألماني الأسير " جوهان وايلد " في مكة والمدينة!

ولد " جوهان وايلد. Johann Wile " عام ١٥٨٥ بمدينة " نورنبرج – Nurnberg " بجنوب ألمانيا، وعندما كان يؤدي خدمته العسكرية بالجيش الإمبراطوري في المجر، أسره الأتراك واقتادوه إلي القسطنطينية في عام ١٦٠٤ ورافق سيده في رحلة الحج إلي مكة المكرمة عام ١٦٠٧، واستمر أسيرًا حتى عام ١٦٠٩، عندما استعاد حريته وعاد إلي وطنه عام ١٦١١، حيث كتب مذكراته عن هذه الرحلة[1]: " تقرير رحلة لأسير مسيحي – Travel Record of a Christian Captive " طبعت للمرة الأولى سنة ١٦١٣ ثم أعيد طبعها سنة ١٦٢٣ م.

وقد بيع جوهان وايلد خلال فترة أسره: سبع مرات، وكانت المحطات الرئيسية لرحلته الطويلة مع سادته، والتي بدأت من نورمبرج سنة ١٦٠٤: هنغاريا (المجر) القسطنطينية، الإسكندرية، القاهرة، ثم الرحيل برًا إلي مكة سنة ١٦٠٧ ثم المدينة المنورة،

ثم الرحيل بحرًا إلي مخا، السويس، القاهرة، سيناء، القدس (١٦٠٨) دمشق، القاهرة.. تحرر من العبودية (١٦٠٩) قبرص، العودة إلي القاهرة بعد تحطم سفينته.. ثم الرحيل إلي القسطنطينية.. الدانوب، ليمبرج، كراكو، براج، ثم نورمبرج عام ١٦١١ م.

عقب وصوله إلي القسطنطينية، بعد أسره في عام ١٦٠٤، باعه الأتراك إلي تاجر رقيق، الذي باعه بدوره إلي مالك جديد توجه به إلي القاهرة، حيث باعه إلي تاجر إيراني هو الذي رافقه في رحلة الحج إلي مكة المكرمة..

تحركت القافلة في الطريق البري عبر سيناء، مكونة من عشرين ألف رجل، ومائة ألف جمل، حتى وصلوا إلي مدينة " العقبة " وبعد ثلاثة أيام " وصلنا إلي مكان بأحد الجبال، حيث وجدنا حفرة يبلغ عمقها نحو ثلاثة امتار، قيل لنا أن أحد الأنبياء كان مدفونًا في هذا المكان!.. (ربما كان هذا المكان هو المنسوب للنبي شعيب بأرض مدين).. وقد احتفظ الحجاج بحبات من الرمال تبركًا[2]"!

---

(١) Korte, K.Sch.: Johan Wile – the first German in Mekka and Medina, 1604 – 1611, English Research, pp. 58-60.

(٢) Korte: Op. cit. P. 59.

بعـد عشرون يومًا من مغادرتهم للقاهرة، وصلوا إلي مدينة "ينبع" بعد أن فقدت القافلة نحو ١٥٠٠ رجل و٩٠٠ جمل و"يعتقد أمير الحج أن ثلاثة آلاف آخرين لن يعودوا إلي القاهرة"!

بعـد ثلاثة أيام من مغادرة " ينبع ".. هاجم البدو القافلة، فقتلوا ثلاثمائة حاجًا وخمسمائة جمل.. واتخذت القافلة طريقها بين الجبال الوعرة " حتى وصلنا إلي مكان معركة قديمة " معركة بدر " في مكة "..[1] وأضاف وايلد بعض التفاصيل عن عادات البدو وملابسهم..

وتحـدث وايلد عن الحجر الأسود ومناسك الحج فقال: " في أحد أركان بيت الله (الكعبة المشرفة) إلي الجهة اليمنى باتجاه مشرق الشمس، يوجد الحجر الأسود وهو بحجم قبضة اليد.. كان الحجيج يقبلونه سبع مرات.. وخلال الطواف سبع مرات.. كانوا يدعون ربهم طالبين الرحمة والمغفرة ".. ووصف رحيل الحجيج وصعودهم إلي جبل عرفات، ورمي الجمرات.. كما وصف بئر زمزم ومقام إبراهيم.. وأشار إلي أن مجموع الحجاج القادمين من القاهرة ودمشق واليمن كان أكثر من ٤٠ ألف حاج!

في المدينة المنورة:

وعقـب انتهاء مناسك الحج، توجهت القافلة إلي المدينة لزيارة ضريح النبي – صلى الله عليه وسلم – وقال وايلد: " توجهنا إلي المدينة، حيث كنيسة تركية كبيرة!.. (يقصد الحرم النبوي) وقد أتت مجموعة من العرب (مطوفون) إلي سيدي يسألونه إذا كان يريد التوسل إلي النبي محمد، وعندما أبدى موافقته، طلبوا مبلغًا من المال (نصف تالار).. وذهبنا معهم والحجيج يرددون ما يقولونه من أدعية وصلوات.. وباتجاه مشرق الشمس، وقفنا إزاء غرفة مغلقة تزدان بشبكة من الحديد والنحاس المشغول، لم يكن مسموحًا لأحد بالدخول.. وظل الحجاج يرددون الأدعية متوسلين إلي النبي محمد، وفاطمة، وعمر ثم عثمان، وعلي، والحسين وأبي بكر "![2].. ووصف القناديل التي تزين المسجد، والدراويش الذين يتكسبون باحراقهم للبخور!

ونفـى وايلد ما كان سائدًا في الفكر الأوروبي في ذلك العصر بأن " الجسد الطاهر " للنبي معلق بسقف المسجد – داخل تابوت – بفعل جذب حجر مغناطيسي!.. وقال أنه شاهد الضريح من خلال النحاس المشبك أو المشغول مغطى بنسيج مخملي جميل معطر وقد وضعت فوقه باقات الورود "!

وأشـار وايلد إلي أن سيده – الإيراني – كان يقضي بعض وقته في الاتفاق على صفقات تجارية

---

(١) من الواضح ان جوهان وايلد قد أخطأ في تقديره أنها معركة بدر، علمًا بأن وقائع هذه المعركة حدثت في "بدر" نفسها التي تبعد عن ينبع بنحو ٩٠ كيلو مترًا، وعن المدينة المنورة بنحو ١٥٠ كيلو مترًا.

(٢) Korte: Op. cit. P. 60 .

لشراء بضائع متنوعة.. من مكة والمدينة ومخا، وشحنها بحرًا إلي مصر.. ووصف سيده بأنه كان يبدو – أحيانًا – شديد القسوة!

كـانـت لغة وايلد واضحة، بسيطة، ومعلوماته دقيقة، في شيء من التفصيل وأشاد بالعالم – الكوزموبوليتاني – للشرق.. حيث يعيش المسلمون والمسيحيون.. العرب والبدو، الفرس واليهود، والأرمن " الذين يقدمون خدماتهم لكل من يقابلهم "!

ومـن خلال وصف رحلاته الطويلة، حرص وايلد على أن تتضمن يومياته بعض المعلومات عن المعاملات التجارية، والعلوم، وملاحظات عن السكان.. وكان طوال إقامته في القاهرة والقسطنطينية حريصًا على تدوين تقارير قيمة، بعضها مرتب، موضوعيًا.. والبعض الآخر على شكل حكايات أو قصص قصيرة.. شملت أحوال التجارة.. عقوبة الأتراك المخمورين.. موضوعات دينية.. الزواج.. الختان.. الأزياء.. المكوس أو الضرائب.. تسالي اوقات الفراغ.. أحوال النساء.. الزراعة وأحداث سياسية، وتفاصيل من الحياة اليومية.••

لقـد كان " جوهان وايلد " الأوروبي الوحيد الشاهد على عظمة المدينتين المقدستين، بعد عصر " دي فارتيما " بأكثر من مائة عام!

جوزيف بيتس ..
قصة أول بريطاني يزور مكة المكرمة

تتلخـص أهمية رحلة البريطاني "جوزيف بيتس دكسيتر[١]" سنة ١٦٨٠ في أنه أول بريطاني وثاني أوروبي يزور " مكة المكرمـة " في التاريخ الحديث، ليس هذا فحسب، بل وبالرغم من كل ما عاناه، فقد قدم لأبناء جلدته من الأوروبيين معلومات هامة كانوا يجهلونها عن مدينتي مكة والمدينة المنورة وقوافل الحج[٢] وشعائره على جانب كبير من الصواب!.. وهو أيضًا أول من وصف طريق الحج - البري والبحري - من بلاد الغرب مرورًا بمصر.. وقد نشرت قصته في إنجلترا عام ١٧٠٤ م.

ويقـول الرحالة الإنجليزي الأشهر "رتشارد بيرتون[٣]" أن ذكاء بيتس وحبه للمغامرة والتطلع إلي مزيد من المعرفة دفعه إلي مغادرة إنجلترا عام ١٦٧٨ وهو لم يتجاوز الخامسة عشرة من عمره، وعمل بحارًا على إحدى السفن، وكان حوض البحر المتوسط يشتعل بحروب " الجهاد البحري " التي كان يشنها المسلمون المطرودين من الأندلس وبعض من البربر والأتراك..

---

(١) Pitts, Joseph: An Account by Joseph Pitts of his Journey from Algiers to Mecca and Medina and back, in the Red Sea and Adjacent countries at the close of the Seventeenth Century, ed lysir W. Foster CIE, London , 1949, PP. 3 - 49

راجع أيضًا

- Beckingham , C.F.: The Date of Pitts's Pilgrimage to Mecca, Journal of the Royal Asiatic Society, 1950, P. 112 .

(٢) Faroqhi, N.R.: Ottoman Documents Concerning the Hajj during the Sixteenth Centuries, in La Vie Sociale dans les provinces arabes a L'epoque ottoman, Zaghouan, 1988, Vol 3 , P. 161 - 162 .

(٣) Burton, R.: Personal Narrative of a Pilgrimage to El Madinah and Meccah London 1907, P. 359 - 360 .

وفي ظل هذه الظروف وقع بيتس أسيرًا في يد أحد الجزائريين الذي قرر أن يجعله منه مسلمًا، ورافق سيده الجزائري في رحلته إلي الأماكن المقدسة، سالكين طريقًا بحريًا إلي الإسكندرية فرشيد.. ثم أبحرا في النيل إلي القاهرة، ثم برًا إلي السويس ومنها إلي الطور ثم رابع على الساحل الشرقي للبحر الأحمر وفي جدة استقبلهما المطوفون واصطحبوهما إلي مكة المكرمة.

وبعـد أدائه لفريضة الحج أعتقه سيده واعتبره بمثابة إبن له، وكتب له ما يفيد عتقه، وعاد بتس - باختياره - إلي الجزائر وعاش مع سيده السابق سنوات طويلة قبل أن يفكـر في الهرب، وهذه المدة الطويلة كانت كافية - فيما يقول الرحالة العالم رتشـارد بيرتون[1] - كي تجعله ملمًا بكثير من المعلومات عن المسلمين وعن أحوال البلاد التي رآها - رغم أنه لم يحظ بقسط كاف من التعليم. فكتاباته - فيما يقول بيرتون - تخلو من الأحكام المسبقة والتعصب والميل للخرافة كما أنه ليس ساذجًا - رغم صغر سنـه!

ويشيـر "بيرتون" إلي أن بيتس قد سعى للعثور على وسيلة تمكنه من مغادرة البلاد، فانخرط في سلك الجندية وأصبح من أفراد كوكبة الخيالة التي أرسلها السلطان العثماني إلي الجزائر.. وبعد طول تردد تمكن بيتس من الفرار إلي أزمير.. وعاش فترة من العناء في تركيا حتى أنه فكر في العودة إلي الجزائر وأن يحيا بها كمسلم بقية عمره، إلي أن أعانه أحد التجار الإنجليز بأربعة جنيهات استرلينية مكنته من السفر إلـي " جنوه " على سفينة فرنسية، ولما وصل إلي هناك سجد لله شكرًا على عودته لأرض المسيحية!.. ثم جاب إيطاليا وإلمانيا وهولندا، وعندما عاد إلي إنجلترا واجه بعض المتاعب حتى أنه ندم على مغادرته للجزائر، حتى استقامت أموره بعد ذلك.

وقـد تميز بيتس بدقة التفاصيل ووصف الأشياء دون تنميق وبموضوعية تامة وبعمق في فهم العقلية الدينية للحجاج في إطار من الاحترام الكامل، بالرغم من أنه لم يؤمن بما يؤمنون!!

منـادي الحـج فـي الجـزائـر:-

يشيـر جوزيف بيتس إلي "منادي الحج[2]" وهو المكلف من قبل حاكم مدينة الجزائر، بالطوائف في أرجاء المدينة معلنًا للراغبين في الحج عن موعد إقلاع السفينة المتوجهة إلي الإسكندرية.. وهو ما يضاهي ما يعرف بـ" دوران المحمل " في القاهرة لإعلان كل من يرغب في الحج بالاستعداد للانضمام إلي قافلة الحج المصري..

فيقول بيتس:" تكون إحدى السفن جاهزة للإبحار إلي الإسكندرية، ينادي المنادي في مدينة

(١) Burton , R.: OP. cit, P. 362 .

(٢) رحلة جوزيف بتس إلي مصر ومكة المكرمة والمدينة المنورة، ترجمة: د. عبد الرحمن عبد الله الشيخ، الهيئة المصرية العامة للكتاب، الألف كتاب الثاني ١٨٩، القاهرة ١٩٩٥، ص ٢٣ - ٢٤.

الجزائر التي أعيش فيها معلنًا ميعاد إقلاعها، وعندئذ ينتهز كل من نوى الحج في ذلك العام الفرصة - بسعادة - للسفر بحرًا لأنه أقل إرهاقًا وتكلفة من السفر برًا.

ويجب أن تلاحظ أن الأتراك المنخرطين في الوظائف لا يجرءون على السفر للحج دون إذن " الداي "..

وفي تلك السنة خرجت من الجزائر قاصدًا مكة فوصلنا للإسكندرية في غضون ثلاثين أو أربعين يومًا.. "

وقد مكث بيتس نحو عشرين يومًا بالإسكندرية[1] وقال عنها ".. كانت مدينة شهيرة جدًا في أزمنة غابرة لعظمتها وروعتها، وآثارها القديمة تجعل عقل الإنسان يتخيل مدى ما كانت عليه من عظمة ".. ووصف بيتس بإيجاز آبارها المشيدة من الرخام والتي تمد المدينة بالماء العذب، كما وصف أسوارها وأبوابها وبعض مساجدها وأعمدتها الضخة وأبدى تعجبه من عظمة آثارها الرومانية! الوصول إلي " رابغ "[2] .. وقد أبرز بيتس قيمة الإحرام في مناسك الحج قائلًا:-

: وبعد ذلك ببضعة أيام وصلنا إلي " رابغ " ولبس كل الحجاج - فيما عدا النساء - ملابس الإحرام. لقد خلعوا ملابسهم المعتادة ولبس كل واحد منهم قطعتين من القماش القطني الأبيض، إحدى القطعتين تلف حول الوسط وتغطي الجزء السفلي حتى الأعقاب، والقطعة الثانية تغطي الجزء العلوي من الجسم عدا الرأس، ويلبس الحاج في قدمه خفًا غير مخيط " **Jamjamiya** " ولا يغطى الجزء العلوي من القدم عدا الأصابع، وعلى هذا النحو يظلون حتى يصلوا إلي مكة وتؤثر الحرارة تأثيرًا شديدًا في ظهورهم وأذرعهم ورؤوسهم. وحتى لو تعرض أحدهم للتلف فأن الشريعة لا تسمح له بأن يضع فوق رأسه غطاء[3] أو فوق بدنه لباسًا آخر غير ملابس الإحرام حتى يتحلل من إحرامه بعد ذبح أضحيته وتقديمها للفقراء. وطوال فترة لبس الإحرام التي تستغرق سبعة أيام يحرم عليهم قص أظافرهم أو قتل قملة أو برغوث، وأثناء لبس ملابس الإحرام لا يفسقون ولا يفجرون، ويضبطون ألسنتهم ولا يستخدمون إلا التعبيرات المهذبة وهم لا يحلقون شعورهم في هذه الفترة أيضًا.

ثم وصلنا إلي جدة وهي أقرب الموانئ إلي مكة (المكرمة) التي لا تبعد عنها أكثر من يوم. وفي جده تفرغ السفن حمولاتها، وقد قابلنا الإدلاء **Dilleels** القادمين من مكة (المكرمة) ليدلونا

---

(١) **Bidwell, R.: Travellers in Arabia , P. 24** .

(٢) رحلة جوزيف بتس.. مصدر سابق، ص ٤٤.

(٣) من الواضح جهل - بيتس - كغيره من الرحالة الأوروبيون بالشريعة الاسلامية: فالمحرم إذا كان به اذي من رأسه فلا بأس ان يغطيه وعليه فدية من صيام أو صدقة أو نسك، وهذا تيسير من الله تبارك وتعالي علي عباده المؤمنين.

على كيفية أداء مناسك الحج، وكان معظم الحجاج جاهلين بها، وليصحبونا عند بيت الله (الكعبة المشرفة) التي يقال أن إبراهيم الخليل قد بناها.

قوافل الحج:-

كان جوزيف بيتس أول أوروبي يتحدث عن قوافل الحج[1] - الأربعة - ومكانة أمير الحج والظواهر التي تميز كل قافلة والطرق التي تسلكها، فيقول:

".. وهناك أربع قوافل حج تصل لمكة قادمة من غرب العالم الإسلامي، من فاس ومراكش، حيث يتجمع الحجاج في هذه القافلة ويلتحقون بها من سائر بلاد المغرب، وهي قافلة برية في الأساس، وعندما يصل الحجاج لمصر يدبرون أمر وصولهم فمكة المكرمة والعودة لمصر مرة أخرى. ويصدر أمير الحج أمرًا للقافلة بالتوقف في كل مدينة يمر بها ليتيح الفرصة لمن يرغب للالتحاق بالقافلة، ويستقبل أهل المدن التي تتوقف عندها القافلة أمير الحج ببهجة بالغة لمكانته الدينية، فسعيد هو من يستطيع تقبيل يده، فأن لم يستطع فعباءته، ويمضي أمير الحج في موكب فاخر تصحبه الأعلام والطبول، ليس هذا فحسب بل أن النسوة يتزاحمن فوق أسطح المنازل التي يمر أمامها موكب أمير الحج لرؤية المشهد البهيج، وتضع الواحدة منهن أربعة من أصابعها على شفتيها برقة ثم تزغرد في مرح وبهجة.

أما قافلة الحج الثانية فتنطلق من " ميسير - Misseer " ومن الواضح أنه يقصد " مصر " وقد كتبها وفقًا لنطق الحجاج المغاربة الذين صحبهم، ويلتحق بهذه القافلة جمع كبير جدًا من الحجاج، لأنها أفضل تسليحًا وبالتالي فإن الحجاج الملتحقين بها يكونون في وضع أكثر أمنًا. بالإضافة إلي أن هذه القافلة أكثر مدعاة للسرور لأنها منظمة ويعرف كل فرد فيها مكانه، فليس ثمة عراك أو مشاكل البتة أثناء الطريق لمحاولة فرد أو جماعة إحراز السبق أو التقدم. وتحمل هذه القافلة معها كسوة الكعبة..

والقافلة الثالثة تسمى قافلة الشام وتضم الحجاج القادمين من تتاريا وما حولها وتركيا والأناضول وأرض كنعان، وتصل هذه القافلة للديار المقدسة دون المرور في مصر.

والقافلة الرابعة هي قافلة الهند وتنطلق من جزر الهند الشرقية East indies وتحمل معها بضائع قيمة ومختارة يشتري منها الحجاج من مختلف الأجناس في مكة.

وتصل هذه القوافل الأربع لمكة في وقت واحد تقريبًا، فلا يفصل بين وصولها إلا ثلاثة أيام أو أربعة فلابد أن تصل هذه القوافل جميعًا قبل عيد القربان أو كما يقول الترك عيد البيرام (Arabic Quarban and Turkish bairam) وهو عيد الأضحى - بستة أيام أو سبعة.

---

(١) المصدر السابق: ص ٢١ - ٢٢.

وقـد يتساءل بعض من عرفوا مكة أو على الأقل سمعوا بها أو قرءوا عنها - كيف يمكن لبلدة صغيرة فقيرة أن تستقبل هذه الأعداد الهائلة من الحجاج وتقدم لهم ولدوابهم المأوى والإعاشة ؟ وأني اجيبك أن أهل مكة يخلون مساكنهم للحجاج، فهذا الموسم بمثابة سوق لهم، فالمكي يؤجر الغرفة في هذا الموسم لفترة لا تزيد عن ستة عشر أو سبعة عشر يومًا، بمبلغ يزيد ثلاث مرات عن إيجارها طوال العام. وإذا غصت مكة بحجاجها وأهلها، نصب الحجاج خيامهم حولها حيث يقيمون إلي أن يرحلوا لديارهم. أمـا بالنسبة للمؤن فالحجاج يجلبون معهم ما يكفي إلا اللحوم التي يتحتم عليهم الحصول عليها من مكة أما الزبد والزيت والزيتون والأرز والبقسماط.. فالحجاج يحضرون معهم ما يكفيهم لرحلة قومهم ورحلة عودتهم وفترة إقامتهم بمكة بل أنهم يحضرون معهم أعلافًا لجمالهم فهم قد لا يجدون إلا قليلًا جدًا من المراعي أثناء الطريق.

في مكة المكرمة :-

وبمجـرد وصولنا إلي مكة سار بنا الدليل في شارع واسع يتوسط البلدة ويؤدي إلي الحرم، وبعد أن أنخنا الجمال، وجهنا الدليل إلي حوض الماء للوضـوء، ومـن ثـم ذهـب بنا للحـرم فدخلناه من باب السلام (وقد تركنا أحذيتنا عند شخص موكـل بها قبـل الدخـول)، وبعـد اجتيازنا مدخلًا استغرق اجتيازه خطوات قليلة وقف الدليل (المطوف) ورفـع يديـه صـوب بيـت الله الواقع وسط المسجد الحرام وحذا الحجاج حذوه ورددوا وراءه الكلمات التي يقولها. وعندما وقع نظر الحجاج للمـرة الأولـى عـلى الكعـبة فاضـت عيونهـم بالدمـوع ثم طفـنا بالكعـبة سبعـة أشواط، ثم صلينا ركعتين ثم قادنا الدليل للطريق مرة أخـرى ورحـنا نهـرول وراءه تارة ونمشي تارة أخرى من أحد طرفي الطريق إلي طرفه الآخر (يقصد السعي بين الصفا والمروة). ولا أملك إلا أن أعجب من الكائنات البائسة (يقصد الحجاج). ولا أملك ألا أن أعجب من الكائنات البائسة (يقصد الحجاج) الذين يبدو عليهم التأثر الشديـد والعاطـفة الجياشـة وهم يؤدون هذه المناسك.. (وصف بيتس هذه المناسك بالخرافات) ولم أستطع إلا بالكاد أن أكبح دموعي من الإنهار عند رؤية حماسهم.. (وصف بيتس حماسهم بأنه حماس أعمى ووثني [blind and idolatrous] وبعد أن أتممنا السعي عدنا لمكان إناخة دوابنا ومعها المؤن والضروريات، وبحثنا عن سكن ولما تيسر لنا خلعنا ملابس الإحرام ولبسنا الملابس المعتادة مرة أخرى.

وقـد عمل كل الحجاج على استغلال كل وقتهم في مكة المكرمة في العبادة، فلم يكتفوا بالواجبات المفروضة، وإنما راحوا يقضون كل وقت فراغهم في الحرم يطوفون حول الكعبة التي

تبلغ حوالي أربع وعشرين خطوة مربعة وقد تم تثبيت حجر أسود في أحد أركان بيت الله وهو مطوق بسياج فضي، وفي كل وقت يتقدم الحجاج نحو هذا الحجر ويقبلونه ثم يطوفون سبعة أشواط، ويصلون ركعتين، ويقولون أن هذا الحجر كان يسمى الحجر الأسعد ويعني الحجر الأبيض ولكنه أسود من خطايا البشر الذي يقبلونه فسمي بالحجر الأسود. ولا يخلو المطاف من الطائفين حول الكعبة ليلًا أو نهارًا.

وهنـاك من ينتظر عدة أسابيع، بل عدة شهور، لتتاح له فرصة الطواف، لأنهم يقولون أن أي شخص يحظى بفرصة الطواف ودعا الله فإن دعوته تستجاب، وكثيرون هم الذين يظلون يطوفون حتى يعتريهم التعب مع ملاحظة أنهم يصلون ركعتين عقب كل سبعة أشواط. والكعبة هي مقصد عبادة المسلمين ووثنهم **Idol** الذي يعبدونه (المسلمون كما يعلم الجميع حتى من غير المسلمين لا يعبدون الكعبة، وإنما يعبدون الله الواحد القهار الذي لا تأخذه سنة ولا نوم.. وكان بيرتون أكثر نضوجًا وفهمًا فذكر أن أبسط بدوي يعلم تمامًا أنه يطوف حـول الكعـبة تأسيًا بإبراهيم الخليل وأنه لا يعبد الكعبة، وذكـر بيرتـون أن العقائـد الإسلامـية المرتبطـة بالكعـبة أبعـد ما تكون عن الوثنية، أما الرحالة بوركهارت الـذي زار مكـة المكرمـة في مطلـع القـرن التاسـع عشر فكرر في صفحات رحلته أن المسلمين يعبدون الله سبحانه وتعالى وأنهم موحدون من الطراز الأول، بل أن الرحالة المتعصب فارتيما الذي زار مكة المكرمة في مطلع القرن السادس عشر لم يشر من قريب أو بعيد أن المسلمين يعبدون الكعبة، وهكذا يتضح أن جوزيف بتس الشاب الذي لا يتجاوز السادسة عشرة من عمره قد أسـاء الفهـم) فالمسلمـون مهما بعـد بهـم المكان عن مكة شمالًا أو جنوبًا أو شرقًا أو غربًا لابد أن يوجهوا وجوههم شطر الكعبة، أما عندما يكونون عندها فيمكنهم التوجه نحو أية جهة من الجهات الأصلية أو غير الأصلية طالما أن الكعبة أمامهم. وفي بعض الأحيان يكون الطائفون حول الكعبة عدة مئات في وقت واحد، خاصة بعد صلاة العشاء **Acsham Namas** أي بعد ايقاد الشموع، ويكون الطائفون من الرجال والنساء

إلا أن النساء يطفن في الدائرة الأوسع بمعنى أن الرجال هم الأقرب لبيت الله، أما النساء فيشكلن دائرة بعد دائرة الرجال، أي الدائرة الأبعد من الكعبة، لذا فمن الصعب أن يتمكن كل الطائفين من تقبيل الحجر الأسود، لذا فبعضهم يرفعون أيديهم تجاهه ثم يمسحون وجوههم بأيديهم قائلين: " الله أكبر أو تبارك الله ". وإذا كان الطائفون قليلين انتهزت النسوة الفرصة فقبلن هذا الحجر وأسرعن في الطواف لتقبيله مرة أخرى وللمكون أمامه فتـرة طويلة، ويعطي الرجال للنساء هذه الفرصة ولا يزاحمونهن احترامًا لقدسية المكان.

وصف مكة:-

وشـرع بيتس في تقديم المزيد من التفاصيل عن مكة المكرمة[1]، موقعها وسمات أهلها، والأساطير التي تروج عن جبالها، وفاكهتها ومناخها، فقال:

" أما بالنسبة لمكة فتقع في واد غير ذي زرع (وتبعد عن ساحل البحر الأحمر بحوالي يوم) والأقرب للدقة أنها تقع وسط تلال صغيرة كثيرة. لذا، فهي لا تحتاج لبوابات أو أسوار، ومبانيها كما سبق أن ذكرت عادية جدًا فهي غير مهيأة لاستقبال الوافدين، فما البال بالآلاف المؤلفة من الحجاج الذين يصلون إليها كل عام!.

والنـاس هنا - كما لاحظت - بائسون، ونحيلون جدًا ويعتريهم الهزال وهم داكنو البشرة، ويحيط بمكة - ولعدة أميال - تلال صغيرة متقاربة، وقد ارتقيت بعض هذه التلال بالقرب من مكة بحيث كان في إمكاني رؤية مداها عدة أميال. وهذه التلال جميعًا من صخور حجرية **Stony rocks** تميل للسواد وجميعها تتجه نحو مكة، وبعض هذه التلال يبلغ محيط الواحد منها نصف ميل، ولدى أهل مكة بعض الخرافات الغبية فيمـا يتعلق بهذه التلال ومن ذلك قولهم أن إبراهيم عندما شرع في بناء الكعبة أمر الله كل جبل في العالم أن يقدم من نفسه بعض الأحجار لبناء الكعبة فأطاعت الجبال جميعًا فأرسل كل جبل جانبًا منه ما عدا جبل كرادوج **Corra Dog** وتعني الجبل الأسود بالقرب من مدينة الجزائر، ويرجع سبب سواده - كما يقولون - أنه لم يرسل أي أحجار من لدنه مشاركة منه في بناء الكعبة!.. (بالطبع لم ترد مثل هذه الأفكار في كتب الصحاح، ولكنها تدخل في إطار المثيولوجيا العربية).

ويـوجـد فوق قمة أحد هذه التلال كهف يسمونه حراء **Hira** ومعناها المبارك يقولون أن محمدًا (صلى الله عليه وسلم) كان معتادًا أن يلجأ إليه للتعبد والتأمل والصوم، وهم يعتقدون أنه في هذا الكهف تلقى جانبًا كبيرًا من القرآن (الكريم) من جبريل (عليه السلام) وقد دخلت هذا الكهف ووجدته كهفًا عاديًا لا يزدان بأية زخارف!

وخـارج مكة (المكرمة) بحوالي نصف ميل يوجد تل (جبل) شديد التحدر، وقد صنعوا درجات (سلمًا منحوتًا) للوصول لقمته التي يوجد عليها قبة **Cupda** تحت صخرة مشقوقة يقولون أن محمدًا (صلى الله عليه وسلم) عندما كان في الرابعة من عمره حمله الملك جبريل (عليه السلام) ففتح صدره (قلبه) وأخرج منه مضغة سوداء تمثل (خطايا البشر) ثم أغلق صدر فعاد كما كان ولم يشعر محمد (صلى الله عليه وسلم) أثناء هذه العملية بأي ألم، وقد تم هذا في موضع

---

(١) المصدر السابق: ص ٤٥ - ٤٧.

هذه الصخرة التي أقاموا عليها قبة. وقد ذهبت بنفسي إلي هذا المكان وصحبني كل رفاقي، وقد صليت بضع ركعات كما صلوا.

وفي مكة ماء وافر، إلا أن العشب فيها نادر إلا في مواضع قليلة، وثمة أنواع مختلفة من الفاكهة الطيبة كالأعناب والشمام والبطيخ والخيار، والقرع وغيرها، لكن هذه الفاكهة تجلب من موضع على بعد يومين أو ثلاثة يسمى - إذا لم تخني الذاكرة - حبش **Habbash**. (علق بيرتون على ذلك قائلًا أنها تأتي من الطائف وهي المدينة المشهورة، ويقول الناس أنها تأتي من الحجاز ويقصدون الطائف) والضأن يجلب إلي هنا أيضًا حيث يتم بيعه. والحرارة في مكة شديدة والناس ينتقلون في الشوارع من جانب إلي جانب بحثًا عن الظل. والسكان - خاصة الرجال - ينامون عادة على أسطح المنازل تلمسًا لنسمات الهواء، أو في الشوارع أمام دورهم. وبعضهم يضعون فراشهم فوق حصر رقيقة أمام منازلهم، وبعضهم يضعون دككًا كتلك التي نضع فوقها البراميل في إنجلترا، وتتماسك أجزاء هذه الدكة بحبال مشدودة شداً سديدًا ويضعون فرشهم فوق هذه الدكك. وهم يرشون أرض الشارع بالماء قبل وضع فراشهم للنوم، أما بالنسبة لي فقد كنت أنام - عادة - في الهواء الطلق دون أي غطاء - فوق سطح المنزل. فقد كنت آخذ - فقط - قطعة قماش كتاني وأغمسها في الماء وأضعها فوقي في الليل، وأجدها جافة عندما أستيقظ فأبللها بالماء مرة أخرى.

وصف المسجد الحرام:-

ويقدم بيتس بعض المعلومات عن الكعبة والمسجد الحرام[1]، ويشير إلي أن عدد أبوابه نحو ٤٢ بابًا، يغلق بعضها أحيانًا.. ويضيف بيتس:

" وهو قريب الشبه من دار المقاصة **Royal Exchange** في لندن. لكنه (أي المسجد الحرام) أوسع منه بعشر مرات. وكل أبوابه تفضي لممرات مغطاة بالحصى ما عدا بعض الممرات التي رصفت بأحجار عريضة وهي الممرات المؤدية للكعبة المشرفة والأروقة المحيطة بالصحن - حيث الكعبة المشرفة - مرصوفة بأحجار عريضة جميلة، ولها عقود (مقنطرة)، وعلى الجدران الداخلية للأروقة توجد غرف صغيرة تدور مدار كل الأروقة، وقد أعدت هذه الغرف الصغيرة (الخلوات) للذين وهبوا حياتهم للقراءة والدراسة والتعبد، وهذه الطائفة تشبه إلي حد كبير طائفة الدراويش.

والكعبة القائمة وسط المسجد الحرام مبنى مكعب يبلغ ارتفاعه حوالي أربعة وعشرين قدمًا،

---

(١) المصدر السابق: ص ٥٠ - ٥١.

ويبلغ طول كل ضلع من أضلاعها حوالي أربع وعشرين خطوة. والكعبة مشيـدة من أحجار ضخام مصقولة، وليس بها أية عقود وهي مغطاة بكسوة من حرير سميك، وهي مزخرفة من فوق وسطها بشريط من حروف من ذهب ولا أذكر مضمون الكلمات المكتوبة بهذه الحروف، وإن كنت أظن أنها تشير لعبارات دينية ويبلغ طول الحرف قدمين أما عرضه فيبلغ بوصتين، وبالقرب من الطرف السفلي للكعبة توجد حلقات نحاسية مثبتة به تمر منها حبال قطيفة تربط بها الأطراف السفلية للكسوة، وعتبة باب الكعبة مرتفعة بحيث لا يصل إليه من يريد الدخول، ومن هنا فثمة سلم متحرك يتم إحضاره لهذا الغرض (أي عند الرغبة في تمكين أحد من الدخول) وباب الكعبة مغطى كله بالفضة وثمة ستارة معلقة عليه تصل للأرض، وتظل هذه الستارة مرفوعة طوال أيام الأسبوع فيما عدا ليلة الثلاثاء، ويوم الجمعة وهو يوم تعبدهم وقد زينت ستارة الباب بزينات ذهبية ثقيلة، تزن حوالي عشرين رطلًا، وسطح الكعبة مسطح من جير ورمل، وثمة ميزاب لتفريغ الماء من فوقه عند هطول المطر، وفي هذه الأثناء يجري الناس نحو الميزاب لينزل ماء الميزاب عليهم معتقدين أنه نفحة من السماء، ويسعدون سعادة فائقة إذا نزل ماء الميزاب عليهم، بل ويحاولون الشرب منه وإن حدث ذلك غمرتهم السعادة، ويلجأ بعض الفقراء لجمعه وتقديم جزء منه للحجاج. لقاء منحة مالية.

حمـام الحمـا :-

وفـي مكة آلاف من الحمام الأزرق لا يجرؤ أحد على صيده أو إيذائه، وبعضه أليف لدرجة أنه يتناول قطعة لحم من يدك. وقد قمت بنفسي كثيرًا بأطعام كثير منه في المنزل الذي أقيم به، وهذه الحمائم تأتي في أسراب كبيرة إلي الحرم حيث يقدم لها الحجـاج - عادة - الطعام، فثمة أناس فقراء من أهل مكة يأتون للحجاج حاملين معهم نوعًا من الأواني مليئة بالحبوب، ويتوسلون للحجاج طالبين منهم شراء بعض الحبوب لإطعام "حمامات النبي " وقد سمعت أن هذه الحمامات لا تطير أبدًا فوق الكعبة كما لو كانت تعلم أنها بيت الله الحرام، لكنني أعتقد أن ذلك خطأ كبير، فقد رأيت هذه الحمائم تطير في غالب الأحيان فوق الكعبة!

داخل الكعبـة :-

وخـلال فترة مكوثه بمدينة مكة - نحو أربعة شهور - أتيح له أن يلج داخل الكعبة مرتين " وهو حظ سعيد لم يتح لآلاف الحجاج ".. ويخصص يومان في الأسبوع لدخول الكعبة، يوم للرجال ويوم للنساء، وعن وصف داخل الكعبة وكيفية الصلاة فيها وعملية غسلها يقول بيتس:

" عندما يدخل أي مسلم للكعبة، فإن عليه أن يصلي ركعتين في كل ركن من أركانها، وأن يرفع يديه بالدعاء عقب انتهائه من كل ركعتين. وهم يؤدون صلواتهم في جوف الكعبة بخضوع

كامل واستغراق شديد، فهم لا ينشغلون بالتطلع والحملقة حولهم، لأنهم يعتبرون ذلك أثمًا، بل أنهم يقولون أن من يتطلع حوله في جوف الكعبة يصاب بالعمى لتطفله وحبه للاستطلاع، ولم أضع هذه الأقاويل في اعتباري فرحت أنظر حولي غير واضع في اعتباري هذه المحاذير الأسطورية، وأعتقد أنني لم أجد فيها رأيته شيئًا ذا بال، فلم أرى سوى عمودين خشبيين في الوسط لمساندة السقف وقضيبًا حديديًا مثبتًا فيهما، علقت عليه ثلاثة مصابيح فضية أو أربعة، أعتقد أنه من النادر اضاءتها، وأرضية الكعبة (المشرفة) من رخام وكذلك الجدران الداخلية، وثمة كتابات على هذه الجدران الداخلية لم يكن لدي الوقت الكافي لقراءتها، ومع أن الجدران الداخلية مغطاة بالرخام إلا أنها مغطاة بالحرير على ارتفاع قامات الحجاج. ولا يمكث الحجاج في داخل الكعبة إلا لحظات قليلة، فنادرًا ما يمكث أحد أكثر من ثمن ساعة (**half a quarter**)، لأن هناك آخرين ينتظرون دورهم للدخول، وبينما يخرج بعض الحجاج يدخل آخرون ليحلوا محلهم وبعد أن ينتهي الجميع فأن سلطان مكة (الشريف) لا يعتبر نفسه أهلًا لتنظيف البيت، فيقوم بعض أتباعه بغسل الكعبة وتنظيفها، فيبدءون بغسلها بماء زمزم، ثم بماء عذب ويتم ابعاد السلم المتحرك الذي يوضع للصعود إلي باب الكعبة فيتزاحم الناس أسفل الباب ليتلقوا ماء غسيل الكعبة، أما المكانس التي ينظف بها بيت الله الحرام فيتم تكسيرها إلي قطع صغيرة وتنثر فوق الحجاج المتجمعين، ويحتفظ من يحصل على عصا صغيرة من هذه المقشات بها كذكرى مقدسة!

الكسوة الشريفة :-

ويشير بيتس إلي الكسوة[1] الجديدة للكعبة التي تعد كل عام بالقاهرة، بأمر من السلطان العثماني،

---

(١) الكسوة الشريفة من أهم مظاهر التبجيل لبيت الله الحرام، وتذهب بعض المصادر إلي أن " إسماعيل " قد كسا الكعبة، ومن الثابت تاريخيًا أن أول من كساها هو " تبع أبي كرب " ملك حمير سنة ٢٢٠ قبل الهجرة، وقد لعبت كسوة الكعبة - دورا سياسيًا - على مدار تاريخ الإسلام، فكانت تحمل من عاصمة الخلافة "بغداد" في عصر العباسيين ثم " القاهرة " في عصور الفاطميين وسلاطين المماليك وعصر الدولة العثمانية، فكانت موضع اهتمام الخلفاء والسلاطين والملوك، وأشار العلامة " المقريزي " إلي قرية " تنيس " كانت تصنع بها كسوة الكعبة، وعندما تولي محمد علي باشا عرش مصر، أصبحت الكسوة الخارجية تصنع على نفقة الحكومة المصرية، واختص سلاطين آل عثمان بكسوة الكعبة الداخلية وكسوة الحجرة النبوية بالمدينة و خصص محمد علي دارًا بحي الخرنفش بالقاهرة لصناعة الكسوة أطلق عليها " مصلحة الكسوة الشريفة " وعند إتمام عمل الكسوة كان يقام لها احتفال مشهود، فيشقون بها في موكب عظيم من القلعة حتى المشهد الحسيني، وفي منتصف شهر رجب كان " دوران المحمل " في احتفالية يحضرها الجناب الخديوي وكبار رجال الدولة ثم يوم " طلعة المحمل " وخروجه مع قافلة الحج المصري في موكب يتقدمه المحتسب وقاضي القضاه والأمراء وناظر الكسوة والعلماء، وعند وصوله إلي مكة المكرمة يستقبله شريف مكة والقاضي والحامية العثمانية "

حيث ترسل محملة على جملين مع قافلة الحج المصري، ولا يكلف هذين الجملين بأي عمل آخر طوال العام، ويصف مظاهر وداع واستقبال الكسوة وحرص الحجيج للحصول على قطع من الكسوة القديمة للتبرك بها، مهما غلا ثمنها!.. فيقـول بيتـس:

".. ويتم إرسال الكسوة من مصر بفرح غامر ويتم استقبالها في مكة بفرح غامر أيضًا لدرجة أن كثيرين يبكون من الفرح، ويقوم بعض الناس بتقبيل كل جزء من الجملين حاملي الكسوة، وآخرون يرددون عبارات الترحيب ويلمسون الكسوة بأيديهم ثم يمسحون وجوههم، أنهم يفعلون ذلك وأكثر منه لإظهار مدى توقيرهم للكسوة رغم أنها لم توضع على الكعبة بعد، وهذا يبين لك مدى توقيرهم لبيت الله الحرام.

وعند نزع الكسوة القديمة يضع شريف مكة - بمساعدة آخرين - الكسوة الجديدة، ويأخذ الشريف الكسوة القديمة لتكون تحت تصرفه، فقد يخص بها نفسه فيقطعها قطعًا يبيعها للحجاج الذين لا يبالون بما يدفعون لقاء الحصول على قطعة منها. أنهم شغوفون جدًا بهذه الكسوة القديمة فقطعة منها قد تساوي سلطاني Sultane وهو يوازي تسعة شلنات أو عشرة، ليس هذا فحسب بل أن الحبل القطني الذي يربط به الجزء الأسفل من الكسوة، يقطع أيضًا إلي قطع صغيرة ويتم بيعه. ويشترى كثيرون قطعًا من الكسوة القديمة لوضعها فوق صدورهم عندما يوافيهم أجلهم، وهناك من يحملها معه دائمًا كتعويذة ضد الخطر وأعتقد أن السلطان الشريف (يقصد شريف مكة) يجمع أموالًا كثيرة من هذه الكسوة القديمة تساوي ما تكلفه الكسوة الجديدة، رغم أنهم يقولون أن العمل في الكسوة يستغرق عامًا كاملًا.. "!

عود إلي الكعبة المشرفة وما حولها:-

يعـود بنا بيتس إلي ذكر مزيد من التفاصيل في وصف المسجد الحرام والطواف بالكعبة، وعن مقام إبراهيم وبئر زمزم يقول بيتس[1]:

".. وعلى بعد حوالي أثنتي عشر خطوة من الكعبة يوجد مقام إبراهيم Sepulchre of Abraham الذي بنى الكعبة - كما يقولون - بأمر من الله ويحيط بهذا المقام شبكة حديدية وهو مغطى بكسوة مزركشة جميلة، الناس في هذا المقام بحب. وعلى مسافة قصيرة منه تجاه اليد اليسرى توجد بئر زمزم ويعتبرون ماءها مقدسًا، ويقدرونه تقديرًا فائقًا. كما يقدس الكاثوليك ماءهم As papists do theirs وفي شهر رمضان يفطرون به ويقولون أنه حلو كالحليب، أما بالنسبة لي فلم

استقبال أميري حافل حتى ينقل إلي الحرم المكي". وقد حرص كثير من المؤرخين والرحالة المسلمين والأوروبيين على تسجيل انطباعاتهم عن الكسوة الشريفة والمحمل، راجع: الأزرقي، البلاذري، العمري، القلقشندي، السيوطي، الجبرتي، البتنوني، إبراهيم رفعت باشا.. إدوارد لين، جيرار دي نيرفال، البرت فارمان.

(١) رحلة جوزيف بتس: ص ٥٤ - ٥٦.

أر أنه يختلف عن أي ماء آخر إلا أنه يميل إلي الملوحة شيئًا ما. ويشرب منه الحجاج بكميات هائلة عند وصولهم لمكة أول مرة ليس فقط ليطهروا أنفسهم، وإنما لتنفض أجسامهم كل الخطايا وليخلصوا أرواحهم من كل الآثام. وفي شهر رمضان يتم ملء مئات من أباريق المسجد الحرام بماء زمزم وتوضع أمام الناس - ومعها أكواب - قبيل أذان المغرب وبمجرد أن يؤذن المؤذن من فوق المئذنة - يشربون من هذا الماء بنهم قبل أداء الصلاة. وتوجد بئر زمزم وسط غرفة من الغرف الصغيرة القائمة ازاء كل جانب من جوانب الكعبة وتبعد عنها حوالي اثنتي عشرة خطوة أو أربع عشرة خطوة، ويقف عند البئر أربعة رجال لسحب الماء منها دون مقابل، ويستخدم كل رجل من هؤلاء قربتين من جلد مربوطتين بحبل إلي عجلة صغيرة، وبينما تدور العجلة ترتفع قربة مملوءة وتهبط قربة فارغة لتملأ من جديد، والمسلمون لا يشربون من هذا الماء فقط بل أنهم - أحيانًا - يستحمون به بعد أن يخلع الواحد منهم ملابسه ما عدا قطعة قماش رقيقة يغطي بها نصفه الأسفل، ويقوم ساحبوا الماء بإفراغ خمسة أوان (جرادل) أو ستة فوق رأسه، ويجوز من الناحية الشرعية أن يغسل المرء نصفه العلوي بماء زمزم، ولا يجوز غسل نصفه السفلي به، فهذا لا يليق، فبعد غسل النصف العلوي يترك الماء ليتخذ سبيله إلي الأرض لا إلي موضع العورة (لم يرد في السنة ما يمنع استخدام ماء زمزم في أي غرض، وهذا لا ينفي قداسته أو مكانته الخاصة لدى المسلمين، فماء زمزم "لما شرب له" كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم)

حجاجًا كثيرين يحملون بعضًا منه إلي بلادهم في قوارير من صفيح أو نحاس أصفر، ويهدونه لأصدقائهم بواقع ملء نصف ملعقة لكل منهم، فيتلقاه الأصدقاء بامتنان كبير وفرح غامر فيرتشفون منه قليلًا ويمسحون ببقيته وجوههم ورؤوسهم، ويرفعون أيديهم طالبين من الله عز وجل أن يتيح لهم أيضًا فرصة الحج إلي بيته العتيق، وسبب توقيرهم الشديد لماء زمزم - كما يقولون - أن موضع البئر هو الموضع الذي طرحت فيه هاجر ابنها إسماعيل، وقد سمعتهم يروون القصة تمامًا كما وردت في الفصل الواحد والعشرين من سفر التكوين **Genesis** ويقولون أن بئر زمزم نبعت في موضع ركلة الطفل إسماعيل (عليه السلام).

فوق جبل عرفات:-

ويشير بيتس إلي أهمية - الميقات والمكان - اللذين يصبح فيهما المسلم " حاجًا حقيقيًا ".. حيث يتوجه المسلمون بملابس الإحرام في اليوم الثامن من شهر ذي الحجة[1] إلي جبل عرفات،

(١) في اليوم الثامن من ذي الحجة يتوجه الحجيج الي "مني" وليس الي عرفات ويسمي هذا اليوم بيوم "التروية" لانه اليوم الذي رأي فيه نبي الله وخليله إبراهيم عليه السلام وعلي نبينا أفضل الصلاة وأتم السلام - في المنام أنه يذبح ابنه اسماعيل عليه السلام مصدقًا لقوله (فلما بلغ معي السعي قال يابني لإني أري في المنام أني أذبحك

وقد سمي بهذا الأسم لأن آدم قد تعرف فيه مرة أخرى على حواء.. ويزعمون أن حواء مدفونة في جدة!.. ويضيف بيتس:

".. ويصلي المسلمون الذين يصلون مكة عن طريق البحر الأحمر - ركعتين عند قبرها، ولم أملك إلا الابتسام عند سماعي حكاياتهم " السخيفة " فقد لاحظت أنهم وضعوا حجرًا عند رأسها وحجرًا آخر عند قدميها، وبين الحجرين مسافة طويلة تقرب من رمية سهم، وفي الوسط مصلى صغير حيث يصلي الحجاج.

وجبـل عرفات ليس ضخمًا ضخامة تجعله يستوعب الأعداد الهائلة من الحجاج الذين لا يقلون - كما يقال - عن سبعين ألفًا كل عام، وفي اليوم التاسع من شهر ذي الحجة يعوض الله هذا العدد بملائكة من عنده ينزلون على هيئة بشر - إن كان عدد الحجاج أقل من العدد آنف الذكر!.. لقد كان عدد الحجاج في عرفات كثيرًا جدًا، لكنني لا أظنه يصل إلي سبعين ألف حاج. وثمة أحجار دالة تحيط بالجبل لتحديد حدود ما يسمى عرفة أو عرفات، وتعتري الحماسة بعض الحجاج فيأتون إلي هنا قبل الميقات وينصبون خيامهم، منتظرين يوم عرفة أو يوم الوقفة. ولم أر فوق عرفات أية معالم يمكن وصفها، إلا قبة صغيرة فوق الجبل...

لقـد كان مشهدًا يخلب اللب حقًا أن ترى هذه الآلاف المؤلفة في لباس التواضع والتجرد من

فانظر ماذا تري قال يا أبت افعل ما تؤمر وستجدني إن شاء الله من الصابرين) الصافات:١٠٢،ولقد احتار نبي الله إبراهيم في شان هذه الرؤيا وأمضي زمنًا غير يسير في التفكير والتأمل والترقب، ذلك لأن رؤيا الأنبياء وحي، كما أخبر رسول الله صلي الله عليه وسلم فلما كان اليوم الثامن من ذي الحجة تأكد كون تلك الرؤيا وحيًا، ويجب عليه الامتثال به وتنفيذه، ومن ثم أخذ ابنه وهم بذبحه وتله للجبين ففداه الله بذبح عظيم من هذا اليوم المبارك يبدأ الحاج رحلة ملؤها الصفاء، وزادها الاستسلام والانقياد لخالق الكون، ورفدها التجرد والتفل والتفث وغايتها، نيل مرضاة الرب، والفوز بجنان الخلد في يوم لاينفع فيه مال ولا بنون ويمكننا أن نوجز أهم أعمال هذا اليوم التي يندب لكل حاج فعلها، سواء أكان مفردًا أم متمتعًا أم قارنًا، وذلك في النقاط التالية:

- مغادرة مكة المكرمة الي مني بعد طلوع الشمس في هذا اليوم
- أداء صلاتي الظهر والعصر في مني قصرًا، لا جمعًا
- أداء صلاة المعرب بركعاتها الثلاث في مني
- أداء صلاة العشاء في مني قصرًا
- المبيت بمني ليلة اليوم التاسع من ذي الحجة
- أداء صلاة الفجر اليوم التاسع في مني
- استحضار ذلك الموقف الإيماني الرائع الذي تغلب فيه نبي الله إبراهيم علي نزوات الشيطان ووساوسه فضرب بذلك أروع مثل من الصمود والاستسلام لله ولم يعرف التاريخ الإنساني له مثيلاً.

(مجلة الحج والعمرة: السنة السابعة والخمسون، العدد التاسع، ذو القعده ١٤٢٣ هـ)

ملذات الدنيا، برءوسهم العارية وقد بللت الدموع وجناتهم، وأن تسمع تضرعاتهم طالبين الغفران والصفح لبدء حياة جديدة "!

في منى:-

وفي منى ينصب الحجاج خيامهم فثمة سهل واسع، ويقضون يوم عيد الأضحى، وبعد ذلك يذهب كل حاج في اليوم الأول ليرمي سبع جمرات على العمود الأول ويقصدون بهذا رجم الشيطان وأفعاله، لأنهم يقولون أثناء الرجم: " أنني أرجم الشيطان وحزبه " وثمة عمودان آخران متقاربان يرجمون أحدهما في اليوم الثاني، والآخر في اليوم الثالث. وأثناء توجهي للرجم قابلني حاج وقال: " لابد أن ترجم بسعة من فضلك، لأنني قد فقأت عيني الشيطان لتوي "!

ويجب أن تلاحظ أن أهل البلاد يجلبون إلي هذا المكان قطعانًا كثيرة من الأغنام لبيعها، فيشتري كل حاج خروفًا ويضحي به، ويقدمون بعض أضحياتهم لأصدقائهم وبعضها للفقراء، ويأكلون ما تبقى، وبعد ذلك يحلقون رءوسهم ويخلعون لباس إحرامهم ويلبسون ملابس أخرى ويحيي بعضهم بعضًا قائلين: " عيدكم مبارك " ويتبادلون القبلات!

ويقضون هذه الأيام الثلاثة في فرح واحتفالات، ويصبح الليل نهارًا بسبب وفرة المصابيح المضاءة، ويطلقون البنادق، وتمتلئ السماء بالألعاب النارية، لأنهم يعتقدون أن كل ذنوبهم قد ذهبت أدراج الرياح وأنهم - إذا ماتوا - دخلوا الجنة مباشرة (بغير حساب) إذا لم يرتدوا عن دينهم، وخلال الأيام الثلاثة التي يقضونها في منى - يفكر الواحد منهم، إذا لم يكن واهنًا ضعيفًا، في زيارة الكعبة مرة واحدة على الأقل. انهم يشدون الرحال إلي هناك بحماس فائق لإلقاء نظرة جديدة على بيت الله الحرام، فإذا ما رأوه انفجرت عيونهم بدموع الفرح وبعد الطواف والصلاة يعودون ثانية إلي منى وبعد انتهاء أيام عيد الأضحى الثلاثة **Byram** يعودون جميعًا حاملين خيامهم إلي مكة مرة أخرى.

ويقال أنه بعد مغادرة الحجاج منى إلي مكة يرسل الله زخات من المطر لغسل القذر والروث المتبقي من ذبح الأضاحي، كما يرسل الله الملائكة لتحمل الحصى (الجمرات) الذي رمى به المسلمون رمز الشيطان، وتعيدها إلي أماكنها قبل موسم الحج التالي!!

وبعد العودة لمكة يمكثون هناك زهاء عشرة أيام أو اثنى عشر يومًا، حيث تعقد سوق كبيرة تباع فيها كل بضائع الهند، كما تباع فيها أحجار كريمة للخواتم والأساور.. الخ المجلوبة من اليمن، وكذلك بضائع الصين والمسك وغيرها من الأشياء الغريبة. أنه الوقت الذي ينشغل فيه الحجاج بالشراء لأنهم يعتقدون أنه من الأمور غير الشرعية أن ينشغلوا بالبيع والشراء قبل اتمام الفريضة. ويقوم كل حاج الآن بشراء " كفن ".. وهو عبارة عن قطعة كتان رقيقة ليكفن فيها،

وهم يغمسونها في ماء زمزم، وتلك ميزة قد لا تتاح لهم في الجزائر أو غيرها. ويحرصون على حمل هذا الكفن معهم أينما ذهبوا، بحرًا أو برًا فإذا ماتوا كفنوا به.

وفي المساء السابق لمغادرة مكة المكرمة لابد من طواف الوداع، فيدخل المرء من باب السلام فيطوف قدر ما يستطيع وبعض الناس يظلون يطوفون حتى يعتريهم التعب (طواف الوداع، كطواف القدوم، كطواف دخول المسجد: سبعة أشواط) وتفيض عيونهم بالدمع لأنهم يودعون بيت الله ويبدون حقيقة غير راغبين في مفارقته ويشربون من ماء زمزم حتى الامتلاء ويتراجعون إلي باب الوداع ووجوههم صوب بيت الله، وبيت الوداع هذا مواجه لباب السلام، وعند خروجهم من باب الوداع هذا مواجه لباب السلام، وعند خروجهم من باب الوداع يعقدون أيديهم تجاه بيت الله، فمن غير اللائق أن يولوا ظهورهم للبيت عند الوداع، ويظلون في حالة بكاء وهم يدعون ويتوسلون إلي الله حتى يصلوا بيوتهم[1].

مغادرة مكة وترتيب القافلة :-

ويحدثنا بيتس عن أنهم دفعوا أموالًا كثيرة لاستئجار جمال النقل لدى مغادرتهم مكة في طريقهم إلي المدينة المنورة، خمسة أو ستة جنيهات استرلينية للجمل الواحد " كما لو كنا نستأجره من مكة إلي مصر "!.. ويحضر " الجمالة " عددًا احتياطيًا من الجمال، حيث وعورة الطريق تؤدي إلي موت كثير منها.. فإذا سقط جمل أثناء الطريق، فأنه يفقد قدرته على مواصلة السير، فيرفعون عنه حمله ثم يذبحوه فيأكل لحمه الفقراء في القافلة ".. وقد أكلت أنا نفسي لحم الجمل فوجدته حسن المذاق ومفيدًا للصحة "!.. ثم حدثنا بيتس عن اليوم الأول لخروجهم من مكة، وقد سادت القافلة حالة من الهرج والمشاحنات وعدم النظام.. إلي أن انتظمت الأمور حتى وصولهم للقاهرة، وعن ترتيب القافلة يقول بيتس:

" وهم يجعلون أربعة جمال في المقدمة ويربطون بعضها ببعض لتكون قطارا **Kitar** ويسمون الحملة كلها قافلة، فالقافلة إذن مقسمة إلي قطارات، ولكل قطار أسمه، وهو يتكون من آلاف الجمال، ويسير كل قطار وراء قطار آخر، وكأنهم في حملة عسكرية، وعلى رأس كل قطار قائد مسئول يجلس في تختروان يحمله جملان أحدهما أمام الآخر والتختروان مغطى بقماش شمعي وفوقه قماش سميك، وإن كانت زوجة هذا القائد معه جعلوا لها هي الأخرى تختروان على شاكلة

---

(١)أشار " بيتس " إلي أنه بالرغم من قداسة مكة فهي كغيرها من المدن لا تخلو من بعض مظاهر الفساد، ولكنه لم يذكر شيئًا من مظاهر ذلك الفساد، وإنما أبان عن تعصبه، وقد سبقه " دي فارتيما " المتعصب ولكنه لم يشر لأي مظهر من مظاهر الفساد، وإن ألمح " بيرتون " إلي بيع الخمور سرًا، فأن المؤكد إن الإصلاحيين السلفيين قد بذلوا جهودًا جبارة للقضاء على البدع وكل مظاهر الخروج عن أصول الدين، وبعد أن حدثنا عن حج الأتراك (المسلمين) ومناسكهم قال أنه روى ما روى صادقًا أمينًا وأنه " يتحدى العالم أن يتهمه بالكذب "!!.. رحلة جوزيف بتس: ص ٦٦.

تخترقوان زوجها، وعلى رأس كل قطار جمل يحمل أموالها (كنوزها).. ويضعون لهذا الجمل جرسين: جرس على كل جانب من جانبيه، وهو - أي الجرس - في ضخامة جرس السوق عندنا بحيث أن صوته يسمع من مسافة بعيدة. وثمة جمال أخرى يضعون حول رقبتها أجراسًا، وبعضها حول أرجلها، كتلك الأجراس التي يضعها الحمالون عندنا حول رقاب خيول المقدمة، فتظل هذه الأجراس تدق طوال الليل بالإضافة للإجراس التي يحملها السائرون على الأقدام والجمالون ويكون لرنينها صوت محبب يجعل الرحلة تمضي بهيجة. وهم يقولون أن هذه الموسيقى تجعل الجمال نشطة، وبهذه الطريقة تسير الأمور منتظمة حتى يصلوا للقاهرة، وبدون هذا الانضباط يمكنك أن تتصور الفوضى التي يمكن أن تحدث لهذه الجموع الهائلة.

المشاعلية :-

ويشعلون بالليل شعلًا مرفوعة على قضبان لهداية القافلة إلي الطريق، ومما يذكر أن القافلة تقطع رحلتها ليلًا معظم الوقت تجنبًا لحرارة الشمس الشديدة نهارًا. وهذه المشاعل تشبه إلي حد ما المواقد الحديدية (الأواني الحديدية التي يتم اشعال النار داخلها) فهم يضعون في هذه الآنية الحديدية بعض الأخشاب الجافة التي خصصوا بعض الجمال لحملها (الأخشاب الجافة أو الحطب)، وقد أوكلوا بالمشاعل أشخاصًا (مشاعلية) يزودونها بهذه الأخشاب كلما أوشكت النيران على الانطفاء. ولكل قطار مشعل يخصه ويدل عليه، وبعض القطارات لها اثنا عشر مشعلًا أو أكثر من ذلك أو أقل ولهذه المشاعل أشكال مختلفة وأعداد مختلفة وذلك حتى يستدل كل شخص على قطاره من خلال هذه المشاعل، بمعنى أن لكل قطاع مشعلًا أو مشاعل مميزة. ويكون حامل المشاعل في مقدمة القطار، وترفع المشاعل وتثبت عند توقف القافلة، كل مشعل يبعد عن المشعل الآخر بمسافة. وتحمل هذه المشاعل في النهار أيضًا لكن بغير نار فيستدل الحجاج من أشكالها وأعدادها على قطاراتهم كما يستدل العساكر على كتائبهم بأعلامها.

إيرلندي[1] مسلم.. في جنة الله على الأرض!

ويشير بيتس إلي أنه بمجرد توقف القافلة عن السير في الصباح، كان يبادر بإشعال النار وإعداد القهوة، وعقب تناول وجبة خفيفة، يأخذ الجميع قسطًا من النوم حتى الساعة الثانية عشرة، وبعد تناول طعام الغداء، يخلدون إلي النوم مرة أخرى حتى حوالي الساعة الرابعة.. وعندما تدق الطبول كان ذلك إيذانًا بجمع الخيام وتحميل الجمال لمواصلة الرحلة.. وتتوقف القافلة في وقت صلاتي المغرب والعشاء أو حين الجمع بينهما.. وكان من بين قافلة الحجيج: إيرلندي اعتنق الإسلام (أعتبره بيتس مرتدًا..!) ظل متمسكًا بعقيدته الجديدة بالرغم مما لاقاه من متاعب وإغراءات!.. ويقول بيتس:

---

(١) المصدر السابق: ص ٧٠.

".. وكان يوجد إيرلندي مرتد renegado (يقصد أنه تحول للإسلام) أخذوه صغيرًا جدًا لدرجة أنه لم يفقد دينه المسيحي فقط بل ولغته الإنجليزية أيضًا، وهذا الرجل عانى من العبودية ثلاثين عامًا في اسبانيا وفي السفن الفرنسية French Gallies، لكنه بعد ذلك تحرر وعاد للجزائر، وكان الناس ينظرون له كرجل صالح تقي متدين لأنه لم يترك العقيدة الإسلامية رغم تعرضه للغواية كي يتركها!.. وكان بعض جيراني الذين قصدوا للحج في العام نفسه الذي حججت فيه مع سيدي قد عرضوا على هذا الايرلندي (المرتد) أن يتكفلوا بتكاليف حجه أن خدمهم أثناء الرحلة، فقبل العرض سعيدًا، وأذكر أننا عندما وصلنا إلي مكة قال لي بعاطفة جياشة أن الله نجاه من جهنم على الأرض ويقصد بهذا فترة عبوديته في اسبانيا وفرنسا، وأن الله (سبحانه) قد مكنه من الوصول إلي جنته على الأرض ويقصد بهذا مكة (المكرمة) وقد عجبت كثيرًا لفرط حماسة وإيمانه "!

الوصول إلي المدينة المنورة:-

وفي اليوم العاشر من مغادرتهم مكة المكرمة، تصل القافلة إلي المدينة المنورة، رغم اعتقاد بيتس أن المسافة بين المدينتين في خط مستقيم لا تزيد عن يومين أو ثلاثة.. ويشير إلي أن مسلمي الهند وجنوب شرق آسيا يكتفون بزيارة مدينة مكة ولا يزورون المدينة المنورة.... بينما حجاج تركيا ومصر وأفريقيا يرون أن من الواجب زيارتها والدعاء أمام ضريح النبي - صلى الله عليه وسلم - ويصف بيتس المدينة المنورة والمسجد النبوي فيقول:

".. والمدينة (المنورة) ليست إلا بلدة يحيطها سور وبها مسجد كبير لكنه لا يقارن بالحرم المكي، وفي أحد أركانه مبنى مساحته حوالي أربع عشرة أو خمس عشرة خطوة مربعة، به نوافذ ضخمة مغطاة بشبك نحاسي، وداخل هذا المبنى الصغير بعض المصابيح والزينات وهو مقنطر arched وقد قيل أنه يوجد ما لا يقل عن ثلاثة آلاف مصباح حول قبر الرسول وهو قول غير صحيح، إذا لا يوجد - كما اعتقد - أكثر من مائة انني أتحدث عما أعرفه، ورأيته رأي العين، وفي الوسط يوجد قبر محمد (صلى الله عليه وسلم)، وثمة ستارة حريرية تحيط بقبره وهي ستارة غير غالية الثمن وغير جميلة، ولا يسمح للحجاج بالدخول إلي هذه الغرفة فلا أحد يدخلها إلا الأغوات (الطواشية) للأشراف على المكان وتنظيفه وايقاد المصابيح، وكل ما يتاح للحجاج هو أن يتعلقوا بالشبابيك وأن ينظروا من خلال الشبك النحاس ويدعون للنبي بحماس فائق ووجد شديد..!

وتضم " الروضة الشريفة " قبور النبي – صلي الله عليه وسلم – وبجواره دفن خليفتيه أبو بكر وعمر...

ويتم تزويد المدينة المنورة بالمؤن من الحبشة على الساحل الآخر للبحر الأحمر، فمن الحبشة

تأتيهم السفن محملة بالقمح وغير ذلك من الضروريات، وهي سفن غريبة لم أر لها مثيلًا، فأشرعتها من حصير، كالحصير الذي يستخدمونه في بيوتهم ومساجدهم.... وبعد أن قضينا بالمدينة يومين، غادرناها في اليوم الثالث.. وبعد عشرة أيام قابلنا جمع من البدو " أهدوا إلينا كميات هائلة من الفاكهة والزبيب، لا أدري من أين أتوا بها "!.. وعلى مسافة سبعة أيام من القاهرة " التقينا بجمع غفير يزيد عن بضع مئات، أتوا للترحيب بأقاربهم وأصدقائهم في حفاوة بالغة ".. وعلى مسافة ثلاثة أيام من القاهرة " كان بانتظارنا آلاف من المصريين اختلطت أصواتهم المبتهجة بأصوات الجمال الكثيرة التي أتوا بها محملة بماء النيل لنشرب منه "!.. ويقول بيتس أن الرحلة استغرقت من مكة إلي القاهرة ٣٧ يومًا بالإضافة إلي ثلاثة أيام توقفت فيها القافلة " فتلك أذن أربعون يومًا كاملة كما أخبرتكم من قبل، وطوال رحلتنا لم نرى سوى الصحراء القاسية والحجارة.. وحرارة جهنمية لا تطاق.. واعتبر الحجاج أن اجتيازنا كل ذلك كان بعون من الله وبفضله وشكروا الله كثيرًا[1] "!.

---

(١) المصدر السابق: ص ٧٥.


الأمير الغامض دومينجو باديا

رحلة الأمير الغامض إلى مكة

وازدادت الرغبة في الرحيل عبر صحراء بلاد العرب، واكتشاف المثير والغامض.. وتنوعت الأهداف والنوايا، وكانت المحصلة تلال من المذكرات واليوميات والحكايات التي كتبها الرحالة الأوربيون، منذ بداية القرن التاسع عشر، في هذه المرحلة التي غاب فيها أي عمل تسجيلي عربي!!

ومن أبرز الرحالة الجغرافيين الأوروبيين الأوائل الذي جابوا بلاد العرب و" أكثرهم غموضًا " الرحالة الاسباني: " دومينجو باديا لبليخ Dominigo Badia Leblich " وهو أشهر أوروبي زار مكة بعد الإيطالي المحب للمرح والمبالغة " لودفيكو دي فارتيما – سنة ١٥٠٢ " والإنجليزي " جوزيف بيتس – سنة ١٦٨٠ "..

تميزت رحلة لبليخ بطابعها العلمي والجغرافي، وهو أول من منح للأوروبيين تقريرًا مفصلًا عن طرق التجارة في الحجاز، وأول من وصف الأماكن والمواقع التي مر بها وصفًا طبوغرافيًا دقيقًا[١]، وصحح بعض الأخطاء الجغرافية التي كانت شائعة في عصره!

ولد دومينجو لبليخ عام ١٧٦٦ بضاحية " بيسكاي " بمدينة برشلونة[٢]، تلقى تعليمه بجامعة " بلنسيه " ودرس الرياضيات وعلوم الفيزياء والجغرافية والفلك، وأجاد من اللغات: الفرنسية والإنجليزية والإيطالية والعربية!

في عام ١٨٠٢، قام بزيارة إلي لندن، وناقش أعضاء "الجمعية الأفريقية[٣]" في إمكانية اكتشاف مجاهل القارة لحساب الجمعية، وقصد باريس لنفس هذه الغاية واتصل بوزارة الخارجية الفرنسية وبمعهد الأبحاث العلمية، وشجعه "تاليران" وحمله خطابات توصية لتسهيل مهمته، وبدأ رحلته يحيط به الغموض خاصة وهو ينتحل إسمًا ولقبًا مستعارًا "الأمير علي بك العباسي"!

---

(١) Ali Bey (Domingo Badia Y leblich) Voyages d' Ali Bey El - Abbasi en Afrique et en Asie Pendant les annees 1803 - 1807 , 2 Vols , Paris , 1814 .

(٢) Bidwell, T.: Travellers in Arabia, P. 29 .

(٣) Bidwell, R.: OP. cit. P. 29 .

رحلة الأمير الغامض إلي المغرب :-

كانت رحلة الأمير الغامض إلي بلاد المغرب "رحلة استكشافية علمية وسياسية" لحساب حكومتي أسبانيا وفرنسا، حيث وصل إلي طنجة في ٢٩ يونيو ١٨٠٣ وكان سفيرا الدولتين في "طنجة" يمدانه بالأموال والإرشادات، وكان قد أتى إلي المغرب محملًا بأثمن الهدايا إلي السلطان "مولاي سليمان" ورجال دولته ومدفعين وعشرين بندقية وثلاثون غدارة وبرميل من البارود الإنجليزي وشقق من أفخر أنواع الحرير وعطور وصناديق من الحلي والمجوهرات " وقد حظي بمحبة الناس وتقديرهم في طنجة، فهو يواظب على أداء الصلوات مع الجماعة، وشيد عدة أسبلة وأنفق بسخاء على الفقراء!، وشرع يجمع المعلومات التي تحتاجها الاستخبارات الأسبانية والفرنسية. ‥ ثم بدأ يسعى في إحداث الفتن والقلاقل الداخلية التي فطن إليها سلطان المغرب، وبدأت الشكوك تحوم حوله، فطلب من السلطان السماح له بالخروج لأداء فريضة الحج، لكن السلطان اقترح عليه تأجيل رحلته للحج إلي العام التالي، وطلب منه الإشراف على فرقة عسكرية خاصة للهجوم على مدينة مليله (تحت الاحتلال الأسباني وما زالت!) لتحريرها ولاختبار إخلاصه ونواياه، إلا أن على بك راوغ وماطل كعادته!.. وأخيرًا يأذن له السلطان في شهر مارس ١٨٠٥ بالرحيل إلي مكة[١].

عندما وصل علي بك إلي حدود الجزائر، نصحه عامل " وجده " بالعودة نظرًا لنشوب الاضطرابات بناحية " تلمسان " وإنعدام الأمن في الطريق البري، فلما علم السلطان بذلك، أرسل إليه كوكبة من الفرسان لحمايته والعودة به إلي " فاس " حيث لاحظ تغير خاطر السلطان عليه، وأبعد عن زوجه وحاشيته إلي أن أخرج من " فاس " تحت الحراسة المشددة ووضع في مركب توجهت به إلي طرابلس الغرب في أكتوبر ١٨٠٥ لتنتهي مغامرات الأمير الغامض في المغرب!

رحلته إلي مكة المكرمة :-

في أوائل عام ١٨٠٦، وصل علي بك إلي الإسكندرية، وفيها التقى الأديب الفرنسي الشهير "شاتوبريان[٢]" والذي وصف علي بك بأنه " أكثر الأتراك ثقافة في العالم "!.. ويليق به أن يكون " من أحفاد صلاح الدين "!

وفي القاهرة، حظي بلقاء مع محمد علي باشا، الذي أدرك بذكائه أن علي بك ليس عباسيًا

---

(١) Ali bey (Domingo Badia Y leblich) Voyages d'Ali Bey El - Abbasi en Afrique et en Asie Pendant les annees 1803 - 1807 , 2 Vols, Paris, 1814, PP. 116 - 121 .

(٢) Bidwell, R.: Travellers in Arabia, P. 28 .

ولا علاقة له إطلاقًا بالعباسيين! ويبدو أن علي بك قد لاحظ بدوره تلك النظرة المتشككة في عيني الباشا الكبير[1]!

في الخامس عشر من ديسمبر ١٨٠٦، غادر علي بك القاهرة متوجهًا إلي السويس ضمن قافلة من خمسمائة جمل.. " كانت حصتي في القافلة ١٤ جملًا وثلاثة جياد فقد تركت معظم أمتعتي وخدمي في القاهرة ".. وأبدى تذمره من بطء القافلة التي ما أن وصلت إلي السويس حتى غادرها ليستقل سفينة مبحرة إلي جدة وقد نجا من الغرق أثر عاصفة بحرية، فوصلها وسط مظاهر بذخ شديد، لكنه ما لبث أن أصيب بالملاريا، فنقل محمولًا إلي مكة!

في ٢٣ يناير ١٨٠٧، وصل علي بك إلي مكة المكرمة، وكان رسول من محمد علي باشا قد سبقه ليبلغ شريف مكة بأمر الأمير الغامض، استقبله شريف مكة وحاوره كثيرًا عن حروب أوروبا ونوايا فرنسا تجاه الجزيرة العربية[2]، وأخيرًا امتدح لغته العربية و" قرر أن يخصص له مرافقًا ".. كانت الطريقة التي يتحدث بها العربية لا تدعو إلي الشك في أمره، وحاشيته اعتادت أن تبسط سجادته بالقرب من سجادة الإمام في المسجد الحرام!.. فالحاج علي بك العباسي " عالي المقام، شريف النسب، سليل العباسيين "!

ولقد أثر فيه مشهد الكعبة تأثيرًا عميقًا[3]، فيقول بأسلوب فلسفي يدل على إيمان صادق بوجود الله " علي حجاج مكة أن يدخلوها حفاة، لكنني بسبب اعتلال صحتي ظللت معتليًا ظهر جملي، وما أن بلغت مقر إقامتي حتى توضأت ثم مضيت في جماعة من الحجاج إلي الكعبة، وكان الدليل (المطوف) الذي يقودنا يتلو الدعوات بصوت مرتفع ونحن نرددها خلفه بنفس النبرة... ووصلنا إلي المسجد (الحرام) من الشارع الرئيسي ودخلناه من باب السلام، الأمر الذي يعد فألًا حسنًا، وبعد أن خلعت حذائي واجتزنا الرواق، وأصبحنا على وشك الدخول إلي صحن المسجد الكبير حيث بيت الله، أوقفنا دليلنا رافعًا إصبعه نحو الكعبة قائلًا: انظر ها هو بيت الله الحرام... إن الجموع الخاشعة المحيطة بي، وصحن المسجد الكبير، وأعمدة الرواق التي تبدو وكأنها بلا نهاية، والكعبة بكسوتها من أعلاها إلي أسفلها تحوطها دائرة من القناديل.. وسكون الليل، ودليلنا الذي يدعو وكأن الوحي قد هبط عليه!.. كل ذلك شكل في تلك اللحظة مشهدًا مهيبًا لن يمحى من ذاكرتي "!

---

(١) سمير عطا الله: قافلة الحبر.. مصدر سابق، ص ٥١.

(٢) Anonymous author: A description of the yeerely voyage or Pilgrimage of the Mahumitans, Turkes and Moores unto Mecca in Arabia, ed by Richard Hakluyt, Glasgow, 1901, Vol5, PP. 329-335.

(٣) جاكلين بيرن: إكتشاف جزيرة العرب.. مصدر سابق، ص ١٨٨ - ١٨٩.

وعن مناسك الحج كتب الأمير الغامض: " بدأنا بالطواف حول الكعبة سبع مرات، وفى كل دورة تبدأ من الحجر الأسود فى الزاوية الشرقية، متابعين الخطى نحو الواجهة الرئيسة للكعبة حيث يوجد الباب، ومن هناك نلتف نحو الغرب والجنوب خارج حجر إسماعيل، وعند وصولنا إلى الزاوية الجنوبية تمد الذراع اليمنى، وبعد إمرار اليد على مرمر الركن، مع اتخاذ الحيطة والحذر لئلا يمس الجزء الاسفل من اللباس قاعدة المبنى المكشوفة، وتمسح الوجه واللحية قائلا: " بسم الله، الله أكبر، الحمد لله ".

وتستمر المسيرة نحو الشمال الشرقى مرددين: " الله أكبر، ربنا آتنا فى الدنيا حسنة وفى الآخرة حسنة "، ملتفين فى الوقت نفسه نحو الزاوية الشرقية مقابل الحجر الأسود، رافعين الأكف داعين ملبين بمثل ما بدأنا به: " بسم الله، الله أكبر "، مضيفين مع خفض اليدين: " الحمد لله "، وبعد ذلك نقبل الحجر الأسود، وبهذا تكتمل الدورة الأولى من الطواف.

وبعد نهاية السبع الأخير من الطواف، وتقبيل الحجر الأسود، يتلى الدعاء الجماعى المختصر فى هيئة القيام، وباتجاه القبلة بين باب الكعبة والحجر الأسود، وبعد ذلك الذهاب إلى مبنى معرش يسمى " مقام إبراهيم "، الواقع بين الكعبة والقوس المعروف بباب السلام، وهناك تؤدى الصلاة العادية. ومن ذلك الموقع يتم الانتقال إلى بئر زمزم، حيث يستخرجون دلاء الماء ويشربون حتى الارتواء.

نخرج بعدها من خلال باب الصفا حيث يصعد فى زقاق يؤدى مباشرة إلى ما يسمى جبل الصفا،وفى طرف الشارع الذى ينتهى بها يشبه الساحة، مبنى مكون من ثلاثة أقواس على أعمدة، ومنها يكون الصعود بالدرج إلى المكان المقدس المسمى "الصفا"، وعند صعود الحاج يحول وجهه نحو باب الحرم الذى يكون أمامه، ويدعو دعاءً قصيراً واقفاً على قدميه.

عند ذلك الباب يأخذ الشارع الرئيسى باتجاه جبل المروة، قاطعاً المسافة وهو فى حالة دعاء مستمر حتى نهاية الشارع المقطوع بحائط ضخم، ومنه يصعد بعض الدرج موليًا وجهه نحو الكعبة، ولو أن منظر البيوت المعترضة تحجب الرؤية، وفى كل الأحوال تستمر الأدعية القصيرة؛ وبعد السعى الثانى نحو الصفا يتبعه ثالث باتجاه المروة، وهكذا وبشكل مستمر حتى المرة السابعة، مع ترديد الأدعية بصوت عال، وترديد الابتهالات القصيرة فى كلا المكانين المقدسين،وبهذا ينتهى الطواف سبع مرات رواحًا ومجيئًا بين التلتين.

وعندما أنهيت السعى للمرة السابعة فى المروة، رأيت عددًا من الحلاقين تمركزوا فى ذلك المكان لحلاقة الشعر للحجاج، يؤدون ذلك بمهارة عالية، ويهتفون بالدعاء بصوت عال يردده الحاج معهم كلمة بكلمة. وكان من المتعارف عليه أن كل مسلم يترك خصلة من الشعر تنمو فى وسط رأسه، لكن المصلح (محمد بن عبد الوهاب) أفتى بأن ترك هذه الخصلة يعد ذنباً؛ وبما أن

الوهابيين يسيطرون على البلاد، وكل الناس يحلقون رؤوسهم تمامًا، لذا وجدت نفسى مجبرًا على ترك خصلة شعرى الطويلة تسقط على يد ذلك الحلاق العديم الرحمة.

كان طلوع الفجر يقترب عندما أكملنا كل هذه الواجبات الأولية، بعدها قالوا بأننى أستطيع الذهاب للاستراحة بعض الشيء، وربما أنه لم يتبق إلا القليل على صلاة الصبح، فقد آثرت البقاء لأدائها والعودة إلى الحرم، بالرغم من تعبى وهزالى، ولذا لم أتمكن من دخول بيتى إلا الساعة السادسة صباحًا.

وعند منتصف النهار عدت إلى الحرم لأداء صلاة الجمعة بعد أن طفت للمرة الثانية حول الكعبة سبع مرات، والصلاة منفردًا ثم الاكثار من شرب ماء زمزم".

وخلاصة عقيدته تتجلى في وصفه الرائع لمشهد الوقوف بعرفة مما يدل على فهمه العميق للمقاصد الإنسانية من شعيرة الحج، حين يتوحد البشر بالأرض والسماء.. وفهمه لجوهر الحج كجسر تواصل بين المسلمين من مشارق الأرض ومغاربها، فيقول: " سيظل الحج إلي جبل عرفات قيمته الخاصة ... ولن يستطيع إنسان أن يتمثل عظمة المشهد المهيب لحج المسلمين إلا عند الوقوف بجبل عرفات، جموع غفيرة من جميع الأمم، ومن جميع الألوان، جاءوا من أقصى الأرض مجتازين آلاف المخاطر والمشاق، لكي يعبدوا إلهًا واحدًا، القوقازي يمد يد الصداقة إلي الحبشي أو الزنجي أو الغيني، ويتآخى الهندي والفارسي مع البربري والمغربي، يتلاقون جميعًا كأخوة أو كأفراد أسرة واحدة، أواصر الدين توحد ذات بينهم، يتحدث غالبيتهم أو على الأقل يفهمون لغة واحدة هي اللغة العربية المقدسة، وما من دين آخر يستطيع أن يقدم للحواس مشهدًا أبسط وأعظم تأثيرًا من هذا المشهد.. فيا فلاسفة العالم، اسمحوا لعلي بك أن يدافع عن دينه، كما تدافعون أنتم عن مذاهبكم الروحانية أو المادية[1].... "!

وكان لعلي بك حظ المشاركة في " غسل " الكعبة، وهذا شرف لا يناط به سوى شريف مكة وكبار الشخصيات.. ويصف هذا المشهد فيقول[2]:

" فتح باب الكعبة في التاسع والعشرين من يناير، وتدافعت باتجاهه جموع الناس، إلا أن السلم لم يكن قد وضع بعد، ثم دخل شريف مكة الكعبة محمولًا على الأكتاف، وبصحبته شيوخ القبائل، وتولى الحراس الأشداء من الزنوج منع الناس من الدخول، وكنت قد انتحيت مكانًا قصيًا تجنبًا للازدحام، حتى أشار لي - سيد زمزم - بالاقتراب تنفيذًا لأمر شريف مكة، ولكن كيف لي أن أشق طريقي بين هذه الجموع الغفيرة ؟!

---

(1) Voyages d'Ali bey: Op. cit, PP. 222 -224 .

(٢) جاكلين بيرن.. مصدر سابق، ص ١٩١ - ١٩٢.

وأخـذ الزنوج يصبون الماء على أرض القاعة المبلطة بالرخام، يتبعونه بصب ماء الورد. وكان المؤمنون يتهافتون لجمع هذا الماء الذي كان يسيل من ثقب تحت عتبة الباب، ولكن بما أن هذا الماء كان أقل من أن يشبع نهم الجموع، وبالنظر إلى أن أصوات البعيدين عن الباب تعالت مطالبة بهذا الماء للشرب والاستحمام، أخذ الحراس الزنوج ينضحون الجموع بالطاسات والأيدي نضحًا سخيًا. وقد عنوا بإيصال جرة صغيرة إلي فشربت منها ما أمكنني، وصببت ما تبقى فيها على نفسي، لأن هذا الماء، رغم كل شيء يحمل بركة الله، ثم انه معطر بماء الورد.

ثـم بذلت جهدًا للتقدم، فرفعني أناس كثيرون فوق الجميع، فسرت على الرؤوس حتى بلغت الباب أخيرًا، حيث ساعدني الحراس على الدخول.

كنـت مستعدًا لهذا العمل، إذ لـم أكن مرتديًا إلا قميصًا من الصوف الأبيض، بلا كمين، ومعتمًا بعمامة، وملتفًا بحيك.

كـان شريف مكة يكنس أرض القاعة بنفسه، وما كدت أدخل حتى انتزع الحراس حيكي، وقدموا لي عددًا من المكانس الصغيرة أمسكت ببعضهـا بكلتا اليدين. وفي تلك اللحظة صبوا كثيرًا من الماء على البلاط، فأخذت أكنس بكلتا يدي بإيمان حار رغم أن الأرض كانت قد أصبحت نظيفة، ملساء كالزجاج. وبينما كنا نقـوم بهذا العمل، كان الشريف قد فرغ من كنس القاعة وتعطيرها، وأخذ يصلي.

ثـم قدمت إلي طاسة من الفضة ملئت عجينًا مصنوعًا من نشارة خشب الصندل العطري ومن ماء الورد. فمددت هذا العجين على أسفل الجدار المرصع بالرخام، تحت السجادة التي تكسو أعلاه والسقف، وعندئذ منحني السلطان الشريف لقب " خادم بيت الله الحرام " وقام الحضور بتقديم التهاني إلي ثم أديت الصلاة في أركان القاعة الثلاثة كما فعلت في المرة الأولى، وبهذا فرغت من القيام بالتزاماتي. وفيما كنت منصرفًا إلى إداء الصلاة، غادر شريف مكة وحاشيته.. ثم قدم إلي بعض من عجين الصندل ومكنستان احتفظت بهم كأغلى تذكار!.. ثم انزلني الحراس على رؤوس الناس، الذين أنزلوني وهم في غبطة مهنئين، فتوجهت إلي مقام إبراهيم وصليت ركعتين حمدًا لله "!

مناسك الحج:-

ويشيـر علي بك إلي أن الرحالة الإيطالي "دي فارتيما[1]" لم يلاحظ شعيرة السعي بين الصفا والمروة عقب الطواف حول الكعبة، وأن هذين المكانين المقدسين كانا على عهد النبي، كانا واقعين خارج مكة، وأصبحا الآن ضمن حدودها.. ويصف علي بك إنطباعاته عن مناسك الحج فيقول:

---

(١)المصدر السابق: ص ١٩٣.

يقصـد الحجاج أولًا الرواق الذي يتوج قمة الصفا، وسطيحة المروة، لتلاوة الصلاة المفروضة. وبما أن شارع مكة الرئيسي هو بالضبط الطريق المؤدية من الصفا إلي المروة، وهو الشارع الذي تقع فيه السوق العامة، فإن الجموع التي تزدحم فيها تزعج الحجاج في سعيهم بين الأكمتين، الصفا والمروة ". وتقع في هذا الشارع حوانيت الحلاقين، إذ أن التقليد يقتضي أن يحلق الحجاج رؤوسهم.

ثـم يتضمن الحج صعود جبل عرفات. وقد وصف علي بك الطريق التي بدأ سلوكها بعد الظهر، فقال: "إنها واد صغير بين جبال جرداء ذات حجارة صوانية" ويمر الحجاج في قرية مني ذات الشارع الوحيد الضيق. وأول ما يرى عند دخول القرية عين ماء يقوم قبالتها بناء قديم يقال أن الشيطان قد شاده!

عنـدمـا يبلغ الحجاج المسجد القائم في سهل صغير، يجدون أنفسهم مجبرين على الاستراحة فيه لأن التقاليد تروي أن النبي الكريم كان يستريح فيه كلما ذهب إلي عرفات، وتزدحم الجماهير كلها في هذا الوادي الصغير، وفي الصباح الباكر تستأنف السير. وبعد مسيرة ثلاث ساعات في مضيق محصور، يبلغ الحجاج أسفل الجبل. وقد كان الوهابيون يقومون بهدم المعبد الصغير القائم في إعلاه. وكان أربعة عشر حوضًا قد رممت بأمر " سعود " تستعمل مياهها للشرب والوضوء.

علـى قمة عرفات، عرف " آدم " أبو البشر أمنا " حواء " بعد فراق طويل، لذا سمي " عرفات " ويعتقد أن آدم نفسه هو الذي شاد المعبد الصغير الذي هدمه الوهابيون!

بعـد صلاة العصر التي يؤديها الحجاج في خيامهم، وبعد أن يكون قد هيء كل شيء للرحيل: تقضي التقاليد بأن يتجه الحجاج نحو أسفل الجبل سيرًا على الأقدام، ليبلغوه قبل غروب الشمس. " وعندما يوشك موعد الغروب أن يحين.. يا له من إعصار! ليتصور المرء ثمانين ألف رجل، وألفي أمرأة، وألف ولد صغير، مع ستين أو سبعين ألف جمل، وعدد من الحمير والخيل، يريدون قبل هبوط الظلام أن يستحثوا خطاهم حسب التقاليد، في واد ضيق، يزحم بعضهم بعضًا، في سحاب من الغبار، وغابة من الرماح، والبنادق، والسيوف.

وسبـب هذا الإسراع الذي تأمر به التقاليد أنه يجب ألا تؤدى صلاة المغرب في عرفات ولكن في المزدلفة حيث يجب أداء صلاة المغرب، وصلاة العشاء أيضًا بعد إنقضاء ساعة ونصف على غياب الشمس. وفي المزدلفة يخيم الحجاج.

يستـأنـف الحجاج السير في الصباح الباكر من اليوم التالي للتخييم في منى هناك، مثلما روي لنا دي فارتيما، ويتوجه الحجاج نحو بيت الشيطان، ويرجمونه بسبع أحجار قائلين: " باسم الله. الله أكبر! " ويضيف علي بك إلي ذلك قوله: " وبما أن دهاء الشيطان قد دفعه إلي إقامة بيته في مكان ضيق جدًا لا يتجاوز عرضه أربعًا وثلاثين قدمًا، وتقوم في الطريق المؤدية إليه صخور

ضخمة يجب اجتيازها لتأمين رشق الحجارة، وبما أن جميع الحجاج يريدون إتمام هذا العمل المقدس حال عودتهم إلي منى، فإن المكان تسوده بلبلة غريبة، ولكنني أخيرًا، بمساعدة رجالي، تمكنت رغم الازدحام والضوضاء، من إتمام هذا الواجب المقدس، ولم يكلفني ذلك إلا جرحين في ساقي اليسرى. ثم إنسحبت إلي خيمتي لآخذ قسطًا من الراحة بعد العناء الذي كابدته!

في ذلك النهار يجب تقديم الذبائح. وفي اليوم التالي، والحجاج ما يزالون في منى، ذهب الجميع، بعد صلاة الظهر، لرجم عمود صغير بني من الحجارة والوحل يبلغ ارتفاعه ست أقدام، ومساحة قاعدته قدمان مربعتان واقع في وسط شارع منى، يقال إن الشيطان قد أقامه، وهم يرجمونه بسبعة أحجار مغسولة بالماء، وقد قمت برشق عمود آخر أقامه الشيطان على بعد أربعين خطوة من الأول بسبع أحجار أخرى، ورميت أخيرًا البيت الحقير الآنف الذكر بسبع أحجار مرة أخرى.

في اليوم الثالث من عيد الفطر، بعد إجراء هذه الشعيرة تكرارًا، عاد علي بك إلي مكة وهو يقول: " عند دخولي المدينة، توجهت الي المعبد حيث طوفت سبع مرات ثانية حول بيت الله، ثم خرجت من باب الصفا بعد أن صليت وشربت من ماء زمزم، لأكمل الحج بالسعي سبعًا بين الصفا والمروة كما فعلت ليلة وصولي. "

آثاره العلمية[١] :

سجل علي بك العباسي وقائع رحلاته في كتاب " رحلاتي في أفريقيا وآسيا " بالفرنسية، ونشر في حياته، في باريس عام ١٨١٤، ثم ظهرت الطبعة الإيطالية في أربعة أجزاء خلال عامي ١٨١٦، ١٨١٧.

وفي عام ١٨٣٦، ظهرت الطبعة الإسبانية تحت عنوان " رحلات دومينكو باديا لا بليك - علي بك العباسي - في أفريقيا وآسيا خلال السنوات ١٨٠٣ - ١٨٠٧ " وأعقبتها الطبعة الإلمانية في جزئين، ثم الطبعة الإنجليزية بعنوان " رحلات علي بك في المغرب وطرابلس ومصر والجزيرة العربية وسوريا وتركيا خلال السنوات ١٨٠٣ - ١٨٠٧ " مدعمة بالرسوم التوضيحية والخرائط.

كما نشرت له مذكرات وتقارير علمية وترجمات، منها: تجارب حول الغاز والآلات الابروستانيكية " عام ١٧٩٢، وقد حاول صنع " منطاد " ربما كان الأول من نوعه، ولكن بسبب خلل فني فشل المشروع!..

---

(١) Ali Bey (Domingo Badia Y leblich) Voyages d'Ali Bey El Abbasi, OP. cit .

وتـرجـم كتاب لاراثيو سوسور سنة ١٧٩٨ " تجارب حول علم قياس الرطوبة في الجو " وفي عام ١٧٩٩، قدم مذكرة بعنوان " بنك الرأفة الملكية لماريا لويزا " تضمنت مشروعًا اقتصاديًا لمواجهة الأزمة الاقتصادية التي عانت منها إسبانيا في ذلك العصر[١]، وترجم كتاب " عجائب الطبيعة " لجوزيف سيجودو لافوند عام ١٨٠٠، وكتب مسرحية من أربعة فصول بعنوان " علي باي في المغرب "!.. ومذكرات بعنوان " مشروع الرحلة إلي افريقيا لأهداف سياسية وعلمية "!

وقـال عنه المؤرخ البريطاني[٢]" روبين بيدويل - R.Bidwell " كان باديا " أول رحالة يعطي للغرب وصفًا علميًا دقيقًا عن مكة، وهو أيضًا أول من وصف طرق تجارتها وحدد موقعها على الخريطة بصورة صحيحة " وقال عنه " أمين الريحاني" الرحالة العربي الشهير[٣]: " تميزت رحلة علي بك بدقة الوصف الجغرافي والطبوغرافي للأماكن التي مر بها، وتحقيق درجات الطول والعرض للمدن التي زارها ".. كذلك سجل معلومات كثيرة عن النباتات وطبقات الأرض وملاحظات فلكيـة، وصحح كثيرًا من الأخطاء التي كانت شائعة في عصره، وهو أول من إشار إلي منطقة " الحرة " الواقعة في غرب الجزيرة العربية.

هل كان شريكًا في مؤامرة دولية ؟!

تبـاينـت الآراء بشأن "الأمير الغامض".. فيشير البعض بأنه كان يهوديًا عمل لحساب الجنرال نابليون بونابرت، بينما يشير البعض الآخر بأنه كان يعمل لحساب الحكومة الإسبانية.. بل نجد من ينفي عنه تهمة الجاسوسية ويقول بأنه "كان موظفًا في إمارة البحر الفرنسية جاء لتدوين ملاحظات جغرافية علمية عن المنطقة"!.. ولكن متى كانت البعثات العلمية بدون أهداف سياسية ؟!.. كما يقول د. "أسعد الفارس"[٤] ومما يؤكد صحة اتهامه بالتجسس "أنه عندما عاد لأوروبا استقبله الأمبراطور والتقى به أكثر من مرة، ووضع نفسه في خدمته، واشتهر في فرنسا بـ "الجنرال باديا"!.. وفي عام ١٨١٨ ن عاد علي بك إلي دمشق، استعدادًا للتوجه إلي مكة مرة أخرى، ولكنه لقي حتفه جنوب دمشق في أغسطس عام ١٨١٨، وعندما جرد من ثيابه تجهيزًا لدفنه " وجد متوشحًا بصليب "!!.. وأشارت بعض المصادر الفرنسية أنه قتل مسمومًا بأيدي عملاء الاستخبارات البريطانية في لعبة " الحرب الخفية " في عواصم الشرق!

---

(١) Bidwell, T.: Travellers in Arabia, P. 28 .

(٢) OP. Cit., P. 27 .

(٣) أمين الريحاني: ملوك العرب أو رحلة في البلاد العربية، الطبعة الثانية. مطابع صادر ريحاني، بيروت، ١٩٥١.

(٤) أسعد الفارس: الرحالة الغربيون في شبه الجزيرة العربية.. مصدر سابق، ص ٥٨٠، راجع أيضًا Bidwell, R., OP.cit, P.30.

ويشير المؤرخ المغربي: عبد القادر الخلادي إلي أن باديا كان جاسوسًا أسبانيا يعمل لحساب حكومته وأنه " استطاع أن يخفي مكره وأن يدنس المساجد ويلعب على جميع الحبال ثم يفلت بجلده آخر الآمر.. إن الأدوار التي لعبها هذا الجاسوس الإسباني في المغرب والبلاد الإسلامية كانت مظهرًا من مظاهر التجارب الأولى في ميدان الجاسوسية الدولية بهدف الاستيلاء على الشعوب واستعبادها "!

وفي محاولة للكشف عن حقيقة شخصية على بك ونواياه، رجح المؤرخ البريطاني " ر. بيدويل " أنه كان يعمل لحساب نابليون الذي كان يأمل في العودة مرة أخرى إلي الشرق، فمنذ حملته على مصر سنة ١٧٩٨ ظل يراوده حلم " إمبراطورية الشرق ".. وبالرغم من فشل حملته، إلا أنه كان يخطط لغزو الشاطيء الجزائري بهدف إقامة مستعمرات في شمال افريقيا لزراعتها بالحبوب وإمداد " جيش الشرق " منها، وعندما دخلت فرنسا الحرب مع روسيا عام ١٨٠٥[١]، ازدادت قناعة نابليون بفكرة غزو الجزيرة العربية والوصول إلي مسقط، وهي الفترة نفسها التي رحل فيها " الجنرال باديا " إلي المغرب والجزيرة العربية!.. فهل كان علي بك شريكًا في " مؤامرة دولية "[٢] كانت تحاك للمنطقة في الخفاء في ذلك العصر ؟!.. حقًا، فقد كان الجنرال باديا أو الأمير علي بك.. مغامرًا كبيرًا في حياته، ولغزًا.. غامضًا ومحيرًا بعد وفاته!!

---

(١) Bidwell, R., OP. Cit. P. 30 .

(٢) OP.cit, P. 30 - 31 .



"بوركهارت" أو الشيخ إبراهيم في بلاد العرب

مـن أوائل الرحالة المستكشفين لبلاد العرب، في عصر الإمبراطورية العثمانية، المستشرق " جون لويس بوركهارت Johann Ludwig Burckhart " الذي ولد بمدينة لوزان بسويسرا، في ٢٤ نوفمبر سنة ١٧٨٤ م، وعندما أتم دراسته الأولية، ألحق بمدرسة " نوف هوتيل " الثانوية، وفي عام ١٨٠٠ م التحق بجامعة ليبزيج، ثم درس بجامعتي لندن وكمبريدج: اللغة العربية وعلم الفلك، وعلم المعادن والكيمياء والطب والجراحة، قبل أن ترشحه " الجمعية الأفريقية " للقيام برحلة استكشاف في أفريقيا(١).

وأطلـق لحيته، واتخذ هيئة شرقية، وفي فترات الراحة بين أعماله، كان يتدرب على القيام بجولات طويلة سيرًا على قدميه، وعرض نفسه كثيرًا لأوار الشمس، وتوسد الأرض، وعاش على الأطعمة البقولية، ودرب نفسه على مقاومة العطش...

وفـي الثاني من مارس سنة ١٨٠٩ غادر إنجلترا إلي " مالطة " ومنها إلي "حلب" التي عاش فيها نحو عامين متخفيًا في زي تاجر مسلم وفد من الهند مزودًا بتوصيات من إدارة شركة الهند الشرقية، وأتقن اللغة العربية ولهجات البدو، وأصبح موضع ثقة العلماء المسلمين.. وأقام في دمشق نحو عام ثم توجه إلي لبنان وحوران، وكان أول أوروبي يشهد آثار "البتراء"(٢)، ثم سلك طريق الحج إلي القاهرة، وحالت ظروفه الصحية دون أن يواصل رحلته إلي فزان والنيجر – الهدف الرئيسي – وقـام برحلة إلي النوبة، ومنها اخترق الصحراء إلي " سواكن " ثم عبر البحر الأحمر إلي جدة، وأنجـز رحلته في بلاد العرب (١٨١٤ – ١٨١٥) زار فيها مكة المكرمة والمدينة المنورة(٣)، وأعقبها برحلة إلي سيناء وخليج العقبة، ثم استقر في القاهرة، حيث لا تزال آثار

---

(١) Bidwell, R.: Travellers in Arabia, P. 52 .

(٢) Burckhardt, J.L.: Travels to Syria and Holy Land , London, 1822 .

(٣) Burckhardt, J.L.: Travels in Arabia, Comprehending an Account of those territories in Hedja 2 which the Mohammedans regard as Saacred, 2 vol, London , 1829 .

نابليون ماثلة على ضفاف نيل مصر، ووافته المنية في ١٥ أكتوبر سنة ١٨١٧م ودفن بلقب الشيخ والحاج إبراهيم، في مقبرة خاصة، في الجنوب الشرقي من باب النصر الملاصق للقاهرة الفاطمية[١]، وتجدر الإشارة إلي أن رحلة بوركهارت تمثل مسحًا شاملًا لجزيرة العرب ومنظومة متكاملة لشتى المعارف بما احتوته من تقارير عن التنظيم القبلي، وعادات وتقاليد بدو الجزيرة وفنونهم في القتال، وكافة الأوضاع الإدارية والاقتصادية والاجتماعية حتى تربية الخيل والأبل وأشعار البدو!.. فكانت وثيقة بالغة الأهمية اعتمدتها الاستخبارات البريطانية لرجالها خلال الحرب العالمية الثانية!

ومؤلفاته هي:-

* رحلات في بلاد النوبة والسودان ١٨١٩ م.
* رحلات في سوريا والأرض المقدسة ١٨٢٢ م.
* رحلات في بلاد العرب ١٨٢٩ م.
* ملاحظات عن البدو والوهابيين ١٨٣٠ م.
* الأمثال العربية ١٨٣٠ م.

الرحلة إلى مكة المكرمة :-

في فبراير عام ١٨١٢، كان بوركهارت على استعداد لإنجاز المرحلة الثانية من رحلته إلي " النيجر " فتوجه إلي القاهرة – عبر بلاد الشام – فوصلها في سبتمبر، حيث اكتشف أن القافلة المتجهة إلي غرب افريقيا لن تبدأ رحلتها قبيل يونيو ١٨١٣[٢]، فقرر أن يستثمر هذه الفترة في استطلاع حوض النيل.. وقرر أيضًا أن يحقق ما لم يحققه أوروبي قبله، بأن يتوغل أكثر في جنوب أسوان.

قطع بوركهارت أكثر من ٢٠٠ ميل جنوبًا من أسوان واكتشف معابد أبو سمبل شبه المطمورة. لكنه بسبب خلاف مع حكام المناطق تبين له أنه غير قادر على المضي جنوبًا أو غربًا، فاستقل مركبًا صغيرًا في النيل ليتعقب آثار الخطوات التي قطعها وحين وصل إلي أسيوط علم أن الرحلة إلي أفريقيا الغربية لا تزال غير ممكنة بالنسبة إليه فقرر أن يكتسب لقبه (حاج) عن استحقاق وذلك بالقيام برحلة الحج إلي مكة المكرمة، فانضم إلي قافلة من النوبيين والسودانيين المتجهة إلي أم القرى.

يخبرنا بوركهارت عن الأغراض التي كان يحملها قميص ورداء وقلنسوة وسروال

(١)عرفة عبده علي: الرحالة السويسري بوركهات في مكة المكرمة، مجلة الحج والعمرة، السنة ٥٨، العدد الثاني عشر، صفر ١٤٢٤ هـ/ مايو ٢٠٠٣.

(٢) Bidwell, R.: OP.cit., P. 53 .

وصندل. وكان يحمل ٥٠ دولارًا أسبانيًا وليرتين ذهبيتين علقهما في صدره ومن الأسلحة حملت بندقية ومسدسًا وعصا في رأسها حربة. وللمزيد من الحماية حمل رسالة من محمد علي باشا تعرف به على أنه " الشيخ إبراهيم بن عبد الله الشامي "!

ومن أجل الرحلة عبر الصحراء التي ستدوم ٤ أشهر وتغطي ١٢٠٠ ميل، أخذ معه ٤٠ أقة من الطحين، ٢٠ من البسكويت، ١٥ من التمر، ١٠ من العدس، ٦ من الزبدة، ٥ من الملح، ٣ من الأرز، ٢ من البن، ٤ من التبغ وأقة واحدة من البهار، وبعض البصل و٨٠ أقة من العلف لحماره. كذلك أخذ معه مغلاة من النحاس وصحنـًا ومحمصة للبن ومطحنة وفنجانين وسكينًا وملعقة وكوبًا من الخشب وقراعة وحبلًا طوله ١٠ ياردات وخيوطًا وإبرة ومسلة وقميصًا إضافيًا وبعض الأدوية و٣ أوعية للمياه مصنوعة من جلد الماعز، ومشطًا وبساطًا خشنًا وحرامًا! أما للتجارة فقد أخذ معه ٢٠ أقة من السكر و١٥ من الصابون و٢ من جوز الطيب و١٢ موسي حلاقة وقبعتين وعدة مسابح خشبية[١].

أبحر بوركهارت مع الحجاج من سواكن في أول شهر يوليو سنة ١٨١٤ م فبلغ مدينة (جدة) في منتصف ذلك الشهر[٢]، في ظروف وصفها بالسوء لعدم حصوله على ما كان حوله من القاهرة ليصرفه، ولإصابته بالحمى، بحيث أحضر له طبيب شعبي، قام بفصده فنزف دم غزير من جسمه، وبعد أن نفد ما معه من نقود اضطر لبيع غلامه، متأثرًا بمفارقته لما يتصف به من حسن عشرة، ولرغبته في البقاء معه، باعه بتسعة عشر ريالًا، فباعه الذي اشتراه في سوق النخاسة في (جدة) بثمانية وأربعين ريالًا، واشتد عوزه بعد ذلك حتى هم أن يسير على طريقة فقراء الحجاج، الذين يكسبون قوتهم اليومي بالقيام ببعض الأعمال اليدوية، ثم أوضح سبب زوال فاقته، وتحدث بتوسع عن مدينة (جدة) وعن سكانها وعن مختلف أحوالها، وأنها ليست ميناء مكة فحسب، بل ميناء لمصر والهند والجزيرة، وربما تكون أغنى من أية مدينة في حجمها من بلدان الخلافة العثمانية!

لقد أتاحت الظروف لـ (بوركهارت) زيارة المدينتين الكريمتين، مكة والمدينة والإقامة فيهما، وفي جدة والطائف وينبع، والتجول في تلك البقاع خلال فترة من الزمن تبلغ عشرة شهور، من منتصف شهر يوليو ١٨١٤ م حتى منتصف شهر مارس ١٨١٥، وسجل مشاهداته، ومختلف ما عن له من أفكار عن أحوال هذه البلاد وطباع سكانها وطرق تعايشهم، وجميع أنماط حياتهم، من اجتماعية واقتصادية وثقافية وسياسية[٣].

---

(١) سمير عطا الله: قافلة الحبر.. مصدر سابق، ص ٥٩.

(٢) محمد سعيد الشعفي: كتاب بوركهارت كمصدر تاريخي واقتصادي لدولة السعودية الأولى، مصادر تاريخ الجزيرة العربية، جامعة الرياض، الجزء الثاني، ٤٥٣.

(٣) سمير عطا الله: قافلة الحبر.. مصدر سابق، ص ٦٠ — ٦١.

كـان دخوله إلي مكة المكرمة في الثامن من سبتمبر سنة ١٨١٤.. وأحب بوركهارت أهل مكة وأشاد بذكائهم وشجاعتهم وكرم ضيافتهم، وإن كان قد انتقد تصرفات بعض المطوفين الجشعين!.. وصادفت زيارته حلول شهر رمضان، ووصف بكل دقة المسجد الحرام[١]، وليالي النور في مكة في هذا الشهر الكريم، وامتدت اقامته – أكثر من أربعة شهور – حتى أدى مناسك الحج والوقوف بعرفة.. ووصف مشهد هذا اليوم العظيم!

كـان لخبرة بوركهارت وإتقانه للغة العربية وإندماجه بين أهل مكة.. أن يدرك الكثير من أحوالها، حتى استغرق وصفه لها والحديث عنها نحو نصف كتابه!.. فوصف تخطيط مدينة مكة وفخامة مبانيها ونظافة شوارعها (٠٠ الدور مبنية بالحجارة، ونوافذها المتعددة مطلة على شوارع نظيفة، والبيوت المكية أكثر حيوية وشبها بالبيوت الأوروبية!) وتحدث بإسهاب عن أحياء المدينة، ووصف المسجد الحرام والقائمين عليه ومزارات مكة، ولفـت نظره ندرة المياه، وعدم وجود مكتبات عامة أو محال لبيع الكتب، وتناول معاملات أهل مكة وتجارتهم وعاداتهم وتقاليدهم، وتحدث عن المناخ والحالة الصحية.. وفصل الأوضاع الإدارية للمدينة.. واختتم مشاهداته بفصل مطول شامل عن مناسك الحج[٢].. ومن الطريف أنه خرج إلي منى وعرفات " ماشيًا حافيـًا " محتسبًا أجره على الله!

في جدة :-

مـا من زائر أو حاج أو رحالة أو عالم يهبط إلي أرض البقاع المقدسة، إلا واستقبلته " جدة " المستحمة أبدًا في مياه البحر الأحمر، السفن والمراكب بمختلف أحجامها تلقي بحموتها في مينائها المتميز، بوتقة تنصهر فيها كل الأجناس والثقافات..

تـأثـر بوركهارت بمدينة " جدة " وأثرت فيه، فحدثنا عن طبوغرافية جدة، وعمارتها، ومصادر المياه، وتحدث عن بساطة أهلها الأصليين، وخليط المهاجرين من الهند وسوريا ومصر وتركيا وبلاد البربر واليمن وحضر موت، وجميعهم يعملون بالتجارة، وأفاض بوركهارت في الحديث عن الرواج التجاري للمدينة وتراثها[٣] " فلا ترجع ثروة جدة إلي كونها ميناء مكة

---

(١) Burckhardt, J.L.: OP. cit. PP. 134 - 169

- راجع، جون لويس بوركهارت: " رحلات في شبه جزيرة العرب " ترجمة: د. عبد العزيز الهلابي د. عبد الرحمن الشيخ، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٤١٣ هـ / ١٩٩٢ وقد أبرز المترجمان الأهمية العلمية للكتاب في المقدمة، ص ٥ – ٩.

(٢) حمد الجاسر: رحلة غربيون في بلادنا.. مصدر سابق، ص ١٩ – ٢٠.

(٣) محمد سعيد الشعفي: كتاب بوركهارت.. مصدر سابق، ص ٤٥٧، وقد خصص بوركهارت ٣٨ صفحة لوصف جدة وتاريخها وأحوال سكانها وأهميتها كمركز تجاري، راجع أيضًا

Burckhardt, J.L.: Travels in Arabia.. PP. 8 46 .

فحسب، فالواقع أنها تعتبر ميناء لمصر وللهند ولشبه الجزيرة العربية، فجميع صادرات هذه البلاد إلي مصر لابد أن تمر بين أيدي تجار جدة أولًا "!

وأشـار بوركهارت إلي أن لجدة من ناحية البر بوابتان: " باب مكة " للجهة الشرقية و" باب المدينة المنورة " لجهة الشمال، الأكواخ يسكنها البدو والعمال الفقراء، والسكان الأرقى ومعظمهم من التجار فأحياؤهم بجوار البحر حيث يمتد شارع طويل مواز للشاطيء وعلى جانبيه تصطف الحوانيت... الشوارع فسيحة، المنازل عالية كلها مبنية بالحجارة، لكن ليس هناك مراعاة للإنسجام في الفن المعماري.....

وفـي المدينة بعض الخانات العامة الجيدة البناء، ذات الأثاث الجيد، حيث يقيم التجار الأغراب أثناء وجودهم هنا لفترات قصيرة. وفي هذه الخانات فسحات كبيرة مكشوفة ذات ممرات بعقـود، مما يؤمن الظلال الباردة للتجار خلال القسم الأكبر مـن النهار. وباستثناء الفصل الموسمي حين تكون جدة حاشدة بالناس إلي أقصى حد، يمكن الحصول بسهولة على مساكن خاصة في أحياء المدينة النائية. على أن أفضل المساكن الخاصة في جدة ملك لمؤسسة الجيلاني التجارية الكبيرة، وهو، إلي جانب عائلته، يحتل فسحة صغيرة خلف الشارع الرئيسي. وفي هذه الفسحة ثلاث مبان كبيرة، هي أكثر المنازل الخاصة ثراء في الحجاز كله. ولكل منزل حوض ماء خاص به "!

ويشيـر بوركهارت إلي أن التجارة البرية لمدينة جدة قاصرة على مدينتي مكة والمدينة المنورة، والقافلة تنطلق إلي المدينة مرة كل ٤٠ أو ٥٠ يومًا، حاملة البضائع الهندية والعقاقير والمواد الغذائية، وينضم إلي القافلة جمع من الحجاج الراغبين في زيارة ضريح الرسول – صلى الله عليه وسلم – وخلال الأشهر الأربعة التي تسبق موسم الحج، تنطلق القوافل يوميًا من " باب مكة " عقب مغيب الشمس.

وقـد أحصى بوركهارت بمدينة جدة[1]: ١٧ مقهى (حيث تشرب القهوة في الحجاز بإفراط) و٢١ بائعًا للسمن و١٨ منصة لبيع الفاكهة والخضار وثمانية باعة للتمور بأنواعها، وأربعة من صانعي الفطائر المحلاة، وخمسة بائعين للفول المدمس (الطعام المحبب لدى المصريين!) وخمسة باعة للمربات والسكاكر والحلوى بأنواعها، وحانوتان للحوم المشوية، و١٢ منصة لبيع الخبز (معظم العاملين بها من النساء!) و١١ حانوتًا لتجارة الحبوب، و٣١ حانوتًا لتبغ السوري والمصري، و١٨ حانوتًا لبيع العقاقير والشموع والعطور والبخور (جميعهم من الهنود) و١١ محلًا لبيع أنواع الملابس والأقمشة بالمزاد العلني، وثلاثة باعة للأدوات والأواني النحاسية، وللحلاقين

(1) OP. cit. PP. 39 - 45 .

أربعة دكاكين (هم في الوقت ذاته جراحون وأطباء!) وأربعة خياطين وخمسة صانعي نعال وصنادل، وثلاثة محال لأنواع الزيت الحلو والبلسم وماء الورد، وساعاتي تركي، وبائع واحد للنارجيلات وتستورد أكثرها من بغداد (حيث يحرص الأثرياء على عرض مجموعات كاملة من أجمل وأغلى النارجيلات في قاعات الاستقبال بمنازلهم، ثمن الواحدة يصل إلي مائة دولار!).

في المدينة المنورة:-

ومن مدينة مكة إلي المدينة المنورة استغرقت رحلة بوركهارت خمسة عشر يومًا، وكانت رحلة شاقة قطع خلالها نحو ٣٠٠ ميل، وأمضى بالمدينة المنورة ثلاثة أشهر قضى نصفها في الفراش عندما أصيب بحمى شديدة أشرف منها على الموت!.٠

وبسبب هذه الظروف، كتب بوركهارت معتذرًا بأن ملاحظاته عن المدينة المنورة غير كافية.. وبالرغم من ذلك فقد رسم خريطة للمدينة، وتحدث عن السور الجديد للمدينة وأحيائها وشوارعها، وعن سكانها وتجارتهم، ومساجد المدينة ومزاراتها، ووصف بإسهاب المسجد النبوي الشريف، وعن سدنة المسجد والقائمين بالخدمة فيه، وتحدث عن بساتينها وحاصلاتها، والأوضاع الإدارية للمدينة.. وفصل سوء الحالة الصحية بالمدينة وانتشار الأمراض وارتفاع نسبة الوفيات بها.٠! ويبدو أن بوركهارت قد أصيب بنوع من خيبة الأمل بالمقارنة مع مكة المكرمة!

وحول انطباعاته عن المدينة المنورة يقول الرحالة السويسري جون لويس بوركهات[1]: ترجلت القافلة في إحدى ضواحي المدينة حيث أودع المسافرون أحمالهم، وبدأوا على الفور في البحث عن أماكن للإقامة بمساعدة مطوف محترف، وقد أمكنني الحصول – بعد قدر من المشقة – على شقة لا بأس بها بشارع السوق الرئيسي للمدينة، تبعد عن الجامع الكبير بنحو خمسين ياردة.

نقلت أمتعتي إلي مقر إقامتي، ثم طلبت من الدليل زيارة المسجد النبوي الشريف.. ومثلما في مكة، فالزائر فور وصوله إلي المدينة المنورة، لابد أن يؤدي هذا الفرض، قبل أن يشرع في إنجاز شئونه الخاصة.. المناسك هنا أبسط وأكثر يسرًا مما في مكة، وقد انتهيت منها في نحو ربع الساعة! والآن أصبحت حرًا في أن أعود لمسكني وأرتب بعض أعمالي المنزلية، وبمساعدة الدليل اشتريت كل مؤونتي الضرورية بغير جهد ".

---

(١) عرفة عبده علي: الرحالة السويسري بوركهارت في مكة المكرمة.. مصدر سابق.
راجع أيضًا
– حسين أمين: نظرة بعض الرحالة المسلمين وبعض الرحالة الغربيين عند زيارتهم لمنطقة الحجاز، مصادر تاريخ الجزيرة العربية، جامعة الملك سعود، ١٣٩٩ هـ/ ١٩٧٩، الجزء الثاني، ص ٣٩٩ – ٤٠٠.

ويضيف بوركهارت: " أتخذ طوسون باشا، حاكم المدينة، إجراءات أمنية رادعة لحماية طريق القوافل والمسافرين.. الطحين والزبد صنفان أساسيان في المطبخ الشرقي. بعد ثلاثة أيام أمكنني الحصول على فحم حجري، وبقيت الحاجة ملحة في الحصول على – لباد – في هذا الفصل البارد من السنة، وقد علمت أن " يحيي أفندي " طبيب طوسون باشا، موجود بالمدينة، وكان في يوليو الماضي قد دفع عني فاتورة الحساب في جدة ".

صديقي " يحيي أفندي " يضع خبرته وعلاقاته في خدمتي، وقد حدثني في إحدى زياراته عن رغبته في أن يرى تجهيزاتي الطبية الصغيرة، والتي لم ألمسها مطلقًا!.. وهي عبارة عن مطهر للجروح ومضاد للقيء وشراب مسهل، وكذلك بنصف جنيه مقدار من الكينا الجيدة، استخدمتها فقط خلال إقامتي في جدة ومكة.. عدد من أفراد بلاط الباشا أصابتهم الحمى، وطوسون باشا ذاته غير مكترث بالصحة العامة.

أفكر كثيرًا في مصر، وأتمنى أن أصلها خلال شهرين.. أحيانًا يتملكني اليأس، وأفقد كل أمل في العودة إلي مصر، وأعد نفسي للموت هنا.

خلال رحلتي الحجازية، رغبت في أن يقضي علي إزاء تصرف أحمق.. لا الكتب أو أية جمعية يمكنها أن تصرف عقلي عن التأمل ليس في حوزتي سوى طبعة جيب من كتاب ملتون، أهداه لي كابتن " بواج " في جدة، والذي كان رقيقًا عندما أتاح لي الإطلاع على خزانة كتبه.

صاحبة المنزل، عجوز واهنة من أصل مصري، تقيم بالطابق الأعلى، وقد تعودت أن تتحدث معي نحو نصف الساعة كل مساء.

ملاحظاتي عن المدينة ليست كافية ولو كانت صحتي على ما يرام لأضفت الكثير، فمعرفة الأوروبيين بها لا تتعدى سوى مجموعة أخبار بعضها صحيح.

وقد رسمت خريطة المدينة، خلال الأيام الأولى من إقامتي بها، وتمكنت من تصحيح خطوطها، ولكن لم يكن لدي فراغ كي أقتفي أثر كل التفاصيل، مثلما فعلت في خريطة مكة!.

إلي ينبع :-

وفي حالة من الضعف، حيث لم يكن قد برأ من مرضه تمامًا، توجه بوركهارت إلي " ينبع " وقد تحطمت آماله في اكتشاف المناطق المجهولة من الصحراء مثل " الحجر " ويبدو أن وباءً كان يضرب المنطقة، فوهنت عزيمته، فلم يتطلع إلا للوصول غلي مكان يستعيد فيه صحته، بعد أن عاودته الحمى، وبعد ثلاثة أيام وصل إلي " ينبع " وقد وصف ما مر به من منازل الطريق كالعقيق والخيف في الصفراء وبدر[1] وكان وصوله إلي ينبع في ٢٧ إبريل ١٨١٥، وصدم بتفشي

---

(١) جون لويس بوركهارت: رحلات في شبه جزيرة العرب.. ص ٣٧٥ - ٣٨٣.

مرض الطاعون في البلدة ومشاهد الموتى في كل مكان، غير أنه وصف سور ينبع وميناءها وخليط سكانها ومعاملاتهم، واشار إلي مصادر المياه، والحاصلات الزراعية، والأوضاع الإدارية.. وغادر ينبع في ١٥ مايو ١٨١٥ في سفينة مكشوفة (سنبوك) نزل منها في " رأس محمد" ووصف رحلته البحرية ثم رحلته البرية إلي الطور والسويس ثم إلي القاهرة التي بلغها في نهاية يونيو، وسجل ملاحظاته ومشاهداته عن المواضع التي مر بها خاصة فيما يتعلق بطرق الحج.

بوركهارت معتمراً :-

وقد روى لنا بوركهارت انطباعاته عن مناسك العمرة فقال[١]:

" بعد الانتهاء من طقوس قص الشعر، يكون الزائر متأهبًا للإحرام، فيطرح عنه ملابسه المعتادة وإذا شاء فليبدأ من هنا – بالقرب من المروة – وعلى الفور في أداء مناسك العمرة، في هذا الحال يرتدي زي الإحرام، ويصلي ركعتين وربما في حالات نادرة خلال مناسك الطواف والسعي، يمكن للزائر الذي حل به الإجهاد والرهق، أن يحمله شخص أو أكثر أو يحمل على محفة، بعد ذلك ن يحق للزائر أن يرتدي ملابسه العادية، لكن عليه في أي يوم لاحق (التعجيل أفضل) أن يستأنف الإحرام، بالطريقة نفسها التي لاحظتها في الانطباع الأول، يتوجه غلي العمرة، من مكان يبعد عن مكة نحو ساعة ونصف الساعة، فيؤدي ركعتين في مصلى صغير وطول الطريق يظل يردد أذكارًا دينية تسمى " التلبية ".. وتبدأ بهذه الكلمات " لبيك، اللهم لبيك " ويجب عليه أن يتم الطواف والسعي مرة أخرى، وأن يحلق رأسه بالكامل، ثم ينضو عنه زي الإحرام مختتمًا هذه الشعائر.

الزيارة للعمرة فريضة شرعية واجبة[٢]، ولكن بعض الناس – بالرغم من ذلك – لا يلتزمون بها.. في اليوم الثالث من وصولي إلي المدينة المنورة، رغبت في المشي – عند منتصف الليل – أنسب الأوقات خلال فصل الصيف.

في موسم الحج، تعاد كل هذه المناسك عقب العودة من وادي منى، وبعد أخذ قسط من الراحة في مكة المكرمة، لابد من الطواف بالكعبة، فالقيام بهاذ النسك في غاية الأهمية، بعض الغرباء المقيمين في مكة المكرمة يؤدون هذا المنسك مرتين يوميًا في المساء وقبل بزوغ النهار.

وفي العقيدة الإسلامية أن " هاجر " أم إسماعيل تاهت في الصحراء فوضعته على الأرض، عندما لم تقو أن ترى ابنها الرضيع يعاني سكرات الموت عطشًا.. حينئذ، ظهر الملاك " جبريل " ضاربًا الأرض بقدميه، ليتفجر على الفور ينبوع زمزم: بئرًا دائمًا.. وإحياء لذكرى تيه هاجر ومحنتها التي اضطرتها للسير سبع مرات بين الصفا والمروة، شرعت منسكًا من مناسك الحج.

---

(١) عرفة عبده علي: الرحالة بوركهارت.. مصدر سابق.

(٢) تجدر الاشارة الي ان العمرة هي سنه مندوبة وليست فريضة واجبة كما ذكر بوركهارت.

ويقـول " الأزرقي " في كتابه " اخبار مكة ": إن عرب الجاهلية كانوا يتمون احتفالات الحج بالوقوف على عرفات، لكن عندما أهلك الله " أبرهة " الحبشي واتباعه في حادثة " الفيل " عظمت جميع العرب قريشًا وأهل مكة واعتبروهم أهل الله، قاتل عنهم وكفاهم عدوهم وقالت قريش: نحن أهل الله وبنو إبراهيم خليل الله، وزعموا أن دينهم خير الأديان وابتدعوا في دينهم وتركوا الوقوف بعرفة والإفاضة، وهم يقرون أنها من مشاعر الحج، ولكنها لسائر العرب وليست لقريش.

وأنـزل الله تعالى قوله: " فإذا أفضتم من عرفات فاذكروا الله عند المشعر الحرام واذكروه كما هداكم وإن كنتم من قبله لمن الضالين ثم أفيضوا من حيث افاض الناس " البقرة ١٩٨/ ١٩٩

ويشيـر " الأزرقي " إلي أنهم كانوا يطوفون بالبيت سبعًا. والزيارة للعمرة، كانت كذلك تقليدًا قديمًا.

ولقـد حل بي الإرهاق عقب أداء مناسك الطواف والسعي، حلقت جزءًا من شعر رأسي وظللت جالسًا بمحل الحلاقة، ولا أعرف مكانًا آخر للراحة.

حـاولـت الاستقصاء عن مسكن مناسب لكني علمت أن المدينة قد امتلأت تمامًا بالحجيج، كما هو متوقع فإنه شغلوا جميع الأماكن المتاحة للإقامة.. مضى بعض الوقت وأمكنني أن أعثر برجل أبدى استعداده لمنحي غرفة مفروشة، بالفعل أقمت بها، ولكـن ليس لي خادم، مقيد اسمه مع المالك، ورب البيت وأسرته المكونة من زوجة وولدين يعتزلون في فناء صغير مفتوح بجانب غرفتي، وكان المالك من فقراء المدينة المنورة وقد احترف الطواف بالحجاج، ومع ذلك فمستوى معيشته أقل كثيرًا من مستوى فقراء مكة المكرمة!.. وقد كلفتني ١٥ قرشًا في اليوم الواحد! واكتشفت بعد افتراقنا، أن عدة أشياء صغيرة قد سرقت من حقيبة سفري.

ليـس هذا كل شيء، في يوم العيد دعاني إلي – عشاء فاخر – بصحبة نصف دستة من أصدقائه في غرفتي، وفي الصباح التالي قدم لي فاتورة حساب شاملة مصروفات كرم ضيافته!

خـلال شهر رمضان، ألف مصباح تضيء الجامع الكبير، تجعل من الليل أمانًا لكل الغرباء في مكة.. والليل بعد انقضاء رمضان لا يقدم تلك الاستعراضات البراقة والاحتفالات المرحة التي نراها في بلاد الشرق الأخرى.

وكمـا هو معتاد في مناسبة هذا العيد قمت بزيارة إلي القاضي، وفي اليوم الثالث، شرعت في الرحيل إلي جدة، واستكملت كل مستلزمات رحلتي، خلال طريقي إلي المنطقة الساحلية، كنت أشبه بأسير في الصحراء.

أمتـدت إقامتي بجدة إلي ثلاثة أسابيع بالرغم من انتشار بعض الأمراض المعدية وعدم توافر الأمن على الإطلاق.

فـي منتصف أكتوبر، عدت إلي مكة المكرمة، بصحبة غلام اشتريته! وهذا العبد كان ضمن قافلة قادم من " سواكن ".. وأخذت معي حمولة جمل من المؤن، في معظمها: طين وبسكويت وزبد، وهي تعادل في جدة ثلث ثمنها في مكة.

فـور وصولـي، استأجرت شقة مناسبة بأحد أحياء المدينة يسمى " حارة المسفلة " واستمتع هنا بمشهد عدة أشجار ضخمة تجتمع أمام نوافذ شقتي.. في هذا المكان استمتع باستقلال وحرية أحسد عليهما! لا أعرف سوى القاضي وحاشيته.. والباشا وبلاطه بقصر الطائف منذ موسم الحج، أتردد فقط على اجتماع من ذلك النوع الذي يسمح لي بالامتزاج بحشد من الحجاج الأجانب القادمين من كل بلاد العالم، وإذا سئلت عن جنسيتي (وهذا أمر نادر الحدوث في مكان كهذا مليء دائمًا بالغرباء) أقدم نفسي وبتواضع كعضو الفيلق المملوكي بمصر، ووجدت من الأفضل ان تجنب هؤلاء الأشخاص الذين يعرفون جيدًا هذا البلد، وربما يمكنهم ملاحظة واكتشاف الأكذوبة، وانتحال شخصية مزيفة أمر شائع بين معظم الرحالة في الشرق، حيث كل واحد منهم يتظاهر بالفقر ليتجنب استغلاله، خاصة في مكة.

خـلال كل رحلاتي بالشرق لم استمتع على الإطلاق وبكل معنى الكلمة، مثلما استمتعت بمكة.. وبالرغم من حالتي الصحية التي لم تسمح لي بالإفادة من كل المزايا التي أتيحت لي، وأود أن أعرض وصفًا للمدينة وسكانها، ومناسك الحج.. ثم أستأنف سرد تفاصيل رحلتي.

وصف مكة[(١)]:-

" المشرفة ".. " البلد الأمين ".. الفيروز أبادي: مؤلف " القاموس المحيط " الشهير، قد ألف بحثًا عن الأسماء المختلفة لمكة.. وتقع هذه المدينة بواد رملي اتجاهه الأساسي من الشمال علي الجنوب، لكنه يحيد ناحية المشال الغربي، عند أقصى جنوب المدينة، يتراوح عرض هذا الوادي ما بين مائة وسبعمائة خطوة، والجزء الرئيسي من المدينة يقع في العرض الأكبر للوادي. أما الجزء الأضيق فعبارة عن صفوف من البيوت والمتاجر المتفرقة، والمدينة نفسها تغطي مساحة نحو

---

(١) عرفة عبده علي: المصدر السابق.. وقد استغرق وصف بوركهارت لمدينة مكة وتاريخها وطبوغرافيتها ومبانيها ومعالمها وأحوال سكانها ومصادر المياه.. نحو نصف الكتاب، راجـع أيضـًا

Burckhardt, J.L.: OP.cit. , PP. 47 - 259

راجع أيضًا

- حسين أيمن: مصدر سابق، ص ٣٩٣ - ٣٩٧.

١٥٠٠ خطوة طولًا، من المسمى " الشبيكة " إلي أقصى " المعلاة "، غير أن مساحة الأراضي الواقعة تحت سيطرة مكة، من الحي المسمى جرول حيث مدخل جدة إلي الحي المسمى " المعابدة " على طريق الطائف، تبلغ ٣٥٠٠ خطوة، ويتراوح ارتفاع الجبال المحيطة بهذا الوادي ما بين ٢٠٠ و٥٠٠ قدم.

قبل تشييد المدينة كان الوادي يلقب بوادي مكة أو بكة، كما سماها العرب، وتقع السلسلة الرئيسية على الجانب الشرقي للمدينة، وينحدر الوادي جنوبًا حيث الحي المسمى " المسفلة ".. (المكان المنخفض) وتنسال مياه الأمطار نحو جنوب المسفلة في الوادي المفتوح المعروف بوادي " الطرفين ".

بعض منازل المدينة مشيدة على جوانب الجبال، خاصة السلسلة الشرقية، حيث المساكن البدائية لقريش، ويبدو أن المدينة القديمة كانت هناك.

مكة مدينة لطيفة التصميم، شوارعها – بصفة عامة – أعرض من شوارع المدن الشرقية، منازلها شامخة مبنية من الأحجار، النوافذ العديدة المطلة على الشارع، توحي بانطباع أكثر حيوية من مثيلاتها في مصر ووسوريا، وقليل من النوافذ يتجه إلي الخارج (مشربيات)، ومثل مدينة جدة، فإن مكة تحوي عددًا من المنازل ذات الثلاثة طوابق، قليل منها مطلي باللون الأبيض. في جدة، يفضل اللون الرمادي أكثر من اللون الأبيض المتوهج الذي يؤذي العين.

في معظم مدن الهلال الخصيب ضيق الشوارع يساعد على تلطيف الحرارة، وفي البلاد التي لا تستخدم فيها العربات ذات العجلات، تعد المسافة الكافية لعرض الشارع هي التي تسمح بمرور جملين في آن واحد، أما في مكة فكان من الضروري أن يترك الممر واسعًا، حتى يمكن أن يستوعب حشود الزوار من الحجاج والمسافرين.٠٠ المدينة المفتوحة من كل الجهات والجبال المجاورة إذا تم تحصينها جيدًا، يمكنها أن تشكل حاجزًا منيعًا لا يستهان به ضد الأعداء، وفي الماضي، كان للمدينة ثلاثة أبواب لحمايتها، أحدها شيد في الجانب الآخر للوادي عند شارع المعلاة، وآخر عند حي الشبيكة، والثالث عند الوادي المفتوح تجاه حي المسفلة، وقد تم ترميم هذه الأبواب في عامي ٨١٦ و٨٢٨ هـ، وقد ظلت بعض أطلالها قائمة لنحو مائة عام.

المكان العام الوحيد في قلب المدينة، هو ذلك الميدان الرحب للجامع الكبير، لا اشجار أو حدائق تسر الناظرين.. ولا حياة للمشهد العام إلا في موسم الحج، الحوانيت المنتشرة بكل حي تكتظ بالمعروضات، باستثناء أربعة أو خمسة منازل ضخمة ملك لشريف مكة ومدرستين (تحولتا الآن إلي محال للغلال) والجامع، وبعض المباني والمدارس الملحقة به، فأن مكة لا تعرف مطلقًا أي نوع من المنشآت العامة، ويمكننا اعتبار مكة، أقل من أي مدينة شرقية أخرى في هذا الشأن، حيث لا يمكن أن ترى تلك المعالم التي تشتهر بها مدن الشرق.. مثل الخانات اللازمة لراحة

المسافرين، أو وكالات لتخزين البضائع، أو قصور عظيمة أو مساجد، وقد يمكننا أن نرجع هذا النقص الشديد في المباني العامة إلي هذا التبجيل الخاص الذي يكنه السكان نحو الكعبة.

وطـراز البناء هو نفسه المستخدم في جدة بإضافة نوافذ بارزة تجاه الشارع، متقنة الصنع، كثيرة النقوش والزخارف، أمامها ستائر خفيفة من الخوص، تمنع الذباب والهوام بينما تسمح بمرور هواء، نقي متجدد. ولكل منزل شرفة خاصة به، من الحجر الجيري، وتشيد بميل خفيف يمكن مياه الأمطار من أن تجري عبر – ميزاب – إلي الشارع، والأمطار لا تتساقط بانتظام مطلقًا، وبالتالي لا يمكن أن تجمع في خزانات كما يفعلون في سوريا.

هـذه الشرفات تحاط بأسوار خفيفة، ترتفع إلي مستوى الصدر، ولا يصح للرجل أن يظهر من الشرفة، وإلا اتهم بالنظر علي النساء في المنازل المجاورة، فكثير من النساء يقضين معظم أوقاتهن بالشرفات، وبها يقمن أعمالهن المنزلية، كتجفيف الغلال ونشر الملابس القطنية.

وعلـى العكس، فالأوروبيون في حلب يرتادون الشرفات في حرية تامة، وبها يقضون أمسيات الصيف، وعادة ما يتناولون بها عشاءهم ويسمرون شطرًا من الليل، وكل منازل المكاوية (أهل مكة) باستثناء منازل الحاكم والأثرياء تشيد أساسًا لاستقبال النزلاء وتقسم إلي عدة شقق منفصلة تتكون كل منها من حجرة جلوس ومطبخ صغير، وبسبب تناقص أعداد الحجيج بشكل ملحوظ وجد كثير من المكاوية أنفسهم لا ينتفعون بعائد إيجار مساكنهم، ولا ما يفي بمصروفات الترميم والإصلاح، وتداعي كثير من المساكن في أرجاء المدينة.. منزلًا واحدًا شيد حديثًا يملكه الشريف، رأيته بحي الشبيكة، علمت أن تكلفتـه بلغت ١٥٠ صرة، بينما منزل كهذا لا تتعدى تكاليف بنائه في القاهرة ٦٠ صرة.

الشـوارع كلها غير مرصوفة، وفي فصل الصيف، الرمال والأتربة تسبب إزعاجًا، وتتحول إلي طين أيام المطار يشكل عائقًا للسير، ففي داخل المدينة، لا يمكن تصريف المياه بل تظل هكذا حتى تجف.

ويمكـن تفسير سبب عدم وجود مبان أثرية في مكة، بتساقط الأمطار المدمرة بغزارة، ولفترة أقصر من البلاد الاستوائية الأخرى والمسجد نفسه، شهد إصلاحات عديدة في عهود متعاقبة لبعض السلاطين، كما يمكننا القول بأن البناء الحالي هو بناء حديث وبالنسبة للبيوت، فلا أعتقد بوجود بيت قد مضى عليه أكثر من أربعة قرون، وبالتالي لا يمكن لزائر هذا المكان أن يشاهد أبنية عربية جميلة ومثيرة كالتي تستحوذ على الإعجاب في سوريا ومصر والمغرب وإسبانيا.٠٠بل في هذا المجال، تتفوق أصغر المناطق الريفية بسوريا ومصر على مدينة مكة الشهيرة، وأعتقد كذلك أن المدن اليمنية هي أيضًا فقيرة نسبيًا فيما تملكه من أطلال وآثار معمارية.

أيضـًا، من الملاحظ انعدام الضوابط الأمنية المعتادة في المدن الشرقية، فالشوارع مظلمة تمامًا بالليل ولا توجد مصابيح من أي نوع وأحياؤها المختلفة بلا بوابات فتتباين تمامًا عن معظم مدن

الشرق، حيث يغلق كل حي ببوابة عقب صلاة العشاء، ويمكن لمرء أن يجوب شوارع مكة في أي وقت من الليل، دون مراعاة لأمن التجار والعائلات. القمامة وكناسة الديار يلقي بها إلي الطرقات، حيث تتحول إلي تراب أو طين، ويبدو أنها عادة قديمة، إذ لم ألحظ أية كمائن على مشارف المدينة، كالتي نراها عادة بقرب المدن التركية الكبيرة.

وبالنسبة للماء، أهم زاد حيوي، ومكة ليست أفضل حالًا من جدة، فلا يوجد إلا قليل جدًا من الخزانات لتجميع مياه الأمطار، ومياه الآبار نادرة ومالحة للغاية، ولا تستخدم إلا في الطهي، فقط في موسم الحج، ولا يشرب منها إلا افقر الحجاج، بئر "زمزم" بالجامع الكبير، تكفي لتزويد المدينة بأكملها.

وأفضل مياه تأتي إلي مكة خلال مجرى مائي صغير، بالقرب من عرفات، ويبعد نحو ست أو سبع ساعات، وهذا المجرى المائي مغطى بطبقة كثيفة من الأحجار والأسمنت، وقد علمت أنه لم ينظف من الرواسب خلال العشرين عامًا الماضية.

ونتيجة لهذا، فأن معظم المياه القادمة تتسرب خلال شقوق وما يتبقى يمضي ببطء بين الرواسب الطينية المتراكمة، ولا يفي بحاجة السكان في الأيام العادية، وتكاد المياه العذبة تنعدم في موسم الحج.. وقربة صغيرة من الماء تباع بشلن إنجليزي، وهو ثمن باهظ لمعظم العرب.

مكانان بداخل مكة، ينساب فيهما الماء القادم من خلال المجري المذكور، عبر قنوات صغيرة، يحرسها بعض العبيد التابعين للشريف، حيث يقومون بتحصيل ضريبة ممن يأتي ليملأ قربته، وفي موسم الحج، يحيط بهذه القنوات نهارًا وليلًا جموع تحتشد وتتشاجر فيما بينهما من أجل الحصول على قدر من الماء.

وقد صرف " قايتباي " سلطان مصر، أموالًا طائلة من أجل إصلاح الممر المائي، كما خصص " قنصوة الغوري " آخر الملوك الشراكسة بمصر مبلغًا للصرف عليها عام ٩١٦ هـ.

وكثيرًا ما يطلب المتسولون والحجاج المرضى شربة من الماء العذب من المارين بشوارع مكة، أو حيث يقفون بالقرب من منصات المياه التي تراها في كل زاوية، ويمكن الحصول على ملء إناء من الماء بارة واحدة في الأيام العادية، أما في موسم الحج فيرتفع ثمنها غلي بارتين.



تاميزييه .. في الحجاز..!

كان " جون فلبي -J.Philby " أول من لفت الأنظار إلي رحلة الفرنسي "موريس تاميزييه - M.Tamisier " وزميله " إدوارد كمبس ".. وأشار بأنهما أول أوروبيان يتوغلان في بلاد عسير وتهامه(١).

في نهاية عام ١٨٣٣، كان تاميزييه يعيش في القاهرة، أتم الحادية والعشرين من عمره، يتطلع إلي ما يهيء له الوسائل للرحيل إلي جزيرة العرب، وحانت الفرصة عندما اتصل بصديق فرنسي " شيدفو " اختير ليرأس الفريق الطبي المرافق للحملة العسكرية - قوامها ١٨ ألف جندي - التي أمر بإعدادها " محمد علي باشا " بقيادة إبن شقيقته " أحمد باشا " لإخضاع بلاد عسير، التي ثارت ضد الحكم التركي بزعامة الأمير علي بن مجثل..

كان رئيس البعثة الطبية الفرنسي بحاجة إلي كاتب، فتحققت لهذا الشاب المغامر أمنيته لإنجاز تلك الرحلة التي استغرقت نحو تسعة شهور، منذ وصوله إلي جدة، في العاشر من يناير سنة ١٨٣٤ حتى نهاية شهر سبتمبر من نفس العام، عندما عقد اتفاق للصلح بين أحمد باشا وأمير عسير(٢).

غير أن حب المغامرة في نفس الفتى، ورغبته العارمة في ارتياد أرض الله الواسعة.. جعلته يعد العدة لرحلة أخرى - فورية - فخلال إقامته بجدة، التقى بشاب آخر من قومه " إدوارد كمبس " الذي كان هو أيضًا محبًا للمغامرة، فتوحدت الغايات، وأبحرا من جدة في أوائل عام ١٨٣٥ حتى بلغا " القنفذة " ثم سارا برًا إلي " جازان " واجتازا: اللحية، الحديدة، بيت الفقيه، زبيد.. حتى بلغا " المخا " فأبحرا إلي " جزيرة دهلك " ومنها إلي الساحل الغربي للبحر الأحمر،

---

(١) Philly, H. St. J. Arabian High lands, London, 1952, PP. 3 , 28 .

(٢) حمد الجاسر: رحالة غربيون في بلادنا، دار اليمامة للبحث والترجمة والنشر، ١٤١٧ هـ ص ٧٦.

ثم سارا برًا متوغلين في بلاد الحبشة، التي أقاما بها نحو عامين.. ثم عادا إلي فرنسا.. ودونا يوميات رحلتهما في كتاب عنوانه " رحلة إلي الحبشة " في خمسة أجزاء، نالا عليه جائزة " الجمعية الجغرافية الفرنسية ".

وقـد سجل تاميزييه يوميات رحلته في الحجاز في كتابه " رحلة في بلاد العـرب " فغطت فصوله رحلة شاقة وممتعة لشاب فرنسي متعدد المواهب، - كما يقول أ.د. " محمد بن عبد الله آل زلفة " - يتطلع إلي اكتشاف عالم الشرق على طريقته، وهو مع حداثة سنه رحالة مكتشف من الطراز الأول[١]..

فـي اليوم الأول من يومياته: ٩ ديسمبر ١٨٣٣، يقول تاميزييه: " خلال هذه الفترة، يقوم الحجاج القادمون من سواحـل شمـال أفـريقيـا والجزر المنتشرة على سواحـل البحر المتوسط وسوريا والأناضول، بالتوجه إلي القاهرة، للإنضمام إلي قافلة الحج المصري وهي في طريقها إلي مدينة مكة، ومن المهام الرئيسية حمل " الكسوة السوداء " التي ظل الباشا يعهد بها إلي أمير الحج لإيصالها إلي المدينة المقدسة.٠٠ مع ملاحظة أن هذه القافلة كانت فريدة من نوعها، حيث ضمت أوروبيين، أي أنها مكونة من " مسيحيين "!.. وقد كان مجرد وجودهم كافيًا لإغضاب الروح العقائدية وإثارة مشاعر هذا الجمع، ومع ذلك، فإذا كنا نحن " الكفرة " ليست لدينا رسالة دينية، فما زالت لدينا الروح الخيرة، فقد كان أغلب البعثة أطباء، مهمتهم مراقبة الحالة الصحيـة لقافلـة الحجيـج[٢]!

وقـد تضمنت يوميات تاميزييه، وصفًا رائعًا لهذا الخليط من الأوروبيين العشرين - أعضاء الفريق الطبي - فرنسيين وإنجليز وإيطاليين ومالطيين وكورسيكيين ويونان!.. كانت هذه المجموعة تدعو " أحمد باشا " وحاشيته للعشاء في خيامها، فترتـب الموائد والمقاعد والصحاف، فتثير دهشة العرب، ولا تنقصهم الوسائل للترفيه عن الباشا وحاشيته، فهذا صيدلي إيطالي يدهشهم بألعابه السحرية.. وآخر يعزف لهم مقطوعات كلاسيكية على بيانو مستورد من الهند اشتراه الأطباء الفرنسيون!.. وتكتمـل البهجة العامة بالعزف والرقص على الماندولين.. ومن البدهـي، أن أبناء جزيـرة العـرب لم يكـونوا ليشاركوهم هذه الاحتفاليات، وأن حضور زعمائهم مآدب " الكفار " كان مبعث استيائهـم!..

---

(١) موريس تاميزييه: رحلة في بلاد العرب، ترجمة وتعليق: د. محمد بن عبد الله آل زلفة، دار بلاد العرب للنشر والتوزيع، الرياض، ١٤٢١ هـ/ ٢٠٠١ م، ص ٩.
(٢) المصدر السابق، ص ١٣ - ١٤.

ولكن وكما تشير جاكلين بيرن " كيف كان لأولئك البدو أن يفهموا - تقدمية - الاتراك والمصريين - حيال التشدد الوهابي الذي كان يحرم الموسيقى[1]"!

وما كاد تاميزييه يبلغ " جدة " حتى تزيا بزي شرقي خشية أن يمس مشاعر العرب، وأرخى لحيته.. فقال: " كنت أحاول جهدي ألا أمس شعور أحد في آرائه، وكنت أحترم عادات الأهالي خاصة الدينية، وبفضل هذا السلوك، الذي لم أجد صعوبة في تطبيقه، جعلت نفسي في منجى من النفور والكراهية اللذين يكنهما سكان المدن المقدسة لكل من لا يدين بالإسلام[2]"!

في جدة:-

أقامت البعثة الطبية في جدة أكثر من أربعة شهور، بدءًا من العاشر من يناير ١٨٣٤ حتى السابع عشر من مايو، وما دونه عن مدينة جدة يعد من أدق وأصدق ما كتب عنها، بالإضافة إلي ما كتبه " بوركهارت ".. وتعرض لتاريخ نشأة جدة وما يحاك حول نشأتها من قصص وأساطير.. وقد استمع إلي أسطورة شائعة مفادها[3] أن " محمدًا أسس هذه البلدة، عرفانًا منه بجميل صيادين ألفياه وحيدًا في إحدى الجزر، فهرعا لنجدته "!.٠

عبر تاميزييه ورفاقه " باب اليمن ".. وقاموا بجولة سريعة في المدينة، وذكر أن سور المدينة الذي يحيط بها تتخلله قلاع، بعضها محصن بقطع من المدفعية، وعلى طرفي الميناء الرئيسي شيد حصنان قويان لمراقبة أمن الميناء وحمايته، كما شيد سور بامتداد رصيف الميناء شمالًا، تميزه أربع بوابات تطل على البحر الأحمر، لتكتمل منظومة تحصينات مدينة جدة، وتغلق هذه البوابات في مواقيت الصلاة.. وشاهد مستودع للذخيرة " يقوم على حراسته جندي واحد "!.. والمنطقة المحيطة تكتظ بمخيمات أشبه بالأكواخ، شيدت من الأخشاب وجلود الابل.. وأشار بأن عدد مساجد مدينة جدة خمسة: مسجد السلطان حسن، مسجد الشافعية (عكاش) مسجد عكات، مسجد للحنفية ثم مسجد محمد.. و" توجد بعض المساجد الأقل أهمية تحولت بأمر من محمد علي باشا إلي مستودعات للذخيرة[4]"!

---

(١) جاكلين بيرن: اكتشاف جزيرة العرب.. مصدر سابق، ص ٢٥٣.

(٢) المصدر السابق: ص ٢٥٥.. وكان تاميزييه قد أطلق لحيته وتزيا بالزي الشرقي، مخالفًا زملائه الأوروبيين، واحترم العادات والتقاليد المحلية حتى أطلق عليه: شيخ فرنجي - **Cheikh Frangi**.

(٣) أورد تاميزييه في يومياته تفاصيل الأسطورة الشعبية عن نشأة مدينة جدة، المرتبطة ببداية الدعوة الإسلامية وظروف إضطهاد محمد - صلى الله عليه وسلم - في مكة، وليس لهذه الأسطورة مرجعية تاريخية في المصادر التي تتناول تاريخ مدينة جدة!.. راجع قصة صائدي الأسماك: موريس تاميزييه.. مصدر سابق، ص ٧٢ - ٧٦.

(٤) المصدر السابق: ص ٨٤.

وتحدث عن مدارس تعليم الأطفال (الكتاتيب) تماثل تلك التي نشاهدها في الجزائر والقاهرة واستانبول.

ويمتد السوق الكبير بطول أحد الشوارع.. واسع ومستقيم إلي حد كبير، ويخصص كل جزء من السوق لعرض نوع معين من المنتجات " فنشعر أن هناك قدر من الترتيب والنظام الذي يندر وجوده في أوروبا "!.. ويعرض التجار عينات من بضائعهم، التي تتكدس في مخزن خلفي يتصل بالحانوت عبر ممر أو مدخل منخفض وضيق، ويكاد المشهد الذي يصفه تاميزييه يتطابق مع مشهد " سوق الغورية " الشهير بالقاهرة.. وكما رسمه عدد من الفنانين الأوروبيين[١]، حيث الحوانيت تمتد على الجانبين تظللها حصر، تحفظ الناس والبضائع من لهب الشمس، بينما جلس التجار على طنافس، وقد شغل بعضهم بتدخين " الشوبك "!

وقد شاهد تاميزييه ورفاقه بامتداد السوق شمالًا: المخابز والمطاعم التي تقدم الوجبات الجاهزة، ومحال بيع السلاح والأواني الخزفية والزجاجية.. ولاحظ كثرة المقاهي التي تمد أمامها مظلات مغطاة بالحصير وجلود الأبل، وتعج دائمًا بالمواطنين والوافدين.. والمشروب المفضل " القهوة بدون سكر " وقد يضاف إليها قدر من القرفة والقرنفل والزنجبيل (تحويجة).. بعض المقاهي تزدان بنوع من الديكور عبارة عن قوارب شراعية صغيرة رائعة الصنع " ربما لتذكر دائمًا بأخطار ومعاناة حياة البحر "!.. هناك أيضًا صالونات الحلاقة التي تعد مراكز للتجمع و" نشر الأخبار[٢]"!

ويشير تاميزييه إلي أن مدينة جدة تشتمل عددًا من الميادين العامة، أشهرها " الميدان البحري " وفي جانب منه يرتفع مسجد عكاش، وفي رأي تاميزييه أن مدينة جدة " قد تم تخطيطها بطريقة أفضل كثيرًا من المدن المصرية، الطرقات والشوارع واسعة مخططة بشكل جيد، وتشتهر بنظافتها - خاصة خلال شهر رمضان - والمنازل شيدت من الأحجار البركانية الخفيفة، وتتكون عادة من طابقين وأحيانًا ثلاثة طوابق.. أبوابها ومداخلها تزدان بلمسات جمالية تدل على ذوق رفيع لم أشهده في أي مكان آخر في جزيرة العرب[٣]".. ويضيف تاميزييه أن السكان الأوائل لمدينة جدة كانوا من البدو الرحل الذين غادروا قبائلهم من أجل التفرغ لمهنة التجارة.. وسرعان

---

(١) حرص كثير من الفنانين الأوروبيين على أن يسجلوا بفرشاتهم في إبداعاتهم مشاهد الأسواق، كأبرز معالم الحياة الاجتماعية والاقتصادية في الشرق، خاصة في القاهرة، دمشق، الجزائر، القدس، فاس، استانبول.. أشهرهم: دافيد روبرتس، باسكال كوست، ماريلا، فردريك لويس، جيروم، فرومنتان، تيندال، ديلاكروا، دينيه.

(٢) موريس تاميزييه: ص ٨٩.

(٣) المصدر السابق: ص ٩٠ - ٩١.

ما شهدت المدينة حالة من الانتعاش التي جبت إليها جميع من يرغبون في حياة الاستقرار.. وبالتالي، فأن عرب جدة الذين عملوا بمجال التجارة، يتميزون بملامح وعادات سلوكية تختلف عن ملامح وعادات البدو!

كما تحدث تاميزييه عن " قبر حواء ".. وتعدد جنسيات سكان جدة واختلاف أزيائهم باختلاف طبقاتهم الاجتماعية، وظاهرة تعدد الزوجات، وحياة الحريم والزواج في سن مبكر.. وطقوس استقبال الضيوف، خاصة في منازل الأثرياء.

كما تحدث تاميزييه عن التحصينات الدفاعية للميناء، وحركة السفن التجارية وقوارب الصيد بالميناء.. وأفاض في تحليل التركيبة الشخصية لأحمد باشا وكبار ضباط الحملة.

وعند مغادرتهم جدة، شاهدوا سهلًا يمتد بطول الأفق إلي الشمال والجنوب، ومن ناحية الشرق سلسلة من الجبال تمتد بمحاذاة الساحل.. وإلي الغرب، بعض القرى الصغيرة المشيدة منازلها من الطين.. ويضيف تاميزييه " لقد أمضينا يومًا لعبور تلك الجبال التي هي عبارة عن عدد هائل من الروابي المستديرة المرتفعة تحف بها صخور جلمودية.٠٠ كنا نجد أنفسنا وحدنا وسط سماء تحيط بنا وصخور جلمودية تلفحها حرارة الشمس، لقد كان الإحساس بالوحدة مخيفًا، والبدو يرددون أغانيهم لكسر حاجز الصمت والجمود القاسي على أرواحنا.٠٠ لقد تشكلت شخصية البدوي بنظرته الشاملة، من خلال تعامله الذي لا ينقطع مع الصحراء ولياليها الهادئة التي تتألق بالنجوم، وساعات النهار المشعة بالضوء المتقدة بالحرارة، بواعث تثري مشاعره وخياله.. ويبدو أن روحًا شاعرية سامية في وجدان راعي الغنم أو حادي الإبل ربما لا تتوافر لدى أرباب المصارف والصناعة المعروفين الذين تدور باسمهم عجلة الحياة الحديثة في أوروبا "!

في مكة المكرمة:-

يثني تاميزييه على المعلومات التي كتبها "جون لويس بوركهارت[(١)]" عن الأماكن المقدسة، وتمتعه بدقة الملاحظة والرصد والبراعة في التحليل.. ويقول تاميزييه في وصف مكة: " المدينة المقدسة بالنسبة للمسلمين، تشغل جزءًا من واد تحيط به أرض قاحلة، تحميها قلعة وأثنين من الحصون الصغيرة، ولا يحيط بها أي سور دفاعي، فهي مفتوحة من جميع الجهات لدخول قوافل لا حصر لها كل عام، ويبلغ تعداد سكانها نحو عشرة آلاف، وبئر زمزم هو المصدر الوحيد للمياه الصالحة للشرب.. "

---

(١) المصدر السابق: ص ١٨٧ - راجع: جون لويس بوركهارت " رحلات في شبه جزيرة العرب " ترجمة: د. عبد العزيز بن صالح الهلابي، د. عبد الرحمن الشيخ، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٤١٣ هـ/ ١٩٩٢.

وتحـدث تاميزييــه عن " عين زبيدة " ومياهها التي تتدفق خلال قنـاة مشيـدة من الحجارة والأسمنت بطول عشرين ميلًا، وتزود سبعــة أسبلــة، التي خصص حارس لكل منها، بينما يقوم السقاءون بمهمة توصيــل المياه إلي سائر أنحاء مدينة مكة.

ويشيــر تاميزييه إلي أربعة أحواض ضخمة خصصت لقوافل الحج الكبرى.. الأول لقافلة الحج المصري، والثاني لركب الحج الدمشقي، والثالث لقافلة الحج القادمة من بغداد، والرابع لحجاج اليمن.. ويضيف بأن المهمة التي شغلته هي التحقق مما ورد في قصص وحكايات الرحالة الأوروبيين عن هذه المدينة المقدسة - خاصة فيما يتعلق بمظاهر ثرائها والمصابيح الذهبية التي تزين أروقة المسجد الحرام - وتقديم معلومات دقيقة عنهـا[1]!

ويعــرض في إيجاز لتاريخ الكعبة والروايات الخاصة بالحجر الأسود، ووصف موجز لداخل الكعبة، وذكر أن سقفها يستند على ثلاثة أعمدة من الفضة الخالصة، وتحدث عن كسوة الكعبة، وأبواب المسجد الحرام " الستـة عشــر "!.. وأروقته، وبئر زمزم.. وعرض لجوانب من حياة النبي - صلي الله عليه وسلم - في مكة.. وقال بأن مدينة مكة أصبحت مركزًا هامًا للتبادل التجاري، ومعظم أهلها يعملون بالتجارة " وقد كان محمد نفسه تاجرًا ".. ومخازنها تكتظ بالبضائع المستوردة، التي جلبتها القوافل القادمة من الهند وبلاد فارس والشام وأواسط أفريقيا.. ويقيم البدو سوقًا بمكة تعرض في الإبل والخيول والأغنام والدواجن.. أما أجود أنواع الفاكهة فتأتي من "الطائف ".

في الطريـق إلي الطائـف:-

وقـد مرت القافلة في طريقها إلي الطائف بواد خصيب يسمى " وادي فاطمة " حيث الواحات المزروعة تمثل مشهدًا رائعًا لعيون المسافرين الذين اعتادوا السكون الموحش للجبال والكثبان الرملية.

وأشــار تاميزييه إلي أن قافلتهم الصغيرة كانت تتكون من ثمانية وعشرين جملًا يقودها خمسة عشر رجـلًا من البدو " الذين تلقوا الأمر من شريف مكة بمرافقتنـا إلي الطائـف، كانوا في واقع الأمر من قبيلة قريش العريقة التي كانت في سالف الزمان تشتهر بالرقي في معاملاتها بالإضافة إلي ثرائها ونفوذها الواسع.. "

وقـد مرت القافلة بقرية " بحرة " في طريق مثقل بالرمال ثم قرية " حدة " التي تعتبر محطة توقف للقوافل القادمة من وإلي جدة.. وعبرت القافلة " وادي الليمون " إلي " ديرة الشيوخ ".. حيث يدعي بدو هذه القرية أنهم من سلالة الأشراف!.. ثم إلي قرية " مدرج ".. التي يتخذ

---

(١) موريس تاميزييه: مصدر سابق، ص ١٩٠.

شيخ قبيلة " عدوان " من قلعتها مسكنًا له.. ومنها إلى " بئر البرود " المشيدة بالأحجار، ومياهها العذبة، وحيث تقيم قبيلة " لحيان " الكثيرة العدد، المحاربة و" تمتلك آلافًا من رؤوس الغنم "!

وغير بعيد من هذه البئر، شاهد تاميزييه وقد تملكته الدهشة والفضول.. عددًا من الخرائب الأثرية التي ما زالت تضن بأسرارها.. " تدل على أن مدينة كبيرة كانت قائمة في هذا المكان فيما مضى، جدران من الأحجار الصوانية ودرج من الأحجار الضخمة وأحجار متناثرة لا تحمل أي نقوش أثرية.. كل ذلك يعطينا فكرة عن عظمة أولئك الذين شادوا تلك الأبنية، ولكن من هو الشعب الذي شادها ؟.. وإلى أي عصر يعود تاريخها " ؟!.. وقد حاول تاميزييه الاستفسار من البدو الذين يقطنون الأراضي المجاورة، فكان جوابهم: " لقد علم أجدادنا من أسلافهم أن هذه الأنقاض هي أقدم شيء في الدنى[(١)]"!

ثـم مرت القافلة في طريقها إلى الطائف، بمجموعة من المنازل وقريتين صغيرتين وحدائق فاكهة، عند سفح الجبل، وتقطن هذه المنطقة قبيلة " هذيل ".. وبعد مغادرتهم لوادي " الزيمة ".. وصلوا إلى منطقة " السيل " حيث بلاد عشيرة " عتيبة " الأكثر ثراء بين القبائل، وهم على تحالف حميم منذ قديم الزمان بقبيلة قريش، وتمتلك أعدادًا هائلة من الإبل والأغنام، كما تقوم باقتناء وتربية أعداد ضخمة من أكرم سلالات الخيـل النجـديـة.

وكـان تاميزييه حريصًا على وصف علاقات الألفة بين الإنسان والحيوان في هذه البلاد " فالجمل هنا يحظى بمعاملة الصديق الوفي، يتحدث إلى البدوي في الطريق عن أجداده، وينشد له أناشيد الحب، والجمل يصغى إليه بانتباه، ويشعر بتأثير هذه الألحان البدوية، فينسى ما فوق ظهره من حمل ثقيل، فيجتاز مسافات لا يصدقها عقل، يتناقل أخبارها الخلف عن السلف.. " وبعد سبعة أيام من الرحلة الشاقة وصلت القافلة إلى: الطائـف.

وفـي الطائف، أقامت القافلة مخيمًا تحت ظلال أشجار التين الوارفة.. وقال تاميزييه " ها هي إذن المدينة التي حازت شهرة بين بلاد الشرق، والتي أثنى عليها كثيرًا الرحالة العرب[(٢)]".. ويشير إلى أشجار النخيل وبساتين الفاكهة بأنواعها، والتي تعود ملكيتهـا لأشراف مكة وأعيانها، الذين يفضلون الإقامة بها خلال شهور الصيف الرهيبة.. ويصف مجتمع الطائف بالثراء ومناخها المعتدل جعل منها مكانًا لا مثيل له، وفي هذا المجتمع الثري " يلتقي ذوي المكانة الرفيعة بأصدقائهم في غرف الاستقبال، يتحدثون بجدية في الشئون السياسية، وأحيانًا يتطرقون إلى

---

(١) جاكلين بيرن: اكتشاف جزيرة العرب - مصدر سابق، ص ٢٥٨.

(٢) موريس تاميزييه: مصدر سابق، ص ٢٧٩.

الأمور الدينية، بينما تدور عليهم أقداح القهـوة والشاي، ويلهو البعض بلعب النرد والشطرنج دون أن يقامروا بالمـال "!

ويشيـر تاميزييه إلي أن للطائف تاريخها وأسطورتها في الإسلام[1].. فقد كان أهلها يعادون رسالة محمد أشد العداء.. إلي أن اضطروا للتسليم ووافقوا على تحطيم صنمهم " اللات ".. لينتصر الإله الواحد على الصنم المعبود العاجز.. وما لبثت القوة الدافعة للإسلام أن تأصلت في القلوب!

(١) جاكلين بيرن: مصدر سابق، ص ٢٦١.


ليون روش صاحب المهمة السرية فى مكة

ليــون روش ..
ومهمتـه السريـة فـي مكـة !

فـي زمـن الفروسيـة والروايات الرومانسية.. كانت قصة الفرنسـي " ليـون روش - Leon Roches " أحد أشهر الرحالة إلي جزيرة العـرب. • •

ولـد ليون روش في مدينة " جرينـوبـل - Grenoble " بفرنسا في ٢٧ سبتمبر سنة ١٨٠٩[١] تلقى علومه في مدرسة جرينوبل ثم في ليسيـه " طولون - Toulon ".. قامت خالته بتربيته عقب وفاة والدته، وشارك والده في الحملة الفرنسية على الجزائر سنة ١٨٣٠ م.

وعنـدمـا بلغ الثالثة والعشرين من عمره، ترك دراسة القانون، وانضم إلي والده في الجزائر، في ٣٠ يونيو سنة ١٨٣٢، كضابط في الحرس الوطني، وهناك وقع روش في غرام فتاة من الارستقراطية الجزائرية في الرابعة عشر من عمرها تدعـى " خديجـة " لكن أهلها رفضوا قبوله زوجًا باعتبـاره مسيحـي. • •

انصـرف روش إلي تعلم اللغة العربية على يد الشيخ " عبد الرازق بن بسيط " وهو من العائلات العريقة في مدينة الجزائر، وتعرف على بقايا العائلات الثرية ذات النفوذ.. مثل عائلتى " الداي " و" الأغوات " وشيوخ القبائل.. وخالط الجزائريين في المقاهي وجلسات المحاكم الشرعية[٢]!

ثـم أصبح روش مترجمًا في الإدارة الفرنسية في الجزائر في عهد المارشال " فاليـه - Vallee".. وشارك في مفاوضات الهدنة بين فرنسا والأمير " عبد القادر الجزائري " طبقًا

---

(١) Bidwell, R.: Travellers in Arabia , P. 123 .

(٢) د. بلقاسم سعد الله: رحلة ليون روش إلي الحجاز ١٨٤١ - ١٨٤٢، بحوث ندوة الرحلات إلي شبه الجزيرة العربية، دارة الملك عبد العزيز، الرياض، ١٤٢٤ هـ الجزء الأول، ص ٢٥٠ راجع أيضًا

- Roches, Leon: Trente Deux ans a travers l'Islam (1832-1864) 2 vols, Paris , 1887 , Vol. 2 Mission a la Mecque , le marechal Bugeaud en Afrique .

لمعاهدة " التافنـة[1]" التي وقعت بين الأمير والجنرال توماس بوجو - Th. Bugeaud في ٣٠ مايو سنة ١٨٣٧، والتي بمقتضاها اعترفت فرنسا للأمير عبد القادر بالسيادة على الجزائر عدا المدن الساحلية!

خـلال المفاوضات، نمت لدى روش مشاعر إعجاب شديد بالزعيم الوطني!.. ولازمه في حروبه الداخلية وفي تنقلاته واجتماعاته، وأصبح من خاصة كتابه!.. وما لبث روش أن اعتنق الإسلام وتسمى "عمر بن عبد الله".. من أجل أن "يجمع بين الجزائر المسلمة وفرنسا المسيحية[2]"!

وكلـف الأمير بعض من خاصته لتلقينه تعاليم الدين الإسـلامـي، وزوجوه من مسلمـة، وأصبح روش مساعدًا للأمير ومن أقرب المقربيـن إليه!.. حتى أن والده توجـه يومًا إلي معسكر الأمير، وتوسل إلي ابنه - روش - ليعود معـه، ولكنه رفض تمامًا.. أثر ذلك في نفس الأمير تأثيرًا كبيرًا.. وفي عام ١٨٣٩، توترت العلاقات بين الفرنسيين والأمير ودارت رحى الحرب من جديد، وقامت قوات الأمير بمحاصرة بلدة " عين المهدي " لمدة أربعـة شهور، وعقب دخولهم إليها، أكتشف روش أن حبيبته " خديجـة " كانت من بين الضحايا.٠٠!

وحـاول الأميـر أن يخرج روش من حالة الحزن، فطلب منه الاستعـداد لحملة على الفرنسيين.. فتردد ثم امتنع.. فأطلقه الأمير غاضبًا، قائـلًا له: " جزاؤك في الإسلام، جزاء المرتدين، لكنني أترك معاقبتك لله "[3]!

وفـي رواية أخرى.. أن روش هرب عائدًا إلـي قومه، بعد أن عرف جميع أسرار الأمير، معلنًا أنه لم يكن مسلمًا.٠!

روش.. في مهمة سريـة!

فـي عام ١٨٤١، أصبح المارشال " توماس بوجو " حاكمـًا عسكريًا على الجزائر، وقام بتكليف ليون روش بمهمة تضعف من قوى الأمير عبد القادر، وتقوص عزيمـة الجهاد عند المسلمين.. وتم الاتفاق بين بعض الطرق الصوفية - وعلى رأسها الطريقة التيجانية - والسلطات الفرنسية، على صياغة " فتوى شرعية " تبيح لمسلمي الجزائر العيش تحت الحكم الفرنسي - المسيحي - دون اللجوء لفكرة الجهاد!٠٠ ومن أجل تفعيل الفتوى " الشرعية " كانت آراء

---

(١) سميت هذه المعاهدة على اسم نهر " التافنة " بغرب الجزائر، حيث التقى على ضفافه الجنرال بوجو والأمير عبد القادر الجزائري ووقعا المعاهدة.

(٢) Bidwell , R.:OP. cit, P. 124 .

(٣) سمير عطا الله: قافلة الحبر.. مصدر سابق، ص ٧٠.

الذين صاغوها: ضرورة موافقة علماء المسلمين عليها[1]!!.. وسرعان ما أصدر المارشال بوجو أوامره إلي روش بتولي هذه المهمة " السرية ".. وعادت إلي روش أحلامه بالجمع بين الجزائر المسلمة وفرنسا المسيحية!

كما أصدر المارشال تعليماته إلي قناصل فرنسا في تونس وطبرق والقاهرة وجدة بتسهيل مهمة روش.. ووضع تحت تصرفه كمية من النقود الذهبية " السلطاني " ليوزعها عند الحاجة على العرب، الذين قال عنهم " إنهم يحبونها كثيرًا "!.. وقد ركز روش كثيرًا على أهمية النقود " الذهبية " لشراء الذمم من أجل الحصول على الموافقة على الفتوى " الشرعية "!

ويشير روش إلي اجتماع دعا إليه الشيخ " محمد الصغير التجاني " شيخ الطريقة التيجانية في " عين ماضي " بجنوب غرب الجزائر، بمقر الطريقة التيجانية، حضره أيضًا شيوخ الطريقة الطيبية والطريقة الشيخية (أولاد الشيخ عبد القادر بو سماحة) وغيرهم.. واتفقوا على عرض الفتوى على علماء القيروان والأزهر والحرمين الشريفين للتصديق عليها!.. وقد عين الشيخ محمد الصغير اثنين من مساعديه لمرافقة روش في رحلته: " الميلود بن سالم " و" يحي البوزيدي " كما كتب الشيخ رسائل إلي مقدمي الطريقة في تونس لتسهيل مهمة روش... وفي " القيروان " قام " عبد الله بن المحجوب " شيخ الطريقة التيجانية في القيروان، بتقديم الفتوى إلي علماء هذه المدينة، خلال اجتماعهم بجامع " عقبة بن نافع " طالبًا منهم التصديق عليها!...

والتقى روش عدة مرات بقنصل فرنسا في تونس " دي لاجو – De Lagau " الذي منحه تسهيلات وتوصيات أفادته كثيرًا في مهمته!

ثم توجه إلي " جامعة برقه " بليبيا، عارضًا الفتوى على علماءها، فأحالوه على " علماء الأزهر ".. وفي القاهرة، قام الميلود بن سالم بتقديم الفتوى إلي مجلس علماء الأزهر الشريف، وقال روش أن إمام الجامع الأزهر ترأس الاجتماع، ولم يذكر اسم أي من هؤلاء العلماء سوى " الشيخ القادري " وقال روش أنه الوحيد الذي عارض الفتوى لأنه " كان منتسبًا للطريقة القادرية التي ينتمي إليها الأمير عبد القادر، وكان أيضًا صديقًا لمحيي الدين والد الأمير الذي كان يعرفه منذ سنة ١٨٢٧ عندما مر محيي الدين وولده عبد القادر بالقاهرة في طريقهما للحج"!

وقد أفاد روش في القاهرة من خبرة المستشرق د. بيرون مدير مدرسة الطب بالقاهرة وكان يتقن اللغة العربية!

وفي " القاهرة " التقى روش محمد علي باشا، الذي أعرب عن تقديره لكفاح الشعب

---

(١) د. بلقاسم سعد الله: مصدر سابق، ص ٢٥٢.

الجزائري ضد الفرنسيين، وأبدى إعجابه بنوايا وخطط روش ولكنه شك في حقيقة اعتناقه الإسلام!.٠

وكتب روش أنه شاهد في عيني محمد علي باشا تلك القسوة التي أمرت بمذبحة المماليك.. واتخذ روش الطريق البري إلي السويس، ومنها استقل الباخرة إلي " ينبع " حيث أثار حنقه سوء معاملة الحجاج الجزائريين الذين حشروا كل مائتي حاج في مقصورة تتسع لخمسين فردًا فقط، وكتب يشكو شركة النقل إلي محمد علي باشا وإلي الباب العالي والقناصل الأوروبيين في جدة.٠٠ وبعد أيام من وصوله، توجه إلي " الطائف " حيث عرض على مجلس العلماء المشروع الذي أتى من أجله!

وأيضًا، لم يذكر روش أسماء علماء الحرمين الشريفين، الذين اجتمعوا في " الطائف " بدعوة " من شريف مكة.. اجتماعهم السنوي بمناسبة موسم الحج.. وقام قنصل عام فرنسا في جدة " فريسنيل – F.Fresnel " بتسهيل مهمة روش، خاصة رسالة التزكية التي بعث بها إلي صديقه شريف مكة " محمد بن عون ".. وقد لقى روش ترحيبًا كبيرًا.٠

في مكة المكرمة، أخطر روش بموافقة الشريف على استقباله، وأرسل إليه " كتاب الأمان " وعدد من البغال والإبل ومن الخدم!٠٠ وقد سماه شريف مكة في كتابه " عمر بن عبد الله الجزائري ".. وكان برفقته خلال اللقاء " الميلود بن سالم " وحظى روش في " الطائف " باستقبال رسمي، وأبدى روش إعجابه بشخص الشريف وسياسته.. ونجح شيخ التيجانية في تمرير الفتوى " الشرعية " التي جاءوا من أجلها، كما نجح روش في الحصول على وعد من شريف مكة بتحسين معاملة الحجاج الجزائريين باعتبارهم من " رعايا فرنسا "!

وعند اقتراب موسم الحج، طلب روش من شريف مكة السماح له بالعودة إلي مكة لأداء مناسك الحج.. وكان قد قضي تسعة أيام في الطائف، في ضيافة الشريف [1]!

وفي الطريق إلي مكة المكرمة، مروا بمنازل " شداد " حيث آبار المياه العذبة.. وفي مكة، أطلقت المدافع تحية لقافلة الحج الشامي التي نزلت في محلة " الشيخ محمود " بشمال مكة، وفي اليوم التالي ١٨ يناير ١٨٤٢، وصلت قافلة الحج المصري التي نزلت شمال طريق مكة – الطائف، على مسافة كيلو متر واحد من مكة.. وشاهد روش توافد قوافل الحج من كل بقاع العالم الإسلامي، كما شاهد كيف تنزل كل قافلة في الموضع المخصص لها بترتيب موروث منذ قرون.. ومضى روش ومرافقوه إلي " عرفات " وصعدوا إلي " جبل الرحمة ".. إلي أن حان موعد الرحيل من عرفات آخذين في التلبية.٠٠ وفجأة أحاط به ثلة من الجنود صائحين: " أيها

(١) المصدر السابق: ص ٢٦٠.

الرومـي ".. وشدوا وثائقه إلي أحد الجمال السريعة، فنقـل إلي جدة، حيث وضع في سفينة متجهة إلي مصر.. ذلك أن بعض الحجاج الجزائريين قد تعرفوا عليه، ووشوا به إلي سلطات مكة على أنه نصراني وجاسوس للحكومة الفرنسية، وقد تدخل شريف مكة فأنقذ حياته، وأرسله إلي جدة مزودًا بصرة من الذهب والفضة!

طمـوحـات عديدة كانت تتنازع ليون روش.. وحين عاد إلي فرنسا، انتابته نوبة من الندم، جراء عمله في خدمة جهاز الاستخبارات الفرنسية، فقرر أن الطريق الوحيد للهرب هو الانتماء إلي سلك الرهبنة، فرحل إلي روما وانضم إلي اليسوعيين، إلا أن الفـرنسيين رفضوا استقالته، وأقنعوا البابا " جريجوري الثامن عشر " بعدم قبولـه.. فعاد مرة أخرى إلي الجزائر وشارك في المعارك ضد الأمير عبد القادر.. إلي أن أصبح قنصلًا لفرنسا في تونس ثم طنجة.. واختتم حياته سفيرًا لبلاده في اليابـان[1].

الطريق إلـي مكة :-

رحـل روش إلي مكة في قافلة للحجيج تضم مائة جمل.. في يوم ١٦ نوفمبر سنة ١٨٤١، وصلـت القافلـة إلي " مغائر شعيـب " ومنها إلي " عيـون القصب " ثم " المويلح " إلي أن وصلت إلي " ينبع البر " حيث استمتعوا بمشهد الأشجار الكثيفة المثمرة والنخيل وظل ظليل.. ثم واصلت القافلة مسيرتها إلي " ينبع البحر " وهي ميناء على البحر الأحمر، والمدينة قديمة مشيدة على الجزء الشمالي من الميناء، المنازل من طابق واحد مشيد من الحجارة البيضاء، يحيط بها سور تعلوه عدة أبراج.. والسكان من عرب جهينة ومن البحارة، ويوجد تجار ومزارعون.. وآبارها غير عذبة، وأشار روش إلي أن القافلة قد تسوقت حاجاتها الضرورية من هذه المدينة.

وتـوقفـت القافلة عند " بدر حنين " محطة القوافل المتجهة إلي مكة المكرمة، وأشار روش إلي أن بدرًا كانت ميدانًا لأولى المعارك بين المسلمين والمشركين.. وكان الطريق بين بدر والمدينة سهلًا، إلي أن وصلوا إلي " وادي الشهداء ".. ثم عسكروا في " وادي العقيق ".. إلي أن طالعتهم القبة الخضراء لمسجد النبي بالمدينة المنورة، التي دخلوها من " باب العنبرية ".. ومن ساحة المناخ " إلي " الباب المصري " ووصف روش الحرم النبوي والشعائر الدينية وأحوال الحجيج.٠

وفـي يوم ١٤ ديسمبر ١٨٤١، غادرت القافلة المدينة المنورة، وتوجهت إلي جدة، سالكين طريق " ينبـع المدينـة " واستغرقت الرحلة أربعة أيام.. مرت خلالها القافلة بمحطات:

---

(١) المصدر السابق: ص ٢٥١.

الصفراء، وادي زوزاق، جبل أيوب، بئر مستورة، رابغ، ثنية الخليص، وادي جموم.. ثم وادي فاطمة حيث أحرموا، لأنهم باتوا على مسيرة يوم واحد من مكة المكرمة.

وصف مكة :-

حطت القافلة رحالها في " الميمونية ".. واستأجر روش ورفاقه الطابق الثاني من بيت بالحي الشامي، تطل نوافذه على الحرم المكي.. وأشار روش إلي أن مدينة مكة تحيط بالكعبة في شكل بيضاوي، ومبانيها من الحجارة بعضها يصل إلي ثلاثة طوابق، ونوافذها تفتح على الشارع " خلافًا للعادات الإسلامية "(1)!... وتزدان النوافذ بمشربيات رائعة الصنع، يتدلى منها حصير رقيق يتسرب منه الهواء المنعش ويمنع دخول الذباب والبعوض.. والشوارع واسعة غير ممهدة، وبخلاف المسجد الحرام وقصور الشريف وبعض المدارس، لا توجد منشآت ذات أهمية، ولا نشاهد شيء من فنون العمارة كالتي في القاهرة والأندلس وبعض مدن الشرق.٠٠ وآبار مكة مياهها مالحة عدا بئر زمزم.٠

وأشار روش إلي أن مكة المكرمة تنقسم إلي ثلاثة أحياء(2): الأول " حي الصفا " ويمتلك فيه شريف مكة قصرين قريبين من المسجد الحرام ولكنهما في حالة بائسة، أحد القصرين يطل على شارع " المسعي " وهو سوق طويل تصطف الحوانيت على جانبيه، فتباع فيه الأسلحة والأقمشة الفاخرة، والساعات الإنجليزية، ونسخ مذهبة ومنقوشة من القرآن الكريم، أيضًا هناك عدد من المقاهي والمطاعم التي تقدم الشواء.٠

الثاني " حي السويقة " ويتميز بشوارعه النظيفة المرشوشة بالماء، وبكثرة الحوانيت التى تباع فيها جميع أنواع المنسوجات الفاخرة والتحف الثمينة، رائحة العطور تتضوع في الجو.. وفي هذا السوق يباع أيضًا الرقيق من النساء والرجال، الجواري الحبشيات الجميلات هن الأغلى ثمنًا.. وفي جانب من الحي، يقطن أثرياء الهنود...

الثالث " حي الشبيكة " أو حي باب عمر، وفيه أرقى البيوت التي يستأجرها أثرياء الحجاج.. وفي شارع المسعى، تنتشر حوانيت المنسوجات الحريرية الواردة من دمشق وحلب.. والباعة خليط من جنسيات متعددة.. فهذا مراكشي يبيع جلود الماعز المدبوغة.. وتونسي يبيع الشواشي الحمراء.. وذاك تركي يبيع أفخر أنواع السجاد.. وفارسي يبيع المنسوجات الكشميرية

---

(١) Roches, L.: OP. cit, Vol 2 , P. 110

راجع أيضًا - د. بلقاسم سعد الله: مصدر سابق، ص ٢٦٣.

(٢) Roches, L.: OP. cit, Vol 2 , PP.111 - 115 .

والمناديل الحريرية.. وهذا أفغاني يعرض الشيلان المطرزة الفاخرة.. وهنود يعرضون أسلحة دقيقة الصنع وأقمشة ومنتجات عطرية متنوعة.. ويمنيون يبيعون جنبيات ونرجيلات وجلود.. ومن السودان وتمبكتو يعرضون سلال من الخوص ومنسوجات قطنية.. وينتشر في هذه الأحياء المتسولون والدراويش من مختلف أنحاء العالم الإسلامي.

في الحرم المكي:

ودخل روش ورفاقه الحرم المكي من " باب السلام " وقد أحاط بهم المطوفون.. وتحدث عن تاريخ بناء الكعبة، وأهميتها للمسلمين، ومناسك الحج في عصر الجاهلية، وفي عصر الإسلام، وبئر زمزم، وعرض للخلفاء والسلاطين الذين اعتنوا بتجديد وتوسعة الحرم(١)...

و وصف روش صحن المسجد الحرام وأروقته وبنائه وأبوابه.. وقال " إن صوت المؤذن يتهادى من منارة المسجد رخيمًا مؤثرًا بنغم لم أسمعه من قبل "!.. كما وصف الكعبة المشرفة، وتحدث عن الحجر الأسود والميزاب وحجر إسماعيل، وأشار بأن كسوة الكعبة تصنع في مصر و" أن من يكسو الكعبة له السيادة عليها(٢)"!..

وتحدث روش بتفصيل عن مخصصات الحرم المكي من الأوقاف، وأوجه صرفها طبقًا لتقليد متوارث منذ مئات السنين.. على سدنة الكعبة (آل شيبة) و" صاحب مفتاح باب الكعبة ".. وخطيب الحرم والأئمة والمفتي إلي الطواشية والسقاءون.. وأشار إلي بساطة الحرم في أثاثه وفنون عمارته " باستثناء بعض الثريات الذهبية داخل الكعبة "!

وقفة عرفات:

وفي الثاني والعشرين من يناير سنة ١٨٤٢ كانت " وقفة عرفات " ويذكر روش أن عدد الحجاج في ذلك العام قد بلغوا نحو ستين ألفًا.. وفي عرفات " أنطلقت أصوات المدافع معلنة موعد الصلاة.. فارتفعت أصوات المؤذنين جميلة، شجية.. تدعونا لأداء صلاة الفجر "!..

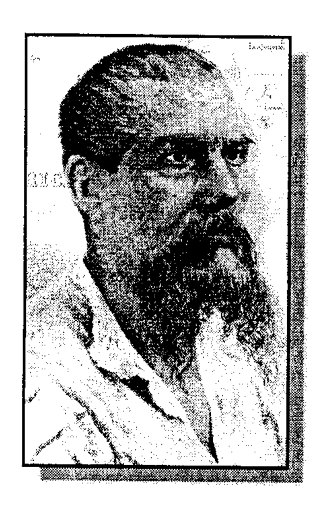
ويشير روش إلي خطبة التاسع من ذي الحجة، وأن الخطيب قد خطب فيهم على ناقة بيضاء وبيده عصا طويلة " في نفس المكان الذي خطب فيه النبي – صلى الله عليه وسلم – في المسلمين الأولين ".. بينما جلس شريف مكة تحف به حاشيته خلف الخطيب. فيما ترفرف فوق رأس شريف مكة والخطيب أعلام خضراء مذهبة الأطراف(٣)!.. وعندما إنطلق المدفع، اجتمع

(١) Roches , L.: OP. cit, PP. 90-92 .

(٢) OP. cit, P. 93 .

(٣) OP. cit, P. 143 .

الحجيج على ظهور جمالهم.. وتقدم أمير الحج المصري في كوكبة من الفرسان والجنود، ثم " المحمل الشامي " وخلفه والي دمشق بين ثلة من مرافقيه وجنوده النظاميين.. أما حجاج اليمن فقد كانوا في آخر الصفوف!.. " وعندما ارتفع صوت المؤذن لأداء صلاة العصر.. ران الصمت على الجميع.. وساد السكون المكان.. وعندما رفع الخطيب يديه إلي السماء ملبيًا، تبعة الحجيج في خشوع وضراعة: لبيك اللهم لبيك.. "!



ريتشارد بيرتون ..
من أكسفورد إلي جزيرة العرب

كـان الشاعر الشهير " اللورد بايرون " هو أول من أطلق موجة الرحيل الرومانسي إلي الشرق العربي عام ١٨١٢ عندما أنشد:

" آه.. لو كانت الصحراء مـوطني حيـث أنسـى الجنـس البشـري
مـن دون أن أكـره أحـدًا لكـن فقـط.. أن أحبهـا.. "!

لقـد عثرت الرومانسية في ذروتها الأوروبية على الصحراء " المجتمع الذي لا يستطيع التسلل إليه أحد " كما يقول بايرون.. فالشاعر يندمج في الطبيعة الهائلة ويصير جزءًا منها لا من " غضبها "!.. وهكذا مع اللورد بايرون ثم مع غيره، سوف تصبح الصحراء هي الإطار الأدبي وهي المخيلة الشاعرية.. وبعد ذلك، سوف يكون الهم الأول للرحالة هو اختراق الصحراء وليس تجنبها.. لقد أطلق " بايرون " النداء.. وتبعه " شيلي" ثم تبعهما الجميع وكان على رأسهم: " ريتشارد بيرتون " أبرز وأشهر من جابوا جزيرة العرب..

لـم يكتب أحد بقدر ما كتب " ريتشارد فرانسيس بورتون " ولم يكتب عن أحد بقدر ما كتب عن رحلة بورتون إلي الجزيرة العربية. وكان أول كتاب يروي سيرته قد صدر قبل عشر سنين من وفاته. وقد كتب بورتون تقريبًا في كل المواضيع من تربية الصقور إلي المناجم إلي الآثار إلي الطب إلي الهندسة إلي تسلق الجبال إلي آخره. وكتب عن رحلاته في كل مكان من الأرض تقريبًا، ووضع عن إفريقيا وحدها ١٣ كتابًا تقع في ٤٦٠٠ صفحة، غير أن الجزيرة العربية ورحلته إليها ظلت، كما قال، أفضل ما فعله في حياتـه[١]!

فـي التاسع عشر من شهر مارس عام ١٨٢١[٢]، وفي " بارم هاوس " بمقاطعة هارتفورد

---

(١) سمير عطا الله: قافلة الحبر.. مصدر سابق، ص ٨١.

(٢) Bidwell, R., Travellers in Arabia , P. 60 .

شاير بإنجلترا، ولد ريتشارد بيرتون من عائلة رفيعة النسب افتقرت بعد ثراء، ومن أصل هو مزيج من الدماء الايرلندية والاسكتلندية والفرنسية.

وكـان بيرتون سـيء الحظ منذ صغره، وبقى سوء الحظ ملازمًا له إلي يوم وفاته. وبدأ سوء الحظ هذا من يوم أن قرر جده لأمه أن يترك له ثروته البالغة نصف مليون من الجنيهات، فركب العربة وتوجه إلي المحامي لكتابة الوصية، وعندما كان هذا الجد يهم بترك العربة سقط ميتًا بالسكتة القلبية. وبهذا خسر الصبي ريتشارد هذه الثروة الطائلة، التي آلت إلي خاله.

ونشـأ بيرتون عاشقًا لحياة التشرد والتنقل، معتادًا عليها، لأن عائلته كانت دائمة الترحال بين إنجلترا وأوروبا بسبب داء الربو الذي كان يثقل على صدر والده الكولونيل المتقاعد. ومنذ سن مبكرة تعلم كيف يستعمل المسدس، ويبارز بالسيف، ويصارع الخصوم.

وعنـدمـا بلغ التاسعة عشرة التحق بجامعة اكسفورد، فكرهها " لانظمتها الصارمة، وغرفها الرطبة، وطعامها الرديء، وأجراسها التي لا تكف عن القرع ". ولكنه مع هذا كان يلتهم الكتب التهامًا، ويقرأ ما لا يقل عن اثنتي عشرة ساعة في اليوم. وفي اكسفورد أحب أن يدرس العربية، ولكنه وجد طريقة الجامعة في تعليمها بطيئة، فأخذ يتعلمها على نفسه. ويقول بيرتون أنه قد استطاع أن يخترع طريقة لتعلم العربية مكنته من أن يتقنها في زمن وجيز، ونحن لا نعرف هذه الطريقة، لأن بيرتون لم يترك لنا وصفًا لها.

في الهند، يحاول وضع لغة للقردة:-

وتخـرج بيرتون من اكسفورد ليلتحق بجيش الهند، مقاومًا بذلك رغبة والده الذي كان يريد له أن يصبح من رجال الدين. وفي يونية (حزيران) ١٨٤٢ كان بيرتون في الهند[١]، ولكن الهند خيبت ظنه، كما خيبته اكسفورد من قبل، ومع هذا أقبل على الحياة فيها يعب منها، فتزوج فتاة هندية ليتركها وراءه بعد أن غادر الهند، وتفقه في الديانة البراهمية، وتعلم ضروب المصارعة والمبارزة بالسيف، وحذق تذليل الخيول البرية، والأفاعي السامة الصخمة، وتزي بزي بلوشي وطوف في الهند.

ومـن طريف ما يروى عنه في الهند[٢] أنه جمع في بيته أربعين قردًا من شتى أنواع القردة، ليدرس لغتها. ويدعي بيرتون أنه استطاع أن يميز بين ستين كلمة تستعملها القردة، ودون ملاحظاته عليها، ولكنها فقدت في حريق شب في بيته فأتى عليه، كما أتى على سائر تحفه الشرقية التي كان يعتز بها. ويقص علينا بيرتون قصصًا عن حياتـه مع هذه القردة تجعله في نظرنا أقرب إلي

---

(١) Op. cit., P. 60 - 61 .

(٢) Thomas , B.: Arabia Felix, New York, 1932, P.96 .

المجانين: فقط نظمها كأنها فرقة عسكرية، وعين لها رتبها، وكانت تجلس معه على المائدة، ولكل منها كرسيه وطبقه، ويطوف عليها الخدم بالطعام.

ولم يكن هناك انسجام بين بيرتون وكبار المسئولين في جيش الهند. وهذا أمر طبيعي وأخيرًا قرر بيرتون العودة إلي بريطانيا، وهو لم يعد السابعة والعشرين. وكان أثمن ما عاد به من غربته هذه، حسب قوله، حبه لفتاة إيرانية فاتنة الجمال، من عائلة ارستقراطية. وكان على وشك أن يتزوجها ويستقر في الشرق، لولا أن القدر عاجلها وهي ما زالت في ريعان الشباب.

عودة فزواج:

وفي بريطانيا أقبل بيرتون على تسجيل ذكرياته عن الهند. وفي هذه الفترة من حياته التقى لأول مرة بالفتاة التي عشقته من أول نظرة، وأصبحت زوجته، وهي إيزابل، ابنة إحدى العائلات اللندنية النبيلة. وقد أحبت إيزابل ريتشارد حبًا جرى مجرى المثل، كحب قيس وليلى في أدبنا. والدارس لشخصية هذه الفتاة يجدها في أطوارها الغريبة نسخة من بيرتون، وهي نفسها تقول: " لو كان بالإمكان أن أصير رجلًا لتمنيت أن أصير ريتشارد بيرتون، ولكن بما أنني لا أستطيع ذلك، فأن ما أتمناه هو أن أصبح زوجته ".

وكان السفر في منتصف القرن الثامن عشر متعة الذين يسافرون والذين لا يسافرون. وكانت استطلاعات الجغرافية آنذاك شبيهة بالفضول الفضائي اليوم، ولذا لم يكن من الصعب العثور على من يمول رحلة حسنة التخطيط. وفي العام ١٨٥٢ عرض بورتون خدماته على الجمعية الجغرافية الملكية[١] " بهدف إزالة ذلك العائق المعيب أمام المغامرة الحديثة، تلك البقعة البيضاء الضخمة التي لا تزال على خرائطنا تخفي الأجزاء الشرقية والوسطى من شبه الجزيرة العربية ".

كانت خطته الأساسية تقضي بالإبحار إلي مسقط ومنها عبور الربع الخالي حتى الوصول إلي مكة المكرمة والمدينة! وقررت الجمعية الملكية تمويل الرحلة لكن شركة شرق الهند رفضت السماح له القيام بها بحجة أنها بالغة الخطورة. وبدلًا من ذلك مددت له الأجازة من أجل دراسة اللغة العربية " في بلاد تدرس فيها هذه اللغة على أفضل ما يكون ". لذلك قرر بيرتون تغيير خطته إذ لم يعد لديه الوقت الكافي لعبور الربع الخالي، وهو سيعمد بدلًا من ذلك التوجه مباشرة إلي مكة والمدينة ومن ثم يستقل باخرة تعود به إلي الهند قبل أن تنتهي مدة الإذن بالتغيب.

وبالإضافة إلي اكتشاف الأجزاء غير المعروفة من شبه الجزيرة، كان ينوي المساهمة في حل تلك المشكلة الأزلية بالنسبة إلي الجيش البريطاني في الهند: الحصول على المزيد من الخيول العربية.

---

(١) Bidwell, R.: Op. cit, P.61 .

في نيسان / أبريل ١٨٥٣[١] غادر بيرتون ميناء ساوث هاميتون في زي نبيل فارسي. كان ينوي أن يزيف شخصية الرجل المسلم بكل حذافيرها ولذلك راح يتدرب خلال الرحلة على كل حركة، بما في ذلك طريقة المسلمين في الشرب من كوب المياه "يقبض على الكأس كأنها عنق عدو ولا يتركها إلا وقد روى ظمأه " وبعد أن أمضى شهرًا واحدًا في مصر قرر أن يغير شخصيته من نبيل فارسي إلي بدوي متجول.. وفي وقت لاحق عاد فاستقر على شخصية الأفغاني التابع للإمبراطورية البريطانية الذي تلقى علومه الطبية في زانغون.

من أجل كل هذه الشخصيات اشترى بيرتون ثيابًا كثيرة بعدما لاحظ أهمية القيافة " في منطقة يعتبر فيها كل رث الثياب شحاذًا وكل شحاذ نصابًا، إلا إذا كان ينتمي إلي طريقة تسمح له بالظهور بمظهر الفقراء ". وكان من بين مشترياته أيضًا مظلة صفراء واسعة " تشبه حديقة مرتفعة الأعناق "! ومشط خشبي، وطرف من جلد الماعز، وسجادة فارسية " التي إلي جانب كونها تكاية فهي أيضًا كرسي وطاولة ومنبر " ووسادة قطنية وكاب! كذلك اقتنى خنجرًا ومحبرة من النحاس ومشكاه أقلام وإبرًا وعلبة نحاسية خضراء " قادرة على تحمل السقوط عن ظهر جمل مرتين في النهار ". وكانت موازنته للرحلة ٢٥ ليرة إنكليزية ذهبًا لفها في حزام تحت ثوبه.

ويبدو أن بيرتون بالفترة التي قضاها في الإسكندرية، أو ما سماه " الكيف[٢]" في المدينة: " في الشرق لا يحتاج الرجل إلي أكثر من الراحة والظل. إنه يرتاح سعيدًا على حافة جدول يخرخر أو في ظل شجرة عاطرة. يدخن غليونًا أو يحتسي فنجانًا من القهوة أو يتناول كوبًا من الشراب، لكن الأهم من ذلك أنه لا يزعج جسده وفره إلا قليلًا، معتبرًا أن حدة المحادثة ومرارة الذكريات والإغراق في التفكير، أمور مفسدة كثيرًا للكيف! ".

وصل بيرتون إلي القاهرة على ظهر مركب صغير واستقر في فندق صغير أو " وكالة " كما كانت تعرف الفنادق في تلك الأيام. وقد ادعى مهنة الطب وذاعت شهرته بسرعة حين استطاع أن يشفي عبدتين حبشيتين من " الشخير " والأهم من ذلك أنه التحق فيها بعد بجامعة الأزهر تحسبًا للوصول إلي مكة المكرمة. فقد كان عرف أنه ليس من الضروري للمسلم - أو لمدعي الإسلام - أن يكون ضالعًا في اللغة العربية لكن من الضروري له أن يكون ملمـًا بشئون دينه والفرائض. والواقع أنه سرت فيها بعد إشاعة قوية، كما يروي روبن بيدويل[٣]، تقول أن أحد الحجاج اكتشف أمر بيرتون في الرحلة ما بين مكة والمدينة، فما كان منه إلا أن ذبحه ذبحًا من أجل الحفاظ على سره.

---

(١) OP. cit, P. 62 .

(٢) OP. cit, P. 63 .

(٣) OP. cit, P. 664 .

أضـاف بيرتون إلي موازنة السفر ٨٠ جنيهًا أخرى وبدأ السعي للحصول على جواز سفر. واتجه أولًا إلي القنصل الفارسي الذي طلب ٤ جنيهات لقاء ذلك، فثارت ثائرة بورتون الذي أصر على أن يدفع جنيهًا واحدًا! وقام من بين معارفه من دله على شيخ رواق الأفغان في الأزهر، وكان هذا رجلًا طيب القلب، فأعطاه الوثيقة اللازمة لسفره لقاء شلن واحد.

كـان بيرتون يستعد للرحيل حين تعرف إلي نزيل آخر في " الوكالة "، هو ضابط ألماني كان قادمًا من الحجاز في إجازة. ودعاه الضابط إلي غرفته، فلبي الدعوى وهناك وضع كل منهما خنجره جانبًا وراحا يتعاطيان الخمر. ثم أخذا يدعوان النزلاء الآخرين إلي مشاركتهما، إلي أن تحول النزل إلي ساحة للهو والصخب واجتمع الجيران يؤنبون السكارى!

في الطريق إلي المدينة على.. " سلك الذهب "!

أعـد بيرتون العدة لترك القاهرة في أسرع وقت ممكن. وعثر على بدوي من سيناء متجه في الطريق نفسها، فاستأجر جملين بقيمة جنيه واحد وتوجه مع خادم هندي نحو السويس. وفي الطريق التقى بعض التجار المحترمين من المدينة الذين كانوا عائدين إلي بلادهم، ومعهم شاب من مكة كان تعرف إليه في القاهرة ويدعى محمد البسيوني، الذي أخذ بيرتون في رعايته طوال الرحلة.

فـي السويس عبرت الجماعة القناة على ظهر السفينة "سلك الذهب"[١] وحمولتها ٥٠ طنًا. وكانت هذه تتسع لستين راكبًا لكنها حملت ١٣٠. وفيما كان بيرتون ورفاقه يرتعون في راحة الدرجة الأولى هجمت جماعة من الأفارقة تريد مكانها لها، فدار بين الفريقين عراك استخدمت فيه العصى والسكاكين والأسنان، وأخيرًا حسم بيرتون الأمر بأن أسقط فوق المهاجمين جرة ضخمة من المياه تحطمت فوق رؤوسهم فجرحتها وبللتها فاستسلموا. إلا أن السفينة نفسها تعرضت للغرق في مرحلة لاحقة كما تعرض قبطانها للضرب المبرح، غير أن المسافرين وصلوا إلي ينبع في نهاية المطاف، ولدي نزولهم إلي البر داس بورتون، على ما يبدو، على شيء سام جعله يتألم من قدمه طوال الرحلة. ومن هناك استأجرت المجموعة جمالًا كلفة الواحد منها ثلاثة دولارات واتجهت إلي المدينة في رحلة مسافتها ١٣٠ ميلًا، استغرقت ثمانية أيام.

فـي ٢٥ يوليو ١٨٥٣ وصلت القافلة إلي المدينة. " وإذا تطلعنا شرقًا رأينا الشمس ترتفع في الأفق من بين التلال المنخفضة، مموهة ومبقعة بالأشجار الصغيرة، أما الأرض فبدت مبرقشة باللونينالذهبي والقرمزي. أمامنا كان يمتد سهل ضخم تحدث أرض نجد المرتفعة آنًا والمنخفضة حينًا، وإلي اليسار كان جبل أحد الشهير وقد بدت في سفحه واحة أو واحات من الخضرة، وإلي

---

(١) OP. cit, P. 64 .

اليمين كانت هناك غمامة ليلية من الندى، تشقها أشعة الصباح، تمتد فوق النخيل وحدائق القبة التي تسمخت خضراء كالعقيق من أرض السهل البرتقالية ".

أمضـى بيرتون في المدينة أكثر من شهر ووضع في وصفها ما يزيد على مجلـد كـامـل!

فـي الطريق من ينبع كان بيرتون قد التقى أحد رجال البدو الذي وعده بأن يساعده في السفر من المدينة إلي مسقط، إلا أن مشادة قامت بين بدويين ما لبثت أن تحولت إلي حرب قبلية لدرجة أن دوي الرصاص " كان يسمع في المدينة وأخذنا نرى في الشوارع جماعات من البدو وفي أيديهم السيوف أو العصى وهم يهرولون خوفًا من أن يفوتهم مشهد القتال. وكان سكان المدينة يلعنونهم في غضب ".

كـان اندلاع القتال يعني أن الطريق إلي مكة وحدها بقيت مفتوحة. وكان بورتون يعرف أنه لم يكن هناك سوى القليل يستطيع أن يضيفه إلي وصف بور كهارت لأم القرى، لكنه شعر الآن أن أمامه الفرصة بأن يكون أول أوروبي يتمكن من السفر بين المدينتين المقدستين عبر الطريق الشرقية! وهكذا بدأ يستعد للرحلة على عجل، فأصلح جلود المياه التي مزقتها الفئران وجمع مؤونة ١٥ يومًا له ولمرافقه محمد. وقد سارا معظم الأوقات ليلًا وفي ١١ أيلول / سبتمبر ١٨٥٣ وصل بيرتون إلي مكة المكرمة[١] وأدى جميع مراسم الحج بتوجيه من الشاب محمد، الذي قدم له أيضًا منزله للإقامة، وانتهى بالطوفان حول الكعبة المقدسة حيث كتب فيها بعد " لقد رأيت احتفالات دينية في بلدان كثيرة، لكنني لم أر في مكان مشهدًا عظيمًا ومجيدًا مثل هذا المشهد ".

ومـن مكة المكرمة توجه إلي جدة، حيث في اللحظة الأخيرة اكتشف الشاب محمد أمره، لكنه كان لا يزال يعتقد أن بيرتون هو مجرد " صاحب " من الهند!

بيـرتـون المغـامـر:-

ونحـن لا نستطيع هنا أن نتتبع بيرتـون فـي كـل رحلاتـه العديـدة، ونكتـفي بها لابد من الوقوف عنده. فمن رحلاته المذكورة اكتشافه مناطق مجهولة في الحبشة. وفي الحبشة أصيب بضربة حربة في فكه السفلي وعنقه تركت آثارًا لازمته طيلة حياته. وتفاصيل هذه الرحلة موجودة في كتابه المسمي " أول الخطوات في أفريقية الشرقية " **First Footsteps in East Africa** وعندما صدر هذا الكتاب ذات اسم بيرتون واشتهر أكثر من ذي قبل. وكان الناس في تلك الأيام يتطلعون إلي الرحالين المغامرين تطلعهم اليوم إلي علماء الذرة، ورواد الفضاء.. تطلع في الإعجاب البالغ.

وجـاب بيرتون أعماق القارة السوداء بحثًا عن منابع النيل، وهو الموضوع الذي شغل

---

(١) **OP. cit, P. 69** .

المكتشفين في القرن الماضي. وسافر إلي أمريكا ليزور جماعة المورمون فيها. وقبل سفره حلق شعر رأسه بالموسى، وارتدى الجاكتة السوداء الطويلة، واعتمر القبعة العالية، فبدا بلباسه هذا كأحد رؤساء المورمون. وكان من نتيجة رحلته هذه كتابه الممتع " مدينة القديسين City of the Saints "

في خدمة وزارة الخارجية[1] :-

وعـاد بيرتون من رحلاته هذه محطم الجسم، قد هدته الحمى، وبعد أن استراح أخذ يبحث لنفسه عن عمل في وطنه، ولكن حضه فيه كان سيئًا، حتى اضطر أخيرًا أن يقبل وظيفة في القنصلية الإنجليزية في جزيرة فرناندو بو Fernando Poo الأسبانية على الساحل الغربي من أفريقية. وكانت وزارة الخارجية ترى في هذا المكان منفي، ترسل إليه غير المرغوب فيهـم. ولقد علق بيرتون على تعيينه هذا قائلًا: " لقد أرسلوني إلي هنا لأموت، ولكني سأعيش رغمًا عن أنوفهم ". وبعد وساطات كثيرة نقل بيرتون إلي " سانتوس " بالبرازيل، وهو مكان لا يفضل الأول بكثير. وفي سانتوس شقى بيرتون وزوجته، وقاسيا الكثير، وتحطمت صحته، وأقبل على الشراب فلا يكاد يصحو.

وصفه الرحالة الشاعر الإنجليزي ولفريد سكاوين بلنت Wilfaid Scewen Blunt وقد لقيه في بيونس إيريس، قال أنه " كان في أسوأ حال، فكأنه مجرم لم يغادر السجن إلا منذ لحظات: فجاكتته السوداء قذرة بالية، وبنطلونه لم يعرف الكي منذ زمن، وقميصه مفتوح عن صدره.. أما عيناه فبدتا لي كعيني حيوان مفترس ينتظر لحظة الانقضاض، ولكنه مع هذا كان يبدو لزوجته أجمل رجل في الدنيا ".

ونجحـت الوساطات المتعددة أخيرًا في نقله إلي المكان الذي كان يطالب بالانتقال إليه: إذ عين قنصلًا عامًا في دمشق، بمرتب قدره ألف جنيه في العام، وهو مبلغ كبير بحساب تلك الأيام. وعندما أشرف بيرتون وزوجته على دمشق، وبدت لهما غوطتها، واستنشقا رائحة زهر البرتقال، نظم فيها القصيدة التالية:

" مـــا أجملـــك، يـــا دمـــشق!   أنـــت قـديمـــة قـــدم التاريـــخ

نـديـــة كـأنفـــاس الـربيـــع   متفتحـــــــة كـالـبـراعـــــــم

فـواحـــــــة كـالـــــــورود   عبقـــة برائحـــة زهـــر البرتقـــال

مـــا أجملـــك، يـــا دمـــشق   يـــا لـؤلـــؤة الـــشـرق! "

---

(1) Ralli, A.: Christians at Mecca, London, 1909, PP. 127-136 .

وفـي دمشق عرف بيرتون باسم الحاج عبد الله. وعقد صداقات مع العائلات الدمشقية، وكان من أعز اصدقائه هنا الأمير عبد القادر الجزائري، الذي اختار دمشق مقرًا له بعد أن منحه لويس نابليون حريته عام ١٨٥٧. والأمير عبد القادر من الخالدين في تاريخنا الحديث، وكان رحمه الله واسع الأفق، رحب الصدر، لا يضيق بالملل الأخرى. وكان الأمير في الرابعة والستين من العمر يوم حل بيرتون في دمشق "

وفـي دمشق لبس بيرتون الملابس العربية، وكان بيته ملتقى وجوه القوم، وشيوخ العشائر. ونحن نعرف الكثير عن المجتمع الدمشقي في هذه الفترة التاريخية من كتاب زوجته **The Innor Life of Syria** وهو كتاب تلمس فيه روحًا فكتورية مؤمنة بعزة بريطانيا وعصبية كاثوليكية تدفعها إلى الدعوى لمذهبها.

ولـم تكن حياتها في دمشق دومًا هينة رضية. فقد عكرها اعتقاد المسلمين أن زوجة بيرتون ليست إلا مبشرة كاثوليكية. وأعتقد أن المسلمين كانوا على حق في اعتقادهم هذا، إذ نحن نعرف من التاريخ أن حماستها الدينية دفعتها إلى محاولة نشر الكثلكة بين المسلمين.

وأكتسـب بيرتون نفسه عداوة فئات عديدة من المواطنين في سوريا، والأجانب المقيمين فيها: فكرهه بنو قومه لاعتقادهم أنه مغرور وبه مس من جنون! وهاجمه المبشرون لأنه لا ديني ويقضي ساعات في مساجد المسلمين! واشتد هجومهم عليه لأنه منعهم من توزيع النشرات التبشيرية، وأمرهم بعدم الدخول في جدل مع المسلمين حول الدين، لأنه كان يخشى أن تحدث مجازر تعيد للأذهان مجزرة عام ١٨٦٠. ونقل هؤلاء المبشرون احتجاجاتهم إلى جمعياتهم في بريطانيا، يشكون إليها هذا القنصل الذي يقف في وجه نشاطهم التبشيري.

وكـره اليهود بيرتون لأنه وقف ضد جشعهم، وكان هؤلاء اليهود يحملون الجنسية الإنجليزية، ويمثلون أصحاب البنوك في أوروبا، ويقرضون الناس المال بفائدة تبلغ أحيانًا ٦٠ ٪، فإذا عجز المدين عن الدفع لجأوا إلى بيرتون يطالبونه باستعمال نفوذه لإرغام المدين على الدفع. وكان هذا السلوك من جانب اليهود يثير ضغينة السوريين على الإنجليز. وقد عبر بيرتون عن كراهيته لليهود في كتابه " اليهود والإسلام " **The Jew and Islam**. وكان يقول: " ما رأيت أكثر كذبًا من دزرائيلي الذي قال: ليس العربي إلا يهوديًا على ظهر حصان "!!

وأثـار بيرتون ضده الكنيسة الارثوذكسية اليونانية، والسبب حادثة بسيطة: كان بيرتون وزوجته يخيمان في الناصرة، فأذا بأحد أبناء هذه الطائفة يحاول التسلل إلى خيمة إيزابل، ورآه أحد حراس بيرتون فانتهره فرد عليه الأرثوذكسي بوقاحة. هنا انهال عليه الحارس ضربًا. وحدث في تلك اللحظة إن كان المصلون خارجين من الكنيسة، فتجمهروا حول المخيم، وخرج إليهم بيرتون يحاول تهدئتهم، فأنهالوا عليه بالحجارة، مع علمهم أنه القنصل البريطاني في دمشق.

وتقدمت فئة منهم تريد الفتك به، فلم يجد بيرتون بدأ من استعمال مسدسه، فأطلق رصاصة في الهواء، فتفرقوا. ولكن الأسقف الأرثوذكسي قام برفع عريضة شكوى إلي وزارة الخارجية البريطانية موقعة من كل رجال الطائفة البارزين في بلاد الشام. ولزمت وزارة الخارجية الصمت.

وجلب بيرتون لنفسه المتاعب في دمشق بإثارته الوالي التركي رشيد باشا ضده: فقد كانت في سوريا فرقة صوفية عرفت بالشاذلية، وكان أفرادها نشيطين في الدعوى إلي طريقتهم. وشهد بيرتون بعض اجتماعاتهم، فأعجب بطريقتهم، وأخذ يواظب على حضور حلقاتهم، ودفعته حماسته لهم إلي أن يطلب من وزارة الخارجية أن تشتري لهم قطعة أرض في دمشق ليقيموا عليها زاوية لهم. ومرة أخرى التزمت الخارجية الصمت ولكن على مضض. وأخذ رشيد باشا يرسل شكوى تلو الشكوى من هذا القنصل الأجنبي الذي يدس أنفه في الشئون الداخلية للبلاد. وأكد هذا الاتهام ضده أن رشيد باشا اعتقل بعض زعماء الشاذلية، وصادر ممتلكاتهم، فحاول بيرتون أن يطلق سراحهم بالقوة.

هنا لم تعد وزارة الخارجية تملك صبرًا. وفي صباح يوم ١٦ أغسطس (آب) ١٨٧١ جاء الرسول يحمل لبيرتون أمر وزارة الخارجية بوجوب عودته إلي لندن حالًا. فشيعهما عند الرحيل جمع غفير من وجوه المواطنين، وعلى رأسهم الأمير عبد القادر الجزائري. وهكذا انتهى الحلم، وغادر بيرتون الشرق العربي الذي عشقه، بعد أن قضى سنتين فيه. وقد شبه خروجه من دمشق بخروج آدم من الجنة، مع الفارق بينهما وهو أنه لم يقترف أثمًا سوى مناصرته لما آمن أنه الحق والعدل.

في تريسته ترجم "ألف ليلة وليلة":-

وتمر الأيام ببيرتون في لندن، وأخيرًا يقبل وظيفة قنصل في تريستة، مع أنه رفض دعوة الجنرال جوردون له، وهو الحاكم العام للسودان والمعجب به، أنه يتولى منصب الحاكم العام لمديرية درافور بالسودان. وقد رد على جوردون قائلًا، "أننا شخصان على طرفي نقيض، فلا أنت تستطيع أن تعمل تحت أمرتي، ولا أنا استطيع ذلك".

وفي تريسته أتم بيرتون ترجمته الشهيرة في الغرب لكتاب " ألف ليلة وليلة[1]". ومن أجل هذه الترجمة ما زالت صورته حتى اليوم تزين قاعة الاجتماعات بمعهد اللغات الشرقية والأفريقية بجامعة لندن. وقد نشرت هذه الترجمة أول مرة في صورة كاملة غير مهذبة عام ١٨٨٣، وفي عشرة أجزاء ضخمة ذات أغلفة من اللونين الذهبي والأسود وقد نجحت هذه الترجمة نجاحًا باهرًا حتى أنها درت عليه في طبعتها الأولى مبلغ ستة عشر ألف جنيه ثم نشرت بعد ذلك في ستة عشر جزءًا (١٨٨٥ - ١٨٨٨ م).

(1) Bidwell, R., OP. cit, P. 71 .

وفـي رأيي أن ترجمته هذه هي خير ما أنتج، وهي ترجمة تدل على أن بيرتون كان على علم وافر بأسرار العربية وعادات العرب وتقاليدهم.

وعنـدمـا حازت ترجمته لألف ليلة وليلة شهرة سريعة في كل مكان، علق على ذلك قائلًا " لقد كافحت طوال ٤٧ عامًا من أجل أم أميز نفسي بكل طريقة مشرفة ممكنه، إلا أنني لم ألق إطراء أو كلمة شكر من أحد. وها أنا الآن أترجم في شيخوختي كتابًا مشكوك فيه فأحصل فورًا على ١٦ ألف جنيه "!

كـان بورتون مجموعة من المتناقضات. وهذا الرجل الذي طرد من أوكسفورد لأن زميلًا له سخر من شاربيه سوف يرى خلال تنقله في الجزيرة أن شاربيه الكثين هما اللذان حبباه إلى الناس، حتى أن أحد مشايخ بيت حرب سماه " أبو الشوارب "! على أن ذروة أعماله سوف تظل، في الغرب طبعًا، ذلك الوصف الذي وضعه لمكة المكرمة ولحظة الانبهار أمام الكعبة:

" لم تكن هناك آثار قديمة من الصخر الرملي كما في مصر، ولا بقايا من الجمال المنحوت كما في اليونان وإيطاليا، ولا تلك الفطرية الرائعة كما في مباني الهند - ومع ذلك كان المشهد موهلًا وفريدًا. وكم هم قلة أولئك الذين شاهدوا الكعبة المقدسة. وإنني أقول بكل صدق، إنه من بين جميع العباد الذين تعلقوا بالستارة باكين أو أولئك الذين ألصقوا قلوبهم النابضة بالحجر، فإن مشاعر أحد منهم لم تكن في عمق مشاعر الحجر (بورتون) القادم من أقصى الشمال. لقد بدا أن الأساطير العربية الشاعرية لم ترو سوى الحقيقة وأن أجنحة الملائكة المرفرفة، وليس نسيم الصباح العليل، هي التي تنفخ بوداعة الرداء الأسود الذي يغطي النصب ".

لـم ينته بورتون من وضع كتابه " الحج إلى مكة والمدينة " إلا بعد عامين، وذلك في العام ١٨٥٥ . لكن الكتاب، الذي تحول إلى عمل كلاسيكي في الغرب لم يكن مجرد وصف للمدينتين المقدستين بل شمل أيضًا دراسة دقيقة لحياة البدو[١] الذي انبهر بهم بورتون أيما إنبهار. وقد بني على استقلالية أبناء البادية ونزعتهم الفردية لكي يرسم لوحة لما سماه " المجتمع الليونيني " وهو مجتمع " يسود فيه الأقدر والأقوى والأكثر حنكة على بقية رفاقه ". وتلك النزعة الفردية لدى البدو لم تؤد - حسب بورتون - إلى الديموقراطية أو إلى الفوضى بل إلى نوع من المجتمعات التي يحكم فيها القوى وحده.

يجـب إلا ننسى أن هذا الإعجاب نابع أيضًا من محبة بورتون للسيف ومهارته في استخدامه. وفي مؤلفه " كتاب السيف " (١٨٨٤) يصفه " بأنه خلاق ومدمر " أي أنه يدجن الأفراد المتقاتلين في مجتمعات متجانسة. حتى الموت، في الحياة البدوية، هو موت الأبطال!

---

(١) OP. cit, P. 71 .

المـؤرخـون وجدوا تفسيرًا للانبهار " بالرجل البري " أو " الرجل المتوحش " في أن بورتون نفسه كان " رجلًا متوحشًا " في طبعه، محبًا للحرية، لا يحب كثيرًا العيش في هذا المجتمع " المؤنث " حيث لا تكافأ القوة بالسلطة! وفوق ذلك فإن الشرف كان القاعدة الأولى في حيا البدوي، وهو القاعدة الأولى أيضًا في حياة بورتون.

مـن أجل هذا اختار التعبير الفرنسي " المجتمع الليونيني " أو " المجتمع الأسدي" من أجل وصف المجتمع البدوي. وقد أشارت " فون برودي " التي وضعت إحدى أفضل السير لحياة بورتون، إلي أنه كتب عن الأسود مرتين: الأولى في كتابه "الخطوات الأولى في إفريقيا الشرقية " (١٨٥٦) حيث يرثي أمه التي عرف بوفاتها لدى وصوله إلي عدن. والثانية في " جبال البرازيل العالية " (١٨٦٩) الذي وضعه بعد استدعائه من دمشق بسبب سلوكه" المعادي للسامية ". غير أنه لم يتوقف عن انتقاد اليهود بل زاد في حملته عليهم.

وسـط ذلك كله لم ينس بورتون طبعًا أن يحلم بأن يمتد الحكم البريطانـي إلـي الجزيـرة العربية، ولذلك قدم اقتراحات كثيرة في كتبه حول " اكتساب البدو " وتجنيدهم في خدمة الإمبراطورية حيث يمكن أن يشكلوا " فرقة ممتازة من المشاة ". وفي اختصار كان بورتون في نهاية الأمر إمبرياليًا بلا حدود، متعاليًا ومتواضعًا، لطيفًا وقاسيًا، وليس معروفًا إلي الآن إن كان قد اعتنق الإسلام لكنه لم يشهر ذلك خوفًا من الحملة التي قامت عليه في لندن لمجرد أنه ادعى ذلك وانتحل شخصية أخرى. لكن الأكيد أنه ترك للغربيين ولنا شهادة دقيقة عن عالم لم يعد من عالمنا..!

وإذا كان كتابه الأشهر "الحج إلي المدينة ومكة".. قد جعل شهرته في أوروبا تجوب الآفاق.. فأن المسلمين كانوا راضين عما كتب، لأنه في مؤلفه هذا يبدو مسلمًا مؤمنًا، وصوفيًا من كبار مشايخ الصوفية، وحاجًا معتزًا بعمامته الخضراء. ويقول بيرتون أنه لم يشعر بغربة أبدًا في رحلته هذه. كما يقول برومانسية هي نتاج هـذه

الشخصية العجيبة: "أنا عربي في ملامحي، ومظهري، وأحاسيسي.. واللغة العربية هي لغتي"!

وفـي أخريات أيامه.. أنعمت عليه الملكة " فيكتوريا " بلقب " سير " تقديرًا له على جهوده العلمية في مجالات البحث والاستكشاف، ومنحته الجمعية الجغرافية الملكية ميداليتها الذهبية، كذلك حظى بتكريم الجمعية الجغرافية الفرنسية.٠

وحـل عام ١٨٩٠ ليشهد بيرتون إنسانًا قد حطمه الروماتزم. وفي صباح أحد الأيـام، وخيوط الفجر تطرد ظلمة الليل، وافاه الأجل المحتوم، وفوق رأسه علقت على الحائط عبارة من

وحي " الف ليلة وليلة ": " وعاشوا في سعادة ونعيم إلي أن وافاهم هازم اللذات ومفرق الجماعات "، وإلي جانب هذه العبارة علقت خريطة للشرق العربي وأفريقية.

وفي مقبرة مورتليك يرقد الآن ريتشارد بيرتون في ضريح بني على شكل خيمة عربية من الحجارة والرخام. الزائر لمتحف مدام توسو، متحف الشمع بلندن، يستطيع أن يشاهد تمثالًا لبيرتون بملابسه التي حج بها إلي مكة!

مشهد الكعبة.. وأجنحة الملائكة!

في أسلوب سهل، رائع.. وصف " بيرتون " مشاعره الفياضة وقد تحقق حلمه أخيرًا - برغم الصعاب والمشاق - بزيارة مكة المكرمة وأداء مناسك الحج، وسجل إنطباعاته عن هذه اللحظات والمشاهد.. فقال[1]: ".. وأخيرًا تحققت آمالي وأهدافي

التي كنت أخطط لها واستغرقت أعوامًا عديدة، ورحلتي الطويلة الشاقة لأداء مناسك الحج.٠٠ ومما لاشك فيه أن " الوسط السرابي " و" الوجد الديني " يمنحان لهذا البناء (الكعبة) وأستاره المسدلة كالطيلسان: جاذبية خاصة.. فالكعبة لا تمثل أثرًا عملاقًا أشيب كما في مصر، ولا هي أثر يتسم بالروعة البربرية كما في مباني الهند، كما أنها ليست أثرًا يتسم بالتناسق والدقة الفنية كما في آثار اليونان وايطاليا.. لقد كان مشهد الكعبة مدهشًا وفريدًا.. ويمكنني أن أقول بصدق أن من بين جميع المؤمنين العابدين المتعلقين بأستار الكعبة باكين، والضاغطين بقلوبهم على الحجر الأسود.. لا أحد أعمق مشاعر من الحاج القادم من الشمال البعيد.٠٠ لقد بدا الأمر كما لو أن الحكايات الشعرية العربية تنطق بالصدق، وأن أجنحة الملائكة هي التي تحرك أستار الكعبة.. "!

فوق جبل الرحمة:

في التاسع من ذي الحجة / الثلاثاء ١٣ سبتمبر سنة ١٨٥٣.. " بشرت المدفعية بحلول يوم عرفه " وبدأ الاستعداد لأداء شعائر هذا اليوم الهام، فتحدث بيرتون عن تطلعه لرؤية المواضع المقدسة، ووصف صخب الزحام في ذلك اليوم، وخطبة عرفات والصعود لقمة جبل الرحمة.٠٠ فقال[2]: ".. بعد أن توضأنا وصلينا صحبت الولد محمدًا لرؤية المواضع ذوات القداسة فوق جبل الرحمة. ففي البداية وصلنا لمكان في موضع مرتفع ناحية الجنوب الشرقي على مدى مائة ياردة من الجبل ويسمى هذا الموضع مسجد الصخرة[3]، نسبة إلي صخرتين (جلمودين) وقف

(١) رحلة بيرتون إلي مصر والحجاز، ترجمة: د. عبد الرحمن عبد الله الشيخ، الهيئة المصرية العامة للكتاب، الألف كتاب الثاني ١٧٧، القاهرة، ١٩٩٥، الجزء الثالث، ص ٣٦.

(٢) المصدر السابق، ص ٦١ - ٦٣.

(٣) أطلق عليه الأمير علي بك العباسي " مسجد الرحمة ".

الرسول عليهما لترديد التلبية. وليس ثمة شيء هنا سوى سور حجري منخفض مطلي باللون الأبيض يحيط بمساحة صغيرة مقسومة لقسمين أحدهما للرجال والآخر للنساء وبه محراب. ولما دخلنـا، وجدنا زحامًا من الحجاج والحراس الذين يقدمون. بمقابل. حصرًا وسجاجيد، وبعد أن صلينا ركعتين وتولنا أدعية طويلة عند المحراب زلفنا إلي القسم الداخلي وجلسنا على الصخرة ورحنا نردد التلبية.

ثـم شققنا طريقنا عبر كثير من العوائق من خيام وصخور وصعدنا درجات عريضة وعرة تنتهي إلي الوجه الجنوبي للتل الصخري (جبل الرحمة) ورغم هذه الساعة الباكرة فقد كان مزدحمًا بالحجاج خاصة من البدو والسلفيين (الوهابيين) الـذي كانوا قد استعدوا بحجز أماكن مميزة لهم لسماع خطبة عرفات. وسرعان ما رفعوا رايتهم الخضراء فوق قمة الجبل بالقرب من مصلى آدم. ويصر العرب الأكثر بداوة أن " الوقوف " يجب أن يكون فوق الجبل، أما الأكثر تمدينًا فلا يفعلون ذلك إذ يقولون أن عرفة كلها موقف وعرفة هي السهل الممتد بين العلمين **Alamayn**. ووفقًا لما ذكره علي بك فأنه لا يسمح لاتباع مذهب الأمام مالك بالوقوف فوق جبل الرحمة، وأثناء صعودي لمنتصف الجبل تقريبًا، أحصيت ستًا وستين درجة (كدرجات السلم) ولاحظت أن الدرجات بدأت تصبح أضيق وأعلى. وقد حاصر المتسولون - بالحاح - الحجاج، وكادوا يحولون بيننا وبين دخول الموضع الثاني الذي يشبه الموضع الأول إلا أنه من قسم واحد وليس به جلاميد صخرية، وهذا الموضع هو الذي تعود محمد خاتم الأنبياء أن يلقي فيه خطبة لأتباعه، لذا فأن خطيب هذه الأيام يقف في الموضع ذاته - أسوة برسول الله - راكبًا جملًا - ليلقي خطبة عرفات. وفي هذا الموضع صلينا - أيضًا - ركعتين ودفعنا مبلغًا يسيرًا للحارس.

ثـم صعدنا بصعوبة متزايدة لقمة جبل الرحمة حيث وصلنا لمنبسط ضخم مجصص، به محـراب ونصب عمودي كالسلة من حجارة جرانيتية، ويبدو المبنى واضحًا على البعد وهو مطلي بالطلاء الأبيض، ويسمى مقام آدم أو مدعى سيدنا آدم، وهنـا أدينـا الشعائـر المعتادة وسط زحام الحجاج، وبعد ذلك رحنا نهبط التل الصغير (جبل الرحمة).

وبالقـرب من سهل عرفات رأينا موضع وقوف المحمل المصري والمحمل الشامي أثناء إلقاء خطبة عرفات، ولما هبطنا السور الذي يحدد حدود عرفات من فوق درجات حجرية عالية ووعرة وضيقة. وجدنا ناحية اليمين ينبوع الماء الذي يمد عرفات بالماء، وهو ينبجس من الصخور وماؤه نقي تمامًا كماء الحجاز بشكل عام.

لقـد أفطرنا في هذا اليوم متأخرين لأننا لن نستطيع تناول طعامنا مرة أخرى إلا عند حلول الليل. وبعد الظهر توضأ بعضنا واستحم بعضنا الآخر استعدادًا " للوقوف " بعرفة. ومن الظهر فصاعدًا بدأت تتزايد أصوات تلبية الحشود ودعواتها، وبدأت جموع الحجاج تحتشد في كل اتجاه.

وأعلنـت طلقة ثانية من المدفع (في حوالي الساعة الثالثة والربع) اقتراب موعد صلاة العصر، وسرعان ما سمعنا " النوبة Naubat " أو صوت الجوقة المصاحبة لموكب الشريف وهو يشق طريقه للتل (جبل الرحمة) ولحسن الحظ فأن خيمتي كانت قريبة من الطريق لذا فقد تابعت المشهد بشكل كامل دون إزعاج.

ففـي البداية قادت جماعة من حرس الشريف من حاملي القضبان بتوسيع الطريق بإجراءات بسيطة غير معقدة - وهو ما يحدث عادة في مثل هذه المناسبات، وتبعهم خيالة الصحراء حاملين رماحًا طوالًا وأخرى قصارًا، وخلفهم مباشرة خيول الشريف التي ركزت ناظري عليها. لقد كانت هذه الخيول جميعًا من سلالات ممتازة وكان أحدها نجديًا ذا لون بني غامق وبه شامات بيض، وقد اعتبرته نموذجًا كاملًا للحصان العربي الأصيل. لقد كانت أحجامها صغيرة وبدت جميعًا - بشكل واضح من سلالات خيل الشمال.

وأقبلـت فرقة من العبيد السود مترجلة يحمل كل واحد منها بندقية ضخمة قديمة الطراز، بعد انطلاق قذيفة مدفع، وسرعان ما ظهر الشريف راكبًا في مقدمة أسرته وحاشيته مصحوبًا بثلاث رايات خضر ورايتين حمراوين. وكان الشريف يرتدي ملابس الإحرام البسيطة عاري الرأس راكبًا بغلة، وليس من شيء يدل على مكانته سوى مظلة كبيرة مشغولة بخيوط ذهبية وأخرى خضراء يظلله بها أحد العبيد.

وخلـف الشريف وأسرته وحاشيته توجد كتيبة أخرى من البدو من راكبي الخيول وراكبي الجمال. وخلف الموكب ظهرت الخيام التي لا تكاد ترى مداخلها وقواعدها من فرط الزحام، وخلفية المشهد تل جرانيتي مغطى بالحجاج ذوي الملابس البيض يصيحون: " لبيك اللهم لبيك " ويحركون أطراف أرديتهم بشدة فوق رؤوسهم.

وتقـدم موكب الشريف بتؤدة ووقار نحو التل (جبل الرحمة) وساعة العصر تمامًا كان المحملان Mahmils قد اتخذا موقعيهما جنبًا إلى جنب فوق منصة حجرية عند المنحدر المنخفض. وكان يمكن تمييز المحمل الدمشقي بأن أضيق وأكثر زينة. واتخذ الشريف مع حاشيته مكانًا يرتفع عن مكان المحملين بقليل عند سماع خطبة الوقفة، وتزاحم الحجاج عند سفح جبل الرحمة، وشقت تلبية البدو والسلفيين (الوهابيين) الصمت الوقور، وتوقف الحجاج عن تحريك أرديتهم فوق رؤوسهم، إشارة إلى ان الخطيب قد بدأ خطبته (خطبة الوقفة). ومن خيمتي كان يمكنني تمييز هيئة رجل عجوز راكبًا فوق جمله (يقصد الخطيب) ولكن المسافة الكبيرة بيني وبينه حالت بيني وبين سماعه. فكيف تأتيني عظاته وأنا في خيمتي. ان اعترافًا موجزًا سيفسر هذا. انهم سيحلونني من خطاياي، فهم يؤمنون بما ذكره سبنسر Spenser في أشعاره:

إذ تصبح كل روح أكثر شفافيـة ونقـاء ويغمـرهـا نـور قدسـي بـاهـر

فيسعى كل جسد جميـل ليضمهـا إليـه

وخطبـة الوقفة تستغرق دائمًا حوالي ثلاث ساعات إذ تستمر حتى المغرب. وفي البداية يتحدث الخطيب، والجميع في صمت عميق، ثم يرفع صوته ويؤمن الحاضرون ثم يكثر من التلبية دون فاصل بين تلبية وأخرى، وأخيرًا تصل غلي مسامعنا صيحات مطالبة بالرحمة والتطهر من الآثام والبكاء والصراخ، وحتى رفاقي بدوا متأثرين فعلى العجوز راح يعتصر عينيه ويذرف الدموع، ولم تكن دموعه في هذا الموقف مرتبطة بالدولارات، فأية كمية منها لم تكن قادرة على إنزال الدموع من عينيه حتى لـو

كانت دموع التماسيح. أما الولد محمد فقط غطى وجهه بطرف ردائه - بحكمة. وسرعان ما استنفد الانفعال طاقات الحجاج فشرعوا يهبطون جبل الرحمة في جماعات صغيرة. • •

ورغـم إننا بذلنا كل جهدنا إلا أن دوابنا لم تكن جاهزة للحركة قبل الغروب عندما أعطى الخطيب أمره بالنفرة فاختلط الحابل بالنابل وماجت عرفات كالبحر يعلوه الزبد الأبيض، وراح الجميع يجيئون ويروحون ويربك كل واحد طريق الآخر، وراح الجميع يهبطون من فوق جبل الرحمة ملبين: " لبيك اللهم لبيك " في هدير شديد، واتخذ الجميع طريقهم صوب منى.

في مدينـة النبـي :-

وحـول انطباعاته عن " المدينة المنورة " أو " مدينة النبي " كما وصفها بعض الرحالة الأوروبيين.. تحدث الرحالة والعالم الجغرافي "بيرتون"[1] عن قداسة المدينة والمكانة الرفيعة للمسجد النبوي، مشيرًا إلي أن بعض المسلمين يعتقدون أن المدينة المنورة أعلى مرتبة روحية من مكة المكرمة، وأن النبي قد فضل المدينة " دار الهجرة " وباركها كما بارك إبراهيم مكة.. وأهل كل من المدينتين يتباهون بالشرف الذي حازته مدينتهم!

و وصـف لنا عمارتها وجبالها وأوديتها ودروبها، وعادات أهل المدينة وتفاصيل حياتهـم اليومية. وقد استضافه " الشيخ حامد " في منزل بحي " المناخة " ويقول: " رغم أن منزل الشيخ حامد لم يكن واسعًا، إلا أن المناظر المتباينة التي تبدو من نوافـذ (المقعـد) تجعل منه مكانًا حيويًا، فناحية الشرق تشرف على ميدان بر المناخة وسور المدينة وما خلفه من منازل والباب المصري ومآذن الحرم النبوي وجبل أحد على البعد، من ناحية الشمال ترى مسجد محمد صلى الله عليه وسلم وجزءًا من جدار الحصن.

الطبقـة العليا في مجتمع المدينة تأثرت بالفخامة التركية والمصرية في معيشتها، أما مساكن الفقراء فمتشابهة.. وبيت الشيخ حامد هادىء ومقبول، ولم تقع عيني على وجه امرأة عدا الجاريتين الزنجيتين اللتين لم تتخليا عن مظاهر الحياء والاحتشام.

---

(١) عرفة عبده علي: دار الهجرة في عيون الرحالة الغربيين، مجلة الحج والعمرة، السنة الثامنة والخمسون، العدد الثالث، ربيع الأول ١٤٢٤ هـ/ مايو ٢٠٠٣، ص ٦٦.

وعنـدمـا يطلع الفجر، كنا نغتسل ونصلي ونتناول شيئًا من الخبز اليابس، ثم نشرب فنجانًا من القهوة، بعد ذلك نرتدي ملابسنا لزيارة الحرم النبوي وغيره من الأماكن المقدسة الأخرى، ثم نعود قبل أن يستعر لهيب الشمس، نجلس لتناول أقداح القهوة والماء البارد المعطر بالمستكة إلي أن يحين موعد الغداء، حيث نتحلق حول صينية عامرة باللحوم والخضروات المطبوخة والأرز المسلوق الذي نتناوله بالملاعق، ثم الفاكهة خاصة الأعناب والبلح والرمان.. ويطيب ليل المدينة عندما يرش الأهالي الماء أمام منازلهم، حيث تعقد مجالس مرحة فوق حصر مفروشة أمام الأبواب!

وعن السمات الرئيسية لتكوين المدينة المنورة، قال بيرتون[1]:

" تتكـون المدينة المنورة من ثلاثة أجزاء: المدينة ذاتها، والقلعة، وضاحية مساحتها أصغر بقليل من إجمالي مساحة الأجزاء الثلاثة. والمدينة ذاتها أكبر من السويس بحوالي الثلث، أو نصف مساحة مكة تقريبًا، وللمدينة سور بيضاوي غير منتظم، به أربع بوابات والباب الشامي في الجانب الشمالي الغربي للسور يفضي إلي جبل أحد وقبر حمزة - رضي الله عنه - والجبال.

وبـاب الجمعة في السور الشرقي يفضي إلي الدرب النجدي (الطريق المؤدي لنجد) ومقبرة البقيع، وبين الباب الشامي وباب الجمعة تجاه الشمال، يوجد باب الضيافة أما الباب المصري فيقع إلي الغرب ويفضي إلي سهل يسمونه بر المناخة، والبابان الشرقي (باب الجمعة) والمصري قد شيد عليهما مبنيان ضخمان جميلان، لكل منهما برجان متقاربان دهنا على شكل أشرطة عريضة حمراء وصفراء وألوان أخرى، وهذان البابان لا يبعدان في شكلهما عن المدخل القديم لقلعة (صلاح الدين) في مصر.. ويمكن مقارنة هذه البوابات بأبواب القلاع النورماندية ذوات الأبراج.

ويقيـم المعسكر داخل هذه الأبراج حيث الظل والماء الوافر، وداخل هذه الأبراج أيضًا يتسامر الجمالة ويتجمع الناس الذين لا عمل لهم ليستمتعوا بالجو البارد والصحبة الأنيسة، وخلف هذه البوابة يوجد سوق كبير في الشارع المؤدي للمسجد النبوي، وخراج هذا الشارع يوجد سوق الخضرية، وسوق الحبانية، وتتناثر المقاهي الجميلة وهذه الأسواق عبارة عن صفوف طويلة من أكواخ شيدت من الجريد وقد أسودت لطول تعرضها للشمس والريح، ويشكل منظرها تناقضًا حادًا مع منظر البوابات، وبين هذه الأكواخ توجد مبان مقببة (لها قباب) ومطلية باللون الأبيض، أخبروني أنها أسبلة ماء. وفي أيام الرسول صلى الله عليه وسلم لم تكن المدينة المنورة مسورة، وحتى في أيـام

الإدريسي (القرن الثاني عشر الميلادي)، بل وحتى أيام فارتيما Vartema (القرن الثامن عشر

(١) المصدر السابق، ص ٦٦ - ٦٨، راجع أيضًا: رحلة بيرتون إلي مصر والحجاز، مصدر سابق، الجزء الثاني، ص ٩٦ - ٩٧.

الميلادي).. كانت التحصينات والأسوار من الطين، وكان قد أقامها قاسم الدولة الغوري الذي أعاد تسكينها وإعمارها، أما الآن فأن السور في حالة ممتازة، فهو مبنى من الجرانيت والكتل الصخرية البركانية، صف بعضها بإحكام وثبتت بالجبس. وقد زود السور بعدد من المزاغل أو المتاريس، والمزغل أو المتراس عبارة عن كوة أو فتحة طولية، والشراريف فتحات تتخذ الواجدة منها شكل ثلاث من أوراق الشجر، لاستخدامها في إطلاق النار، وأبراج نصف دائرية قد زودت أيضًا بفتحات طولية وكوات منظمة بحيث تكون المسافات بينها قصيرة وغير متساوية. وفي الداخل نجد الشوارع - ما هو متوقع دائمًا في هذه البلاد الحارة - مظلمة وضيقة، وليست مرصوفة إلا في مواضع قليلة، وهي مغطاة بشكل عام بأتربة سوداء قد رشت بالماء جيدًا ودكت بعناية لتكون صلبة، وأفضل الطرقات وأكثرها تلألؤًا هي التي تؤدي إلي المسجد النبوي، ولا يوجد إلا القليل من المباني العامة، والوكالات الرئيسية أربع: إحداها وكالة باب السلام بالقرب من الحرم النبوي، والأخرى وكالة جبرتي وكلتاهما داخل الباب المصري ويمتلكهما عرب من أهل المدينة. وتستخدم خانات القوافل بشكل أساسي كمخازن، ونادرًا ما تستخدم مقرًا للإقامة كما في خانات القاهرة، لذلك لابد أن يستأجر المسافرون منازل بمبالغ باهظة أن ينصبوا خيامًا ويتحملوا عناء الإرهاق والإزعاج البالغ والمباني العامة الأخرى عبارة عن مقاه قليلة بائسة، وحمام رائع في حارة زروان داخل المدينة المنورة يتفوق كثيرًا على منشآت القاهرة، ففيه من فخامة وترف منشآت استنبول بعض الشيء. والمنازل في الناحية الشرقية حسنة البناء مسقوفة بسقوف مستوية، ومن طابقين، والمواد المستخدمة في البناء عادة هي خام البازلت والطوب الأحمر وجذوع النخل، وأفضل المنازل تلك التي تحيط بها باحات وحدائق صغيرة بها آبار، حيث تسر عيون ملاكها بمناظر أحواض الماء والنخيل، والمشربيات التي وقعت عليها عيون سكان البر الأوروبي لأول مرة في مالطة شائعة هنا، أما النوافذ فمجرد فتحات في الجدران مزخرفة بالزخارف العربية المعتادة في المدن العربية.

المسجد النبوي الشريف[1]:

هـذا المسجد الذي يحظى بالتبجيل والتوقير من كل مسلمي العالم، يبدو بسيطًا متواضعًا في مظهره المعماري، وهو متوازي الإضلاع، طوله نحو ٢٤٠ قدمًا، وعرضه ٣٤٠ قدمًا، يتوسطه صحن تحيط به أربعة أروقة ذات أعمدة رخامية تعلوها عقود مزخرفة ن وبطول الجدار الشمالي يوجـد الرواق المجيدي (نسبة إلي السلطان عبد المجيد)، أما الجدار الغربي فعنده رواق " بوابة الرحمـن "، وفي الجدار الشرقي " بوابة النساء "، أما الجدار الجنوبي فيحوي أكثر المواضع قداسة في المسجد وهي " الروضة الشريفة ".

---

(١) عرفة عبده علي.. مصدر سابق، ص ٦٨.

وقـد بدأنا الدخول بالقدم اليمنى لنخطو أما خط " المواجهة الشريفة " مرددين الدعوات التي كان يدعو بها الشيخ حامد.. عن شمالي، حائط منخفض مزخرف بنقوش عربية به أربعة أبواب صغيرة، يمكن العبور منها إلي الداخل حيث المحراب النبوي والمحراب السليماني والمنبر، وكلا المحرابين من الفسيفساء الجميلة بألوان مختلفة، والمنبر من الخشب الأرابيسك الرائع.. ومن الباب الغربي الصغير، دخلنا إلي الموضع الشهير بـ " الروضة الشريفة ".. وإلي الشرق ضريح النبي محمد صلى الله عليه وسلم، محاطًا بمقصورة من الخشب الخرط البديع.

والمشهـد الذي يثير الإعجاب ليلًا، تلك الأنوار المنبعثة من الزجاج الملون في الجدار الجنوبي، والنحاس المشغول الأصفر أو المطلي باللون الأخضر، وتنبهر العيون من أضواء القناديل وأنوار الشموع الضخمة.. ومن تعمق في روح الشرق سيدرك معنى " الفردوس " الذي قصده المعماري!!

والضريـح أو " الحجرة " كما يطلق عليه، كانت أساسًا غرفة السيدة عائشة، يفصلها عن المسجد ممر عرضه نحو عشرين قدمًا، ويحيط به إحاطة كاملة سياج معدني مزخرف بكتابات وأشكال نباتية رائعة، به أربعة أبواب: باب المواجهة، باب فاطمة الزهراء، باب التوبة، والباب الشامي، وهو الوحيد الذي يفتح لدخول الطواشية لتنظيف الأرضية وإضاءة القناديل ورفع الهدايا التي يلقي بها بعض الزائرين.

وفـي الجزء الجنوبي من السياج، توجد ثلاث طاقات ترتفع عن الأرض نحو خمسـة أقدام، الأولى تواجه ضريح محمد صلى الله عليه وسلم، وتشتهر بـ " شباك النبي "، والثانية تطل على ضريح أبي بكر، والثالثة على ضريح عمر بن الخطاب، وتعلو الحجرة الشريفة قبة خضراء، يرتفع عليها هلال ضخم مذهب.. والخيال المتوهج لبعض المسلمين جعلهم يتصورون أن هذا الموضع يصعد منه " نور رباني " يهدي خطي الحجيج على بعد مسيرة ثلاثة أيام من المدينة المنورة.

ألماني.. في زي مغربي!

ولد "هنريش مالتزن Heinrich F.Von Maltzon " بمدينة "درسدن" بألمانيا عام ١٨٢٦م ودرس القانون بجامعة "جينا".. في سن الخامسة والعشرين ورث عن والده ثروة طائلة ـ وكان عاشقًا للترحال ـ فجعلته هذه الثروة أكثر قدرة على اتساع مدى أسفاره، فطاف بعدة بلاد في الشرق الأوسط، وبهره سحر الشرق[1].

عقب عودة العالم والرحالة البريطاني الشهير "بيرتون" من رحلة الحج إلى مكة المكرمة عام ١٨٥٣م، التقى "فون مالتزن" في فندق "شبرد"[2] بالقاهرة، وكان هذا اللقاء مشجعًا لفون مالتزن في تطوير أفكاره ومشروعاته، غير أن أمضى سبع سنوات من أجل اتقان اللهجة المغربية، ويتعرف جيدًا على العادات والتقاليد الإسلامية، وازداد رغبة في زيارة قلعة الإسلام "مكة المكرمة".

في زي مغربي، استقل مالتزن باخرة من ميناء الجزائر في طريقها إلى مارسيليا، ثم مالطة، ومنها إلى الاسكندرية.

في القاهرة، وبالتحديد في حي "النحاسين" تصادق مع مصري عجوز يدعى "الشيخ مصطفى" الذي كان عازمًا على الحج أيضًا، وعبر رحلة نيلية وصلا إلى ميناء "القصير" على ساحل البحر الأحمر، مستعينًا بوصف كل من بيرتون وبوركهارت، وصلت السفينة إلى ميناء

٢- كان هذا الفندق واحدًا من أشهر معالم القاهرة، أسسه "صامويل شبرد" عام ١٨٤٩م في موقع مدرسة الألسن التي كانت جزءًا من قصر الألفي بك، واتخذه نابليون مقرًا لقيادة الحملة الفرنسية في مصر، وحاز هذا الفندق شهرة عالمية، واحترق في يوم "حريق القاهرة" في ٢٦ يناير ١٩٥٢م. يراجع: حسام إسماعيل "مدينة القاهرة من عهد محمد علي إلى عهد إسماعيل"، دار الآفاق العربية، القاهرة، ١٩٩٧م.

---

(١) Robin Bidwell: Travellers in Arabia, P. 126 .

(٢) Robin Bidwell: op.cit. P. 126 .

"ينبع" ومنها إلى "جدة" المحتشدة بأجناس من البشر، حيث وجد فندقًا بسعر رخيص لا يصدق، وبعد أن استفاق من نومه، اكتشف أن جيرانه هم من دراويش الصوفية الذين أزعجوه بصيحاتهم وأذكارهم طوال الليل![1].

كان مالتزن سعيدًا بصحبة الشيخ مصطفى.. وعلى البعد شاهد مدينة مكة المكرمة فى الفجر "كتلة رمادية ليس لها حدود" انطلقت صرخات الفرح من جموع الحجيج.. "كل حجر فى هذه المدينة مقدس، قبلة جميع المسلمين حيث الكعبة الأكثر قداسة فى العالم، بيت الله على الأرض.. لم يكن هناك إنسان لم يهتف "لبيك اللهم لبيك" يطلقونها مدوية كالرعد"!

أثار مشهد الكعبة وطواف الحجيج مشاعر غامضة لدى مالتزن الذى شبه المسجد بـ"قلعة كبيرة للشياطين"![2].. وبدت له شعائر الحج "مملة وشاقة"!.. واستاء من الحالة المزرية للحجر الأسود!.

لكنه وصف مشهد المؤمنين "الصادقين"، فكتب: "كان الجميع يرفعون أذرعهم بشوق نحو الكتلة السوداء، فى ضراعة، خروا ساجدين، غطوا رمال الحرم بقبلات حارة، الجميع عبروا عن عواطفهم بكل وسيلة ممكنة، ولكن ليس على طريقة الأوروبيين الذين يعانق بعضهم عندما يملؤهم الحبور، فى هذه اللحظات المقدسة ينسى المسلم كل ما حوله وكذلك رفاقه، لا يفكر إلا بالأشياء المقدسة المنظورة وغير المنظورة!

قضى مالتزن اثنى عشر يومًا فى مكة المكرمة، مقيمًا فى بيت بالحى الشمالى الغربى.. وشاهد هرولة الحجيج وقد غلبتهم الحماسة الدينية، ما بين الصفا والمروة، وشاهد الكعبة من دون كسوتها، ولم يرغب فى الوصول إليها، إلا أنه اختزن فى ذاكرته مشاهد الطقوس الدينية و.. "نهر بشرى يجرى أمامه متنوع الأجناس متعدد الألوان.. صورة مميزة للعادات ولون البشرة والثياب والتدرج غير المتناهى فى المراكز الاجتماعية، وفى التناقضات الاجتماعية الأكثر غرابة!

ووصف مالتزن مخيم الحجيج فى عرفات.. "المضاء بمصابيح صغيرة ويزدان ببالونات ملونة، وتتوهج نيران لا حصر لها أمام الخيام". وفى الصباح راقب أشعة الشمس المتألقة المنعكسة على سفوح الجبل المقدس الجرانيتية، وكانت صحة صديقة الشيخ مصطفى تتدهور إلى أن وافته المنية قبيل سماع خطبة عرفات بساعات.. و"كان تاج الشهادة يمنح للذين يموتون فى الحج"!

كانت "لبيك اللهم لبيك" تتردد أصداؤها فى كل جوانب عرفات، والجميع فى ذروة حماسهم "إلا أن الملل قد أصابه كالمعتاد" وعقب انتهاء الخطبة، نزل الحجاج عن الجبل كسيل

---

(١)أغسطس رالى: مسيحيون فى مكة، ترجمة: رمزى بدر، دار الوراق للنشر المحدود، لندن، ٢٠٠٧م، ص ١٨٤ ـ ١٨٦.

(٢)المصدر السابق.

عارم، واحترق إحرام مالتزن بسبب أحد المشاعل.. و"بعد رجم الشيطان بالحجارة" كان تواقًا للعودة إلى مكة المكرمة من أجل الحصول على "متعة الحمام" وراءه ازدحام حوانيت الحلاقة..

كان مالتزن يخشى لدى وصوله إلى الحمامات، أن يكون بعض الجزائريين قد سبقوه، وقد حدث وسمعوا مرشده يعرفهم عليه باسمه المستعار "سيدى عبد الرحمن بن محمد السكيكدى".. حملقوا فيه ولم يتعرفوا عليه، وبسرعة حامت شكوكهم حول لهجته المغربية، وجرى حديث هامس مع مرشد مالتزن: ما رأيكم بأمير الجزائر هذا ؟!.. "لابد أنه مسيحى"[1]!.. وسمع مالتزن الحوار كله واستشعر حجم الكارثة عندما سمع كلمة "مسيحى" وقبل أن يكشف الجزائريون أمره إلى السلطات المحلية، كان قد نجح فى الفرار من مكة المكرمة، بعد أن ترك متاعه، وتخلى عن رحلته إلى المدينة المنورة، ووصل إلى جدة ـ بعد أن استأجر بدويًا وحماره ـ خلال أربع عشرة ساعة.

عاد مالتزن من رحلته إلى مكة المكرمة وفى ذهنه صور شتى عن المدينة المقدسة، والكعبة بأستارها السوداء، وأمواج من البشر تصطخب حولها، والحماسة التى كانوا يمارسون بها الشعائر.. لكن من غير شك، أنه تظاهر بالإسلام، إذ كان على قلبه غشاوة منعته من تقبل الإسلام.. وقضى بقية حياته فى التنقل بين ربوع أوروبا، وعانى طويلًا من آلام عصبية، حتى سنة ١٨٧٤م عندما أنهى حياته بيده!

---

(١) أغسطس رالى: مسيحيون فى مكة، ص ١٨٧-١٨٨.

بريطاني.. غير متنكر!

ظلت منطقة الحجاز ـ خاصة فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر ـ مطمحًا للرحالة الغربيين، فدخل بعضهم المدينتين المقدستين متنكرين فى مواسم الحج؛ للتعرف على هذين المركزين اللذين كان لهما الأثر العظيم فى تاريخ الإنسانية.

كان البريطانى "هيرمان بيكنل – H. Bichnell" الوحيد الذى زار مكة المكرمة غير متنكر، وبملابسة الأوروبية، ولم يُخف جنسيته، وكانت معرفته بقواعد الإسلام، والعادات والتقاليد الإسلامية سببًا فى أن يخالط الحجيج من جميع الجنسيات دون أدنى ملاحظة.

فى عام ١٨٣٠م، ولد الرحالة المستشرق "بيكنل".. درس فى باريس ثم فى جامعة هانوفر، إلى أن أصبح طبيبًا جراحًا بمستشفى "سانت بارثولوميو" فى لندن، قام برحلة إلى جاوه والتبت وجبال الهملايا، وشارك فى حملة إلى مناطق القطب الشمالى وجبال الإنديز، ورحل إلى بلاد فارس وترجم أشعار "حافظ الشيرازى"[١]!

فى القاهرة، قضى بيكنل الشهور الأولى من عام ١٨٦٢م، وفى الثانى والعشرين من إبريل استقل من "السويس" باخرة تحمل "كسوة الكعبة المشرفة".. بعد يومين ارتدى ملابس الإحرام "الحجيج على الباخرة ليس لهم من شاغل سوى الصلاة والدعاء". فى السادس والعشرين من إبريل وصل إلى "جدة".. جذب الجزيرة العربية أصابه بصدمه، كثبان رملية وتلال صخرية، وبريق الماء فى الميناء يلون أشرعة قوارب الصيد الصغيرة باللون الزمردى الأخضر.

كان بيكنل على قناعه بأنه من صالح الإمبراطورية البريطانية أن يكون لدى أكبر عدد من الإنجليز معرفة بالإسلام، والتى سوف تأتى عن طريق الحج[٢]؛ لهذا تظاهر بيكنل بالإسلام،

(١) Robin Bidwell: Travellers in Arabia, P. 126.

(٢) OP. cit. P. 127.

وبقى مرتديًا ملابسه البريطانية طوال أغلب رحلته، بالرغم من أنها لا تلائم طقس الجزيرة العربية.

بعد رحلة دامت عشرين ساعة، وصل إلى مكة المكرمة، وذهب مباشرة إلى المسجد الحرام الذى ذكره بـ"القصر الملكى فى باريس"[١]... بناء مربع واسع غير مسقوف، فى وسطه انتصب بناء مكعب من الحجارة الضخمة".. قبل بيكنل الحجر الأسود وأدى شعائر الحج، إلا أنه أعفى نفسه من الرحيل إلى المدينة المنورة بسبب حرارة الجو، ووصف بيكنل مشهد الحجيج فى يوم عرفة "خيام ٨٠ ألف حاج تنتشر على مسافة ثلاثة أميال على منحدرات وسهول عرفات، وبعد رمى الجمرات وذبح الأضاحى، رحل بيكنل إلى جدة، بعد أن طلب من بعض الحجيج أن يدعو له فى المسجد النبوى بالمدينة المنورة..ووصف دليله فى مكة المكرمة بالكرم والخلق الطيب، وقال إنه "وعده بمعاملة الإنجليز عامة بنفس المعاملة الكريمة التى لقيها منه".. وأشار بيكنل إلى أن الرحالة الأوروبيين السابقين قد خلقوا لأنفسهم مشاكل بارتكابهم بعض الأخطاء، وذلك بذهابهم إلى هناك متنكرين، ولابد للزائر أن يكون مسلمًا أو "يتظاهر على الأقل بذلك"!.. وأن يحمل اسمًا عربيًا ـ أطلق بيكنل على نفسه: الحاج عبد الواحد [3] ـ وأن يكـون على معرفة جيدة بالصلوات وسائر العبادات والتعبيرات الإسلامية، وكتب[٢]: "إننى متحمس لتشجيع إنجليز آخرين، خاصة من يأتون من الهند، لأداء الحج دون أن تؤخرهم التقارير المبالغة بشأن مخاطر هذا المشروع".. ويقرر أن السلطات المحلية ستكون غير قادرة على حماية من يعلن أنه غير مسلم؛ "فاليهودى الذى اكتُشف أمره صلبته الجماهيـر فورًا "![٣].

---

(١) OP. cit. P. 127 .

(٢) مسيحيون فى مكة: مصدر سابق، ص ١٩٠-١٩١.

(٣) فى ٢٥ أغسطس عام ١٨٦٢م نشرت بجريدة "التايمز" اللندنية رسالة بعنوان: "الحج إلى مكة" بتوقيع الحاج محمد عبد الواحد.



الرحالة والمصور الفرنسي :
كورتلمون .. ورحلته إلي مكة المكرمة

كثير من الرحالة الأوروبيين استهوتهم " جزيرة العرب " بسحرها وغموضها، وهاموا في قفارها، حتى أصبحت أخبار رحلاتهم جزءًا من أساطير الجزيرة العربية.. غير أن ما قام به هؤلاء الرحالة – في إطار الجهود العلمية – قد أسهم في التعريف بتاريخ جزيرة العرب.

وقد قام هؤلاء الرحالة برحلاتهم – تسبقهم أهداف محددة سلفًا – فمنهم المكلف بمهمة سياسية، فتظاهر بالإسلام، ولما عاد إلي بلاده نشر ما شاهده، ومنهم من كان مدفوعًا برغبته في حب الاستطلاع وإشباع غزيرة الفضول الفطري لدى الإنسان!

والرحالة والمصور الصحفي الفرنسي " جيل جرفيه كورتلمون – Jules Gervais Courtellemont ".. أحد الرحالة الأوروبيين القلائل الذين استطاعوا الدخول في حرم مكة والمدينة المنورة.. فضلًا عن استخدامه الكاميرا.!

وبهذه الخصوصية، سعى كورتلمون إلي الارتقاء بالصور المكتوبة – في يوميات رحلته – إلي مستوى الصور التي تلتقطها الكاميرا!.. وقد رحل كورتلمون من أجل جمع معلومات عن ظروف الحياة التي يعيشها الحجاج المغاربة القادمون من المستعمرات الفرنسية، ودراسة الأثر الروحي الذي تحدثه مناسك الحج في نفوس الحجيج عقب عودتهم إلي بلادهم.. ومن المثير، أنها نفس الأهداف التي تحرك من أجلها الفرنسي " ليون روش " سنة ١٨٤١ من أجل جمع المعلومات عن الحج وتأثيراته على الحجاج الجزائريين والهولندي " سنوك هورجرونيه " سنة ١٨٨٧ الذي رصد نشاطات الحجاج الأندونيسيين الوافدين إلي مكة والمدينة، وأثر الحج في نفوسهم، كذلك كانت مهمة الضابط الروسي " دولتشين " سنة ١٨٨٩ الذي جمع معلومات شاملة ومفصلة عن الحج وأثره في المسلمين من رعايا روسيا.!

صفحات من سيرته :

ولد كورتلمون في " افون " في الأول من يوليو سنة ١٨٦٣[(١)]، من أسرة ميسورة الحال، وعقب وفاة والده " فيكتور جرفيه " اقترنت والدته هيلين – عازفة البيانو – بضابط فرنسي، ابن ضابط في جوقة الشرف " لويس الفونس كورتلمون ".

رحلت الأسرة إلي الجزائر سنة ١٨٧٤[(٢)]، ستقرت في " جلزان " وهي منطقة صحراوية قاحلة بالقرب من الجزائر العاصمة، ثم انتقلت الأسرة إلي منطقة " مينه " بعد تقاعد رب الأسرة من سلك الجندية، الذي اتخذ قطعة أرض جعل منها مزرعة خاصة، وتوطدت أواصر الألفة بين الأسرة وأهل القرية الفقراء!

حلت بالأسرة كارثة زراعية فقدت على أثرها كل شيء، ولم يبق للضابط القديم إلا راتب التقاعد، فانتقل " جيل " إلي الجزائر العاصمة لدارسة التلغراف، وشرع في دراسة الإسلام، وقد وجد نفسه في مجتمع إسلامي منذ وصوله إلي الجزائر[(٣)] وبدأ يتعرف إلي رواة السير الشعبية، وبمجرد أن ينتهي من عمله في المساء، كان يعقد " حلقة القراءة " اليومية التي تجمع أصدقائه من مختلف الطبقات، بالرغم من أنه لم يتجاوز الخامسة عشرة من عمره.. لكنه كان شغوفًا بالمعرفة!

ارتبط جيل بعلاقة طيبة مع زوج أمه، حتى أنه قرر الاحتفاظ باسمه وأصبح يوقع " جرفيه كورتلمون[(٤)]".. وكانا يترددان على جمعية " كونكورديا " التي ضمت الأدباء والمثقفين وعلية القوم في الجزائر، وكانت الجمعية تنظم محاضرات في الصحافة وفن المسرح وفي المعاملات التجارية، كما كانت تنظم العروض المسرحية والحفلات الموسيقية في أيام الأجازات[(٥)].

توفى زوج والدته عام ١٨٩٠ وكان جيل يزاول التصوير – الذي كان فنًا جديدًا في ذلك العصر – فأصبح مهنته التي يتعيش منها، وافتتح ستوديو ومعرضًا لتصوير في شارع " الألوان الثلاثة [(٦)]"!.

أسس جيل دارًا للنشر ومجلة " الجزائر " المصورة، نصف شهرية، ثم شهرية عام ١٨٩١،

---

(١) Courtellemont, Guy: Le Pionnier Photographe de Mohamet, Lacour, 1994, P.7 .

(٢) جيل كورتلمون: رحلتي إلي مكة، ترجمة: د. محمد محمد أحمد الخناش، مؤسسة التراث، الرياض، ١٤٢٣ هـ ص ٩.

(٣) Bidwell, R.: OP. Cit, P.130 .

(٤) Courtellement, Guy: le Pionnier.. OP. Cit. P.9 .

(٥) رحلتي إلي مكة.. مصدر سابق، ص ١١.

(٦) المصدر السابق، ص ١٢.

والتي نشر فيها دراسات لكبار مفكري عصره، وصورًا من رحلاته داخل الجزائر، والقاهرة والقدس ودمشق.. وأصبحت هذه الصور – وثائق تاريخية – ثبتت لحظات في زمان هذه المدن وصحارى الشرق في نهاية القرن التاسع عشر!

قبيل رحلته إلي مكة عام ١٨٩٤، اقترن بـ " هيلينا " ابنة صديقه المحامي، شارل لالمان، وعقب الرحلة، وضعت قرينته ولدًا أسماه " عبد الله "!

ظل جيل كورتلمون شديد التحفظ بالنسبة للأسباب والظروف التي دعته لاعتناقه الإسلام، وسمى نفسه: الحاج " عبد الله بن البشير ".. ولكن اعتناقه للإسلام كان موضع شك من أولئك الذين لاحظوا عدم التزامه التام بتعاليم الإسلام!

المعرفة العلمية التي امتلكها جيل عن العالم الإسلامي، خاصة البلاد الإسلامية الواقعة في حوض البحر المتوسط، من " طنجة " إلي " القسطنطينية " التي جابها بكاميرته، مستعرضًا جلال الماضي وروعة الحاضر.. شواهد أمجاد العرب، وحياة الناس في تفاصيلها اليومية.. وبقي له – طموح واجد – أراد أن يحققه وهو تقديم وصف لمكة المكرمة " عاصمة المسلمين الروحية[١] "..

والتقت روح المغامرة الكامنة في نفس كورتلمون، وطموحه الذي لا يحدث شيء، مع رغبة المسئولين الفرنسيين في الكشف عن مكنون: الدور السياسي الكبير الذي يؤديه الحج[٢]!

وعرض كورتلمون مشروعه على الحاكم العام بالجزائر، الدبلوماسي " جول كومبون[٣] " الذي تولى منصبه عام ١٨٩١ حتى عام ١٨٩٧ عندما عين سفيرًا لفرنسا في واشنطن.. ثم سفيرًا في مدريد، ثم برلين.. وشارك في توقيع " معاهدة فرساي " الشهيرة.. كان جول كومبون يرغب في كسف ود الجزائريين وتعاونهم.. وهو الذي كان مسئولًا عن تنظيم وحماية قافلة الحج الجزائري.. كان عليه أن يتعرف على العقيدة الإسلامية، والعالم الإسلامي، وبخاصة هذه " العاصمة الدينية " التي يتوجه إليها الآلاف من الجزائريين كل عام، فنظر إلي هذه المهمة في إطار توجه سياسي محوره: أن هؤلاء الحجاج كانوا يعودون من مكة المكرمة – حاملين لقب حاج – الذي يخولهم " سلطة روحية " على أهل البلد.. نفوذ أخلاقي واجتماعي يسهم في تنظيم حياة الجزائريين.. ويسهم أيضًا في تأجيج روح " الجهاد " ضد الفرنسيين[٤]!

---

(١) Courtellemont, Guy: Le Pionnier.. OP.cit. P. 19 .

(٢) Bidwelle, R., OP. Cit., 130 .

(٣) رحلتي إلي مكة.. مصدر سابق، ص ٤٠، راجع أيضًا Courtellemont, Guy: OP. cit, P.10

راجع د. بلقاسم سعد الله: فرنسيان في الحجاز، مجلة المنهل، جدة، ١٤١٧ هـ/ ١٩٩٦، ص ٧٦ – ٨٥.

(٤) رحلتي إلي مكة.. مصدر سابق، ص ١٦

مـا بين عام ١٨٩٥ وعام ١٩١٤، قام كورتلمون برحلات إلي الهند والصين وبورما وكمبوديا، ومدغشقر، ودول أوروبا، وزار تركيا ثلاث مرات: عام ١٩٠٧، وفي عام ١٩٠٨ حيث عايش ثورة شباب الاتراك ضد السلطان عبد الحميد الثاني، ومنها إلي مصر، ثم في عام ١٩١٠ حيث عايش تدشين مشروع سكة حديد دمشق – الحجاز.. وهو صاحب أقدم صور " ملونة " للمسجد النبوي[١].

عقـب أن وضعت الحرب العالمية الأولى أوزارها، قام كورتلمون بإلقاء محاضرات في فرنسا والولايات المتحدة الأمريكية عن فن التصوير ورحلاته في بلاد الشرق، وحتى عام ١٩٣١، قدم آلاف الصور الملونة عن تداعيات الحرب ومعالم البلاد التي زارها، ونشر إنتاجه ومقالاته في عدة دوريات عالمية منها:

تـوفـي كورتلمون في يوم السبت ٣١ أكتوبـر عـام ١٩٣١، وكـان قـد أوصـى بـأن يدفـن بثـوب الإحرام، ووضعت في يـده: حلقـة فضيـة بداخلـها الرسالـة الـتي تسلمهـا مـن مفـتي المالكـية بمكة المكرمة وفحواها أن " عبد الله بن بشير مسلم حقيقي، لا يبتغي في سبيل ذلك إلا وجه ربه"!

في الطريق إلي مكة :-

" لقـد أردت ولوج أسرار هذه المدينة، ليس فقط لتلبية رغبة جامحة لرحالة، ولكني كنت مدفوعًا برغبة إكمال دراستي الشاملة عن الشرق المعاصر.. الشرق المسلم الذي وصفته، بعد أن طوفت في آفاقه إلي أن أحببته كما يحبه أولئك الذين يعرفونه حق المعرفة[٢] "

بهـذه الكلمات استهل كورتلمون يوميات رحلته.. فهو الذي خبر الشرق: مهد الديانات السماوية، واللغات والتاريخ.. مهد الإنسانية كلها.. آراد أن يكشف سر قدس الأقداس " مكة المكرمة " المتوارية في سر الصحاري المحيطة بها!

استغرقـت الرحلة من الجزائر إلي السويس بحرًا عشرة أيام، على ظهر السفينـة جلوكاس – Glaucus التي بدت لكورتلمون وكأنها " متحف اثنوجرافي حقيقي!.. مجموعة ركاب من

Le Journal des Voyage.

Le Monde Moderne.

L'illustretion.

National Geographic Magazine. .

(١) رحلتي إلي مكة.. مصدر سابق، ص ٣٣، راجع أيضًا

Gervais - Court.: Mon Voyage a la Mekke .

(٢) رحلتي إلي مكة.. ص ٦٢.

مختلف الأجناس قادمين من جميع الجهات.. من بيروت والقاهرة ودمشق والمدينة المنورة ومصر العليا والسودان "!

ومن السويس إلي " جدة " استغرقت الرحلة ثلاثة أيام، ومنذ وصوله وصديقه " الشيخ اكلي " إلي ميناء جدة حتى توجها إلي مقر إقامتها لدى " عبد الرحمن أفندي " المترجم المعتمد لدى القنصلية الفرنسية.. أحس كورتلمون أنهم مراقبون!

ويصف مدينة جدة، فيقول[1]: " المدينة مشيدة على ساحل البحر الأحمر، في منبسط رملي منخفض.. انها شاطيء محترق ومجدب، مرفأها موحش ووضعها محزن والإقامة فيها لا يمكن تحملها.. الناموس.. الماء فاسد.. الحرارة والرطوبة العالية مرهقة، ولا يوجد فيها أي أثر للخضرة!.. ولأن المدينة مركز تجاري كبير، فالشوارع والأسواق تزدحم بصخب الحية.. والبيوت محكمة البناء، شيدت من الحجارة، وتزدان بأجمل المشربيات "!

ويواصل كورتلمون مشاهداته، عقب خروجها من باب مكة المكرمة.. وقاما بزيارة لضريح " أمنا حواء "!.. وشاهدا السور القديم للمدينة.. وإلي اليسار من الميناء مقبرة " المسيحيين المنبوذين "!.. التي يرقد تحت رمالها المحرقة رفات بعض الأوروبيين من القناصل والرحالة الذين وافاهم أجلهم في جدة.. بعضهم كان ضحية إغتيال مثل الرحالة المستشرق الفرنسي " شارل هوبر " والذي وصفه كورتلمون بأنه " الرائد المتواضع الذي سقط في ميدان الشرف[2] "!

ورغب كورتلمون في تقصير مدة إقامته في جدة.. خاصة " أن الناس في جدة بدأوا ينشغلون بوجود مسيحي بينهم – حديث عهد بالإسلام – ويرغب في الذهاب لمكة المكرمة "!

وكان عليه أن يختار إحدو وسيلتين لقطع مسافة ٨٧ ك.م بين جدة ومكة المكرمة: الجمال أو

---

(١) العالم الأثري الرحالة الفرنسي " شارل هوبر - Charles Huber " الذي كلفته وزارة التعليم الفرنسية باكتشاف نجد، وقد استمرت رحلته الأولى من عام ١٨٧٨ إلي عام ١٨٨٢ أبان حكم محمد بن رشيد، الذي أهداه سيوفًا وخصص له مرافقين، اكتشف خلال هذه الرحلة " حجر تيماء " أهم النقوش الأثرية – مكتوب بالآرامية – ويرجع تاريخه إلي القرن الخامس قبل الميلاد، وقام برحلته الثانية تحت رعاية الجمعية الجغرافية الفرنسية، حيث زار الجوف وحائل وتيماء، وحصل على الحجر الشهير ثم عاد إلي جدة، وفي طريق عودته إلي حائل لقى مصرعه في ٢٩ يوليو ١٨٨٤، وقد ارتبطت قصة حجر تيماء بالحالة المستشرق " هورجرونيه " وكانت سببًا في إبعاده عن مدينة مكة!.. راجع مذكرات هوبر.

(٢) Journal d'un Voyage en Arabia, 1883-1884, Puble Par le societe Asiatique et le Societe de Geographie Sous les auspices du Ministere d' instruction Publique, Paris, 1891

راجع أيضًا ما سجله عبد الله فيلبي – " Philby, J.ST.J.: " The land of Midian.

الحمير.. كان يرغب في الجمل الذي أحب " مشيته الاسترخائية " المطية الحقيقية في هذه الأماكن القاحلة ن ووصفه بالعناد، وطيبة القلب، والصبر على المشـاق لمسافات طويلة دون ماء أو طعام.. " أنه حيوان مناسب خلق للصحراء، أرسلتـه العناية الإلهية لمواجهة كآبة هذه البلاد العتيقة "!.. ولكنه وصديقه " الحاج آكلي " في النهاية.. استئجرا الحمير – الحجازية – المدربة!.. وقد ارتديا ملابس الإحرام.

في مكة المكرمة :-

بعـد أن وصف كورتلمون مشاهداته على الطريق من جدة إلي مكة المكرمة.. والتوقف في قرية " حده " بمنتصف الطريق.. قال: " دخلنا حدود الأرض المقدسة فجرًا (في السادس من أكتوبر سنة ١٨٩٤) ويوجد عمودان إشارة إلي حدود الحرم يشبهان باب مزرعة، وهما نقطة بداية تحريم الصيد. تجاوزنا أحد منعطفات الطريق، فوجدنا أنفسنا في المدينة المقدسة، لا شيء كان يدل على اقترابنا منها، فهي تختفي بين جبلين متقاربين. الشوارع تتابع متشابهة.. حتى دخلنا الحرم الشريف.. المسجد الكبير والوحيد في مكة.. ها هي زي الكعبة المشرفة تقب شامخة بإجلال، محاطة بستارها الأسود الزخرف.. إنها بيت الله بالنسبة للمسلمين[1].. سرة الدنيا "!

وكـان المطوف " عبد الرحمن بو شناق " الذي أحسن استقبالها، بادر بالأخذ بيد كورتلمون وطاف به حول الكعبة سبع مرات، مرددًا وراءه الأدعية الخاصة بالطواف.. وقال له: " أخي، لا تعتقد أنك تعبد هذا الحجر.. أنت هنا في مركز الأرض، تتجه نحوها صلوات المسلمين في أرجاء العالم.. تتجمع كلها في هذا الموضع لترفع مباشرة إلي السماء، أنت هنا أقرب إلي الله[2].. "

مسحـة الصباح الندية وبصيص من النور الوردي، اضفيا على جلستهم بساحة الحرم الشريف شعور من الإجلال والحب.. ثم قاموا للسعي بين الصفا والمروة سبعًا، وقد انتابته حالة من الخشوع أفقدته الإحساس بالتعب وبالجوع والعطش!

وأشـار كورتلمون إلي أن أحد سدنة الكعبة قدم إليه شربة من " ماء زمزم " البـارد.. اللذين.. فاستزاد منه، معتقدًا أنه اجتاز اختبار هام.. فمن بين المغالطات التي كانت شائعة لدي الغربيين آنذاك " أن العرب يعتقدون باستحالة أن يشرب مسيحي من ماء زمزم دون أن يختنق بهذا الماء، والسيء النية سيجد فيه طعمًا كريهًا "!

عـاش كورتلمون إنطباعات لم يجد لها تفسيرًا.. كأنه " غرق في نوع من السبـات الروحي

---

(١) Gervais - Court.: Mon Voyage a la Mekke.. P. 67 .

(٢) رحلتي إلي مكة.. مصدر سابق، ص ٧٢.

".. لم يغريه الطعام الشهي الذي قدمه إليهم المطوف في بيته: لحم مفروم محمر، سمك، فواكه من الطائف، في مقدمتها العنب والبطيخ!

فـي وقت الغروب " الجميل في المشرق " كان كورتلمون يجد سعادته الكبرى في الذهاب لتأمل الحرم الشريف ".. أجلس فوق بلاط من الرخام، استمتع بسماع أصوات المؤذنين ترتفع من المنارات الأربع بزوايا الحرم.. وهم يدورون بالشرفات الحجرية فوق المنارات الجميلة.. ترتفع أصواتهم الشجية وتنساب في السماء.. ولا أتصور نغمات إنسانية أكثر دفئًا وانسجامًا وعذوبة من أصوات المؤذنين.. يا لروعة المشهـد[1]"!

ويشيـر إلي أن قمم الجبال العالية تحجب أفق المدينـة.. بينما يبرز المسجد الصغير في قمة جبل أبي قبيـس.. والصخور المحيطة به تعكس ألوانًا فضية وذهبية باهتة على قباب وأروقة وساحة الحرم الشريف، ووصف صلاة المغرب بالحرم "عشرون ألف مؤمن يتراصون في صفوف منتظمة، امتلأت قلوبهم بالإيمان.. أدوا شعائر الصلاة في حركات هادئة يملؤها الإجلال، زادتهم وقارًا "!

و وصـف كورتلمون بيوت مكة.. وأن المكيين يفضلون النوم – خلال شهور الصيف – على أسطح بيوتهم.. " والسطح هو شقة متكاملة بدون سقف ".. وكان قد تعرف إلي عدد من الأصدقاء، في مقدمتهم " عبد الواحد ".. مغربي متزوج من هندية وله ثلاثة أطفال!.. وعبد الواحد هو الذي رافقه في جولاته بمكة المكرمة من أجل التصوير وقد " دس الكاميرا في سجادة الصلاة التي كان يتأبطهـا كما يفعـل الناس فـي مكـة[2]"!.

وصعـدا معًا للمرة الأولى.. إلي قمة جبل أبي قبيس، حيث القبة الصغيرة الجميلة.. " ما اروع هذا المشهد.. المدينة كلها تنبسط تحت أقدامنا "!.

ومـن هذا الموضع شرع كورتلمون في إلتقاط خمس صور بانورامية للمدينـة المقدسة.. " كان مشهد المدينة بالكامل يظهر لي بوضوح تام، الأسطح والبيوت تتدرج تحت عيوننا، والصور البانورامية الخمس التي حملتها من هذه الرحلة الخطيرة هي الأولى من نوعها التي تغطي المشهد العام للمدينة، فهي الأكثر تعبيرًا من أي وصف، وتسمح بتقديم فكرة دقيقة عن أهمية المدينة الروحية للمسلمين "!

---

(1) Gervais - Court.: OP. Cit. P. 68 - 69

راجع أيضًا: رحلتي إلي مكة.. مصدر سابق، ص ٧٥.

(٢) المصدر السابق، ص ٧٧.

ورجح كورتملون أن عدد سكان مكة المكرمة يبلغ المائة ألف نسمة، معظمهم من الهنود.. وبرفقة " عبد الواحد " قام بجولاته في شوارع مكة وأسواقها، وكان عليه أن يتبادل عبارات التحية والمجاملة و" شرب عدد لا يحصى من أقداح الشاي التي كانت تقدم لنا حيثما ذهبنا، في جميع الأوقات، عند الأصدقاء، وعند الباعة بالأسواق وفي كل مكان "!

وكما هو سائد في جميع مدن الشرق.. تنتظم الحرف في أحياء معينة، وحرص كورتلمون على شراء حزام وعمامة وقفطان وقطع من المنسوجات، وابتاع من البخور وزيت الصندل والمسك.. و" صفائح ماء للتزود بماء زمزم ".. وتحدث عن حرفة صياغة الذهب في مكة وأنها تمثل مؤسسة متكاملة يديرها " شيخ الصاغة[1] ".. وأشاد بمهارة صناع مكة في إخراج تحف رائعة من سلاسل الذهب – بصفة خاصة – كذلك الخناجر التي تشتهر باسم " الجنبية " ذات الأغمدة الفضية والمذهبة، ويتمنطق بها جميع أعراب الجزيرة العربية.

وكان كورتلمون شديد الحرص على زيارة سوق البدو.. " كان الأكثر أهمية بين أحياء مكة بالنسبة لي، حي واحد، هو سوق البدو، الذي ينعقد كل صباح في أقصى شمال المدينة، ولغة هؤلاء البدو حادة، وقد أثرت في وجوههم أشعة الشمس، وزيهم يضفي عليهم شيء من الرفعة، جاعلًا منهم نماذج متميزة "!

وأفاض في الحديث عن المنتجات اليدوية التي تصنعها نساء البدو.. وقال بأنهم يعدون أنفسهم من الأشراف!.. لقد ظلوا أحرارًا لا يقبلون أي نوع من العبودية و" بلدهم لا يزال إلي اليوم أرض الحرية الحقيقية وهم الحراس الغيورون على أرضهم المصونة، وهم المدافعون عن موروثاتهم، حيث تختبيء أسرار أصول اللغة العربية. وقد يستمرون في صدنا فترة طويلة عن دخول أرض مملكة سبأ، ويجب التفاوض معهم عندما نرغب في كشف أسرار جزيرة العرب، التي ستظل فيها الحضارات القديمة الأكثر إشعاعًا: سرًا بالنسبة لنا.. بينما فتحت لنا بلاد الأشوريين ومصر كل خزائنها "!

وأشار كورتلمون – بين مشاهداته – إلي قصر " الباشا التركي " وإلي مكة وصاحب السلطة السياسية بالحجاز، يرتفع قريبًا من الحرم، بجوار الصفا، وتوقف أمام المطبعة الوطنية بمكة المكرمة، حيث تطبع الكتب الدينية وكتب الشريعة، و" كتب التاريخ التي يعترف بها المشايخ ".. وتجدر الإشارة إلي وقوف كورتلمون مذهولًا أمام هذه المؤسسة، حيث سجل انطباعًا فريدًا.. لم يفكر فيه رحالة أوروبي من قبله.. وربما أيضًا لم يفكر فيه عربي أو مسلم.. في لحظة صدق مع النفس، قال كورتلمون[2]:

---

(١) المصدر السابق: ص ٨٤.

(٢) المصدر السابق: ص ٨٧.

" خالجني إحساس بأنني أقف أمام إحدى مصادر قوة المستقبل.. فمن يدري ما الذي ستطبعه هذه المطابع، حينما تندلع الحرب المقدسة.. إن هي اندلعت يومًا ؟.. فقد تنطلق منها مطالب اجتماعية لتنتشر في أركان الدنيا، لتطالب بالزام المغتصبين في الغرب بعتق الإسلام وتحريره!. إلي متى سيبقى المسلمون – وهم كثر – خاضعين لقوة الغرب ؟.. وهذه السلالات الضاربة في القدم.. ألن تستفيق من غفلتها الأزلية "..!



ابن الكاهن..

فى رحلة الحج!

كان الرحالة "جون فرايركين ـ John Frayer Kean" ابنًا للكاهن وليام كين ـ الكاهن الرئيسى لكاتدرائية كالكوتا ـ ولد عام ١٨٥٤م، فى الثانية عشرة من عمره هرب إلى البحر، وأمضى سبع سنوات بين المسلمين، الأمر الذى أهله للقيام برحلة[1] الحج عام ١٨٧٧-١٨٧٨م.

وصل كين إلى جدة منضمًا لحاشية أمير هندى، وبقى فى مكة المكرمة لمدة ستة شهور[2]، كان الأمير قد استأجر البدو والإبل، وارتدى كين ملابس الإحرام، ووجد نفسه بين جموع الحجاج خارجًا من بوابة جدة الشرقية بين حارسين تركيين، وسارت القافلة ببطء فوق السهل الرملى، وبالرغم من أنه كان بحارًا قديمًا، إلا أنه أصيب بالدوار من حركة سير الجمل، ومرت الرحلة خشنة صعبة عبر شعاب صخرية، وابتهالات الحجيج تتردد أصداؤها، وفى الفجر التالى وصلوا إلى مكة المكرمة، وسرعان ما ترجل الجميع إلى صحن المسجد "المقدس"..

أعد للأمير الهندى وحاشيته منزل له ثلاث نوافذ تطل على أحد أروقة المسجد الحرام والكعبة المشرفة، ويمكننا تصور شعور كين وهو قريب جدا من "محور الكون" وتوافر له قدر من التأمل، وأدى المناسك من طواف وسعي، وشرب من ماء زمزم، ولفت نظره تعدد الأجناس، وأنكر بشكل قاطع القول بأن التجارة لعبت دورًا أكبر من دور الدين، مؤكدًا أن أولئك الذين أخذوا على عاتقهم القيام بالرحلة المرهقة.. فعلوا ذلك من أجل خلاص أنفسهم.

تجول كين بحرية تامة فى أنحاء مكة المكرمة.. و"بشرته الشقراء" لم تثر تعليق الآخرين، ولقى الإنجليزية الآنسة "ماكنتوش" التى كانت تعيش فى الهند، وقد أعجب بإيمان الحجيج وتعلقهم الشديد بدينهم، واعترف كين أنه "مثل الكذبة بطريقة جيدة بحيث صدقها بنفسه"

---

(١) Robin Bidwell: Travellers in Arabia, P. 129 .

(٢) OP. cit.: P. 127 .

وشعر بوخز الضمير، وأقر أن رحلته كانت شيئًا قاسيًا ومجردًا من المبادىء الأخلاقية، لكن "لم يعد هناك مجال للتراجع"[1]!

وبينما كان خارجًا ـ ذات يوم ـ يتمشى فى هيئة رجل شرقى أنيق، مرتديًا ملابس ناصعة البياض، وعلى رأس عمامة كبيرة، إذا بطفل يصيح عليه وبدون سبب "انظروا إلى هذا النصرانى"[2]!.. فما كان من أحد المتسولين إلا أن طالبه بالإفصاح عن عقيدته، فاشتبك معه فى عراك، لكنه أدرك أنه لا يستطيع أن يتمادى بتصرف غير إسلامى، وبدأ البعض يقذفونه بالحجارة، فأسرع إلى مركز الشرطة، حيث توجب عليه أن يكون صريحًا فاعترف أنه "مهتد إلى الدين الجديد".. فأحاطه ذلك بالثناء!

وسره أن يراقب صلاة العشاء بالمسجد الحرام، فكتب[3]: "كان مشهدًا رائعًا أن ترى آلاف الرجال ذوى اللحى والعمائم الخشنين يقفون فى دائرة تتسع بعد دائرة حول كعبتهم المقدسة، كثيرًا ما كنت أقف فى نافذتى مستغرقًا بالمشهد أمامى، وكل موجة موجة من سجود تنتشر فى المكان المزخرف بألوان قوس قزح... الكعبة بناء مستطيل بسيط غير مزخرف، مدبب الزوايا، من حجارة ضخمة"!.. وأشار كين إلى أن ٢٨٦٠ قنديلًا كانت تنير المسجد الحرام عقب الغروب.

تمكن كين من إلقاء نظرة عامة وشاملة على مكة المكرمة.. "الوادى بأكمله يكتظ ببيوت من مختلف الأشكال والأحجار، بعضها ضخمة مرتفعة كثيرة النوافذ، لكنها بدون نظام، متسلقة الجانب المنحدر من التلال المحيطة".. لكنه سرعان ما تأقلم على جو مكة المكرمة.

قدر كين عدد الحجاج بعشرين ألفًا[4]، ووافقت وقفة عرفات يوم جمعة، وفى السادس عشر من يناير، توجهت جموع الحجيج إلى "منى" وفى الليل راقب كين ومرافقوه من نوافذهم موكبى شريف مكة المكرمة والباشا.. وكتب فى وصف مشهد عرفات[5]: " لن أكون مندهشًا إذا تذكرت هذا المنظر وأنا على فراش "الموت".. فعندما تسلق التلة كان كمن يقف على "خشبة مسرح كبير" بينما أميال من الحجيج تمتد أمامه، وسفوح عرفات تحتشد بالناس.. "خضم متموج من الرؤوس السوداء والملابس البيضاء" أتوا من كل صوب تملؤهم الخشية.. "هل بالإمكان أن يكون كل هذا دون جدوى وكل هذا الإيمان عبثًا " ؟!

بعد ليلة قضاها فى "مزدلفة".. عاد كين إلى مكة المكرمة، حيث الشوارع مهجورة والحوانيت مغلقة، وعقب أداء شعائر الطواف والسعي، والتجول فـى الطرقـات، عاد كين إلى

---

(١) Keane J.Fryer: Six Months in Mecca, London, 1881 .

(٢) Robin Bidwell: OP. cit., P. 127 .

(٣) OP. cit.: P. 56-57 .

(٤) فى موضع آخر ذكر كين أن عدد الحجاج ٢٠٠ ألف، وهو الأقرب للحقيقة.

(٥) أغسطس رالى: مسيحيون فى مكة المكرمة، مصدر سابق.

"منى" كى يرجم الشيطان ويذبح الأضحية.. بعد عودته من منى، انتظر ساعتين كى يشق طريقه إلى داخل الكعبة المشرفة[1]، لكن الحرارة كانت شديدة، فاتخذ طريقه إلى الخارج بين الحشود المتلاصقة.

كانت أكثر مغامراته إثارة للدهشة تعرفه على الإنجليزية "ماكنتوش" التى اشتهرت باسم السيدة "زهرة".. كانت فكرة وجود مواطنه من بلاده فى مدينة مكة المكرمة: "صدمة غير سارة لرجل مثله"!.. اتسم لقاؤهما الأول بالحذر، وكتب عن المقابلة الثانية: "يالهذا الحديث الرائع الذى جرى بيننا.. وكم تركنا العنان للغتنا الإنجليزية، كانت أحيانًا تضحك مسرورة وأحيانًا تبكى".. استطاعت بعد ذلك أن تنزع حجابها، وجدتها فى نحو الأربعين من عمرها، وقد مضى عليها عشرون عامًا بين المسلمين، وتعددت لقاءاتها بعد ذلك.. وأخبرته عن شاب فرنسى اعتنق الدين الإسلامى عن قناعه، عاش فى القاهرة والقسطنطينية وغيرهما من مدن الشرق، لكن أصدقاءه لاحقوه وسعوا للايقاع به، إلى أن جاء إلى مكة المكرمة وأقام بها ثمانية عشر شهرًا وكانت تلتقى به إلى أن توفى فجأة، وارتابت فى أنه قُتل بالسُم[2]!

وشاهد كين فى مكة المكرمة مياه السيول وقد غمرت صحن المسجد الحرام، كانت المياة ترتفع ثلاث أقدام فى الأروقة، وست أقدام فى الأماكن المنخفضة حول الكعبة.

بدأ كين يشعر بالحنين إلى المسيحية "لقد تعب من قناعه المسلم"[3]!.. وبدون رغبته صحبه الأمير الهندى إلى المدينة المنورة، رحلت القافلة فى طريق السلطان بمحاذاة الساحل، وضمت ٩٠٠ حاج و٧٣٠ جملًا، وكان الحجاج الأكثر فقرًا سيرون على أقدامهم بجانبى القافلة، التى سارت عبر ممرات جبلية صخرية وسهول رملية، وكانوا يسيرون ليلًا على أنوار المشاعل حتى وصلوا إلى "رابغ".

بعد رحلة شاقة استمرت ستة أيام وصلت القافلة إلى المدينة المنورة، وعلى عكس جدب مكة المكرمة، منحت المدينة المنورة كين ورفاقه "انطباعًا أنها واحدة من أجمل مدن العالم" وشاهد أسوارها وأبراجها العالية البيضاء، ومآذنها المذهبة وقد سطعت عليها شمس الصباح، وحزام عريض أخضر من الأرض المزروعة يحيط بها.. "كل ذلك جعلها تبدو كجوهرة لامعة يحيط بها قحط الصحراء الواسعة الكئيبة، كفسيفساء من حجر كريم أو لؤلؤة موضوعة فى حاشية لامعة من طلاء أخضر"!.. منازل جميلة ومسورة، وماء جار و"كل نعمة يشتهيها عقل أوروبى"[4]!

---

(١) المصدر السابق، ص ٢٠١.

(٢) Keane J.Fryer: Six Months in Mecca, P. 96-97.

(٣) أغسطس رالى مسيحيون فى مكة المكرمة، ص ٢٠٤.

(٤) المصدر السابق، ص ٢٠٦.

قام كين بزيارة واحدة إلى الحرم النبوى الشريف؛ تركت فيه أثرًا كبيرًا، كما أثرت فى "ريتشارد بيرتون".. وقارن مظاهر الفخامة ببساطة مكة المكرمة المميزة، بعد عشرة أيام غادرت القافلة المدينة المنورة فى رحلة العودة عبر أميال أكثر كآبة من الأراضى الموحشة الصخرية القاحلة، بعضها يخلو تمامًا من أى شكل لأشكال الحياة.

أمضى كين أربعة أيام فى مكة المكرمة ثم رحل إلى جدة، حيث أمضى أكثر وقته بين الأوروبيين "شعر بالقرف من الحياة التى عاشها[1] وكره لقب الحاج"!.. لكنه لم ينزع عنه زيه الإسلامى حتى وصل إلى "بومباى".

وعقب عودته إلى بريطانيا، كتب فى مذكراته[2]: "لقد قمت بهذه المغامرة المخيفة بالحج إلى مكة المكرمة لغرض واحد لا يتحقق إلا بالقيام بعمل يجعل اسمى معروفًا بأننى رحالة مقتدر، وهذا يضعنى جيدًا فى موضع الثقة للحصول على المساعدات التى سوف أحتاج إليها لتنفيذ خططى"!

ولم يتحقق شىء من طموحات كين، ففى السنوات التالية، كان قد سُجن فى البرازيل، وأصدر جريدة فى شنغهاى، وعمل فى السكك الحديدية بالهند، كما عمل منقبًا عن المعادن فى بورما، وعاش متسكعًا فى انجلترا، وأخيرًا عمل فى حصاد قصب السكر فى "كوينز لاند"[3]!.. فهل كان ذلك انتقامًا من السماء من رجل خالف ضميره.. وقد "مثل الكذبة بطريقة جيدة"!!

---

(١)Robin Bidwell: Travellers in Arabia. P. 127 .

(٢) Robin Bidwell: OP. cit., P. 128 .

(٣)OP. cit., P. 129 .



المستشرق الهولندي هورجرونيه "عبدالغفار"

د. هورجرونيه .. أو الحاج "عبد الغفار" في خدمة إدارة المستعمرات الهولندية !

في الندوة الدولية التي اقامها " معهد العالم العربي " في باريس خلال شهر نوفمبر ٢٠٠٣ عن " الرحالة المستشرقون ".. قدم أ.د. " عبد الله المدني " تحليلًا لشخصية الرحالة المستشرق الهولندي: " كريستيان ستوك هورجرونيه - C. Snouck Hurgronie ".. والتداعيات التي أتت به إلي الحجاز.. وتباين الآراء بشأنه.. هل كان اعتناقه للإسلام حقيقيًا أم مجرد " قناع " لدخول مكة المكرمة والمدينة المنورة.. وهل كان ذلك من أجل البحث والدراسة ولوجه العلم فحسب أم كان " جاسوسًا " يعمل لحساب السفارة الهولندية ؟!

والفكر الأوروبي يعتبر أن " دومينجو باديا " أو الأمير على بك العباسي و" بوركهارت " أو الشيخ إبراهيم و" ريتشارد بيرتون " أو الشيخ عبد الله و" هورجرونيه " أو الحاج عبد الغفار!٠٠ " هم القمم الأربع الذي عرفوا مدينة مكة جيدًا(١) ".. ودونوا معلوماتهم ويومياتهم عنها للعالم الغربي، ويأتي على رأس هؤلاء " هورجرونيه " في أبحاثه عن الحياة الاجتماعية بمدينة مكة.. " تعرفت على المجتمع المكي، وسمعت بأذني ما يقوله أهل مكة وما يناقشونه من أمور السياسة والعقيدة في المسجد والديوانية والمقهى وفي غرفة المعيشة(٢) "!

كان الاستشراق جزءًا من تراث الدول الاستعمارية، والرحالة المستشرقون أدوا أعظم الخدمات لدولهم.. وكان هورجرونيه واحدًا من أبرز هؤلاء.

ولد د. هورجرونيه في " دوسترهوت - Dusterhout " الواقعة في الشمال الشرقي من مدينة " بريدا - Breda " بهولندا عام ١٨٥٧، كان والده راهبًا، فنذر ابنه لدراسة اللاهوت،

---

(١) Ralli, A.: Christians at Mecca, London, 1909, P. 223.

(٢)OP. Cit., P. 325.

وألحقه بجامعة " ليدن " في يونيو عام ١٨٧٤ ليدرس اللاهوت، واجتاز اختبار الكانديرات في الفيلولوجيا الكلاسيكية (اليونانية واللاتينية) في مايو ١٨٧٦، وخلال دراسته الجامعية، عنى بدراسة اللغات السامية وآدابها، خاصة اللغة العربية التي قادته لدراسة الحضارة الإسلامية، وفي سبتمبر ١٨٧٨، اجتاز اختبار الكانديرات في الفيلولوجيا السامية(١).

في عام ١٨٨٠، حصل على درجة الدكتوراه!، وكان عنوان رسالته " الحج عند المسلمين وأهميته في الدين الإسلامي " وانتهى من رسالته إلي القول بأن " الحج الإسلامي هو بقية من بقايا الوثنية العربية "!!.. وفي عام ١٨٨١، سافر إلي المستشرق الألماني " نولدكه " في ستراسبورج، وكان له حوار دائم من خلال مراسلاته مع " جولدتسيهر ". وفي العام التالي، عين محاضرًا في الشئون الإسلامية بـ " إعداد وتدريب موظفي الخدمة في جزر الهند الشرقية " بمقره في لندن(٢).

ويقول المؤرخ " رالي – Ralli " أن هورجرونيه بعد أن حصل على درجة الدكتوراه " كان يطمح إلي الرحيل لجزيرة العرب، ليتعرف على حياة المسلمين وحقيقة الدين الإسلامي، وكان يهدف إلي دراسة أثر الإسلام في الحياة السياسية والاجتماعية في مجتمع لا يعرف الأوروبيون عنه إلا قليلًا، متهمًا المستشرقين في قصر نظرهم باعتمادهم في تحصيل معلوماتهم على ما ينقلونه من الكتب، وهو ما دعاه إلي السفر والإقامة في مركز الإسلام الروحي(٣)"!

ويضيف رالي: " ليس من الواضح لدينا، كيف دخل سنوك إلي مكة.. هل قدم نفسه للوسط المكي على أنه أوروبي اعتنق الإسلام ؟.. أو أنه أخفى حقيقة كونه أوروبيًا وأعتبر نفسه من جاوه أتى طلبًا للعلم " ؟

تم ترتيب رحلة د. هورجرونيه إلي مكة، من خلال منحة دراسية من جامعة ليدن سنة ١٨٨٤، ولقد أعدت ترتيبات الرحلة بالتنسيق مع القنصلية الهولندية بجده، فسافر بحرًا برفقة القنصل العام لهولندا إلي جدة، وأقام لمدة خمسة أشهر بالقنصلية الهولندية بجدة، تعلم خلالها اللهجة المحلية الدارجة(٤)، بالإضافة إلي إتقانه اللغة العربية إبان دراسته الجامعية وفترة إعداد رسالته للدكتوراه.

ويرى د. " قاسم السامرائي "(٥) أن ترتيبات زيارة سنوك كان قد أعد لها خلال مؤتمر المستشرقين

---

(١) د. عبد الرحمن بدوي: موسوعة المستشرقين، دار العلم للملايين، بيروت، الطبعة الثالثة، ١٩٩٣ ص ٣٥٣.

(٢) المصدر السابق: ص ٣٥٤، راجع أيضًا: Bidwell, R., OP. Cit., P.129.

(٣) Ralli, A., OP. Cit, PP. 223 - 233 .

(٤) OP. cit,. P, 224 .

(٥) د. معراج نواب مرزا، د. محمد محمود السرياني " دوافع رحلة سنوك هورخرونيه وقيمتها العلمية بوصفها

الذين عقد بليدن سنة ١٨٨٣ م، وحضره أحد علماء المسجد النبوي " أمين المدني الحلواني " الذي يرى السامرائي أنه كانت تربطه علاقة مع سنوك الذي ترجم له بعض المقالات التي دونها الشيخ عن انطباعاته حول مؤتمر المستشرقين، ويرى السامرائي أن سنوك لم يدخل متنكرًا، بل دخل عالمًا مسلمًا هولنديًا، لتلقي العلم وتأدية فريضة الحج، لأن ما عمله سنوك في أثناء وجوده في جدة يدل دلالة واضحة على اعتناقه الإسلام - ظاهرًا على الأقل - وينفي السامرائي مزاعم أحد المستشرقين الذين ذكروا أن الطريق إلي مكة قد فتحت لسنوك هورخرونيه نتيجة العلاقات التي كانت تربط القنصل الهولندي، ووكيل النقل البحري الهولندي مع المطوفين، وقد استغلها القنصل في دعوة بعض علماء مكة للحضور إلي جدة، لأن متعلمًا هولنديًا شابًا درس الإسلام يود مقابلتهم، وقد حدث اللقاء بالفعل، وفي هذا اللقاء جرى الحديث حول بعض الموضوعات الدينية، وقد أعطي المجال لسنوك ليتحدث عن نفسه وكتبه، وبعد أن تعرفوا على وجهة نظره في الإسلام أعلن الزوار المكيون: أننا نشعر أنك واحد منا.

ويرى " السامرائي "[1] من خلال إطلاعه على المذكرات التي كتبها سنوك بخط يده، والموجودة في مكتبة جامعة ليدن بدفتر مذكراته، أن سنوك أشهر إسلامه رسميًا أمام القاضي، وبشهادة شاهدين لهما صفة رسمية، وقد بلغ هذان الشاهدان الوالي العثماني بذلك، وفي اليوم التالي مباشرة جاء القاضي مع ترجمان الوالي وآخرين لتهنئة سنوك نيابة عن الوالي. والشيء الذي يسترعي الانتباه أن سنوك لم يعلن ارتداده عن الإسلام بعد خروجه من مكة، وقد استمر بإدعاء الإسلام في أثناء وجوده في أندونيسيا، ولمدة سبعة عشر عامًا، وقد تزوج أمرأة مسلمة في أندونيسيا أنجبت منه عددًا من الأولاد!

ويذهب المؤرخ الكبير " حمد الجاسر " إلي أن هورجرونيه " قد استطاع بحيلته ودهائه أن يخدع الناس باسم الإسلام، فيزور مكة ويبقى فيها فترة من الزمن، ألف كتابه خلالها - صفحات من تاريخ مكة في نهاية القرن الثالث عشر الهجري - كما استطاع أن يخدع المسلمين في جزر الهند الشرقية، بحيث تولى لديهم أرفع المناصب الإسلامية "[2]!

وبالرغم من أن بعض المصادر تؤكد أن - سنوك هورجرونيه - قد مات مسلمًا!.. إلا أن د. " عبد الله المدني " يشكك في ذلك ن بدليل أنه عندما غادر مكة المكرمة، قام بتغيير اسمه إلي الهولندية مرة أخرى.. ويؤكد أنه جاء من أجل التجسس بالفعل. لأن هولندا كانت تستعمر

مصدرًا من مصادر تاريخ شبه الجزيرة العربية، بحوث ندوة الرحلات إلي شبه الجزيرة العربية دارة الملك عبد العزيز، ١٤٢٤ هـ، الجزء الثاني، ص ٦١٠ - ٦١١.

(١) المصدر السابق: ص ٦١١-٦١٢، راجع أيضًا: د. قاسم السامرائي " الاستشراق بين الموضوعية والافتعالية " دار الرفاعي للنشر والطباعة، الرياض، ١٤٠٣ هـ.

(٢) حمد الجاسر: رحالة غربيون في بلادنا.. مصدر سابق، ص ١٠١ .

جزر أندونيسيا في تلك الفترة، وكانت السلطات الهولندية تخشى من موسم الحج وتوافد الحجاج الأندونيسيين، وتزايد الشك في أنه كان يعمل جاسوسًا لحساب بلاده عندما عين في منصب - مدير مكتب البحوث للشئون المحلية بالسفارة الهولندية بالحجاز - وقام بتغيير الحروف العربية المستخدمة في مكاتبات السفارة إلي اللاتينية!.. ويضيف د. المدني: " أنا لا أعتقد أن هروجرونيه اعتنق الإسلام، ولكن أقر أنه كان محبًا للإسلام "!

آثاره العلمية:

ترك الرحالة المستشرق هورجرونيه عددًا من المؤلفات العلمية، من أبرزها:-

(١) " الحج عند المسلمين وأهميته في الدين الإسلامي " باللغة الهولندية، وهو رسالته لنيل درجة الدكتوراه من جامعة ليدن، سنة ١٨٨٠ م.

(٢) " مكة " باللغة الألمانية، في مجلدين:-

- الجزء الأول بعنوان " مدينة مكة وأشرافها " ٢٢٨ ص، ظهر في مدينة " دن هاخ " بلاهاي ١٨٨٨، ويتضمن دراسات تفصيلية عن: جغرافية مكة وطبوغرافيتها، مكة في العهد الإسلامي الأول تحدث فيه عن انتشار الإسلام وحكومة النبي والخلفاء الراشدين والنظم الإسلامية في النواحي الإدارية والاقتصادية والاجتماعية ونشأة العلوم الإسلامية، أهم الأحداث التاريخية بمكة منذ القرن الثالث عشر الميلادي حتى القرن الثامن عشر ثم تاريخ مفصل لمكة خلال القرن التاسع عشر.

- الجز الثاني بعنوان " من الحياة المعاصرة " ٣٩٧ ص، ظهر في مدينة " دن هاخ " بلاهاي ١٨٨٩، ويتضمن دراسات عن الحياة اليومية في مكة، الحياة العائلية وبناء الأسرة، الحياة العلمية، سكان مكة.

(٣) " أهل آتشيه - **De AtiJehers** " في جزئين، ظهرا في بتافيا ١٨٩٣ وليدن ١٨٩٤ وترجم إلي الإنجليزية.

(٤) " بلاد الجابو وسكانها " بتافيا سنة ١٩٠٣ م.

(٥) " محاضرات عن الإسلام " ألقاها في الولايات المتحدة الأمريكية بدعوة من " اللجنة الأمريكية للمحاضرات المتعلقة بتاريخ الأديان " سنة ١٩١٤ - ١٩١٥ عرض فيها للإسلام عرضًا شاملًا على النحو التالي: نشأة الإسلام، التطور الديني، التطور السياسي للإسلام، الإسلام والفكر الحديث.

(٦) مجموعة دراسات وأبحاث نشرت في عدد من الدوريات العلمية، تحت عنوان " كتابات متفرقة لكريستيان سنوك هورجرونه " أشرف على جمعها وفهرستها وإصدارها تلميذه

" آرنت جان فنسنك - A.J. Wensinck " والذي خلف هورجرونيه في شغل كرسي الاستاذية بجامعة ليدن سنة ١٩٢٧، وجمعت في ستة مجلدات نشرت في بون وليدن بين عامي ١٩٢٣ - ١٩٢٧ على النحو التالي:-

الأول: الإسلام وتاريخه.

الثاني: الشريعة الإسلامية.

الثالث: الجزيرة العربية وتركيا.

الرابع: (جزأين): الإسلام في جزر الهند الشرقية.

الخامس: اللغة والأدب.

السادس: نقد الكتب، متفرقات، فهارس، مراجع.

رحلته إلي مكة المكرمة:

وصل هورجرونيه إلي مكة المكرمة في ٢٢ فبراير سنة ١٨٨٥، ومكث بها حتى شهر أغسطس من نفس العام، أقام في حي " سوق الليل " وقد تسمى بأسم " عبد الغفار " وصار يختلف إلي مجالس العلماء وشيوخ التعليم، فوطد علاقاته بالكثير من علماء مكة المكرمة، وبعدد من علماء جاوه وسومطره وآتشيه[1] ممن كانوا يقيمون بمكة. زاعمًا أنه مسلم صادق هدفه التعرف على جوهر الإسلام ودراسة القرآن الكريم.!

وبالرغم من أنه مكث بمكة ستة أشهر[2] ونصف الشهر، إلا أنه لم يتمكن من الحج بسبب إبعاد السلطات العثمانية له وطرده من المدينة المقدسة! وقد ارتبط خروجه من مكة - بقصة شهيرة - لدى المستشرقين، أوردها كل من د. معراج وإرساله إلي حائل تمهيدًا لإرساله إلي فرنسا، وذهب يوتنج الألماني إلي القدس، أما هوبر فقد غادر إلي حائل، وفي الطريق اغتيل من قبل الأدلاء الذين كانوا بصحبته!

لقد أعتقد القنصل الفرنسي " Lostalot " بجدة أن هورجرونيه كان يحاول الحصول على الحجر وإرساله إلي ألمانيا بدلًا من فرنسا، وقد ظهرت في ٥ يوليو مقالة في جريدة الزمان الفرنسية (Le Temps) تناولت مقتل هوبر كما تناولت محاولة سرقة الحجر من قبل هورجرونيه، وقد زود القنصل الفرنسي الجريدة بهذه الأخبار، وقد نقلت الخبر جريدة استانبول العثمانية، وفيها ظهر أن هناك هولنديًا تحت اسم عبد الغفار يحاول الحصول على نقوش أثرية، ولهذا أمرت الحكومة العثمانية بإبعاد سنوك من بلاد الحجاز.

---

(١) المصدر السابق: ص ١٨٦.

(٢) Bidwell, R.: OP. Cit, P. 129.

نواب مرزا ود. محمد محمود السرياني[1]، وهي الأسباب المباشرة التي ذكرها هورجرونيه نفسه في كتابه بالألمانية[2]:

" هي قصة نقش تيماء أو حجر تيماء الذي كان يتنافس عليه ثلاثة من مستشرقين من جنسيات مختلفة (هوبر من فرنسا ويوتنج من ألمانيا وسنوك من هولندا)، وقد قدم هوبر ويوتنج معًا للحصول على الحجر الذي يقدم معطيات جديدة عن وجود دين قديم خاص في منطقة تيماء، وقد أخذ العالمان ملحوظات عن الحجر، ثم قاما بالحصول عليه

لقد استدعى هورجرونيه من قبل القائم مقام العثماني، وطلبت الدولة إليه مغادرة مكة حالًا، وقد أعطي بضع ساعات، ليحمل أمتعته، وأرسل مخفورًا بجنديين من الأتراك غلي جدة، غادرها بعد ذلك إلي هولندا "!

وقد أحزنه الرحيل على هذه الصورة، لكن ما أحزنه أكثر أنه كان على وشك حضور " موسم الحج " ويرى ويشارك في مناسك الحج الذي كان موضوعًا لرسالته، لكن اعتمادًا على الكتب والمخطوطات وكتابات الرحالة!!

في خدمة إدارة المستعمرات الهولندية:

عاد د. هورجرونيه إلي هولندا، وأستأنف نشاطه في ليون في مجال التدريس بمدينة " دلفت – Delft " في معهد مماثل لمعهد لندن، خاص بتدريب وإعداد الكوادر العاملة في جزر الهند الشرقية[3].

وفي عام ١٨٨٩، عين مستشارًا بإدارة المستعمرات الهولندية " مختصًا بالشئون الإسلامية " وباعتباره خبيرًا في اللغات الشرقية والشريعة الإسلامية.. ونقل مستشارًا للحاكم العام

---

(١) محمد محمود السرياني، معراج نواب مرزا: " صفحات من تاريخ مكة المكرمة في نهاية القرن الثالث عشر الهجري " مطبوعات نادي مكة الثقافي الأدبي، مكة المكرمة، مطابع الصفا – أعيد طبعه عدة مرات. الطبعة الرابعة ١٣٩٩ هـ/ ١٩٧٩، ١٤١١ هـ/ ١٩٩٠ – راجع أيضًا:

- سنوك هورخرونيه: صفحات من تاريخ مكة المكرمة – الجزء الأول: دراسة للأوضاع السياسية والاقتصادية والاجتماعية من البعثة النبوية الشريفة وحتى نهاية القرن الثالث عشر الهجري، ترجمة: د. معراج نواب مرزا، د. محمد محمود السرياني، دارة الملك عبد العزيز، ١٤١٩ هـ.

(٢) Hurgronje, Ch.S.: Een Mekkansch gezantschap naar Atjeh, in Verspreide Geschriften, 7 Vols, Bonn and leipzig, 1923

- Hurgronje, ch.S.: Mekka in the latter Part of the 19 th century, Daily life, Customs and learning, the Moslims of the Easterm Archipelago, trans, by J.H. Mohahan, London and leiden, 1931 .

(٣) د. عبد الرحمن بدوي: موسوعة المستشرقين.. ص ٣٥٤.

الهولندي في جزر الهند الشرقية (اندونيسيا) ومقـره " جـاوه " إلي جانب عمله كمستشار للشئون الداخليـة باقليم " آتشيه - Atijeh " والذي كان - مملكة - لم تتمكن هولندا من إخضاعه بالكامل، بالرغم من سياسة القمع والمجازر، وما زال هذا الأقليم أو هذه المقاطعة تشكل " صداعًا مزمنًا " للحكومة الأندونيسية حتى يومنا هذا!.. ووضع د. هورجرونيه كتابًا ضخمًا عن " أهـل آتشيـه " في مجلدين عام ١٨٩٣، وهو الذي وضع قانون الزواج الخاص بجزر الهند الشرقية، وقام بشرح وجهة نظره حول السياسة التي يجب أن تتبناها دولته تجاه المسلمين وكيفية مواجهة ثوراتهم في هذه الجزر... وقـد أفاد هورجرونيه كثيرًا من رحلات العمل التي قام بها في قلب شمال جزيرة " سومطرة " حيث درس أحوال بلاد " جـابـو - Gapo " وقدم وصفًا للبلاد والعباد سنة ١٩٠٣، كما التقى كثير من الحضارمه وأفاد منهم معلومات ضمنها رسالة عن " حضر موت "[١].. وفي عام ١٩٠٦، عاد د. هورجرونيه إلي هولندا وتابع مهمته كمستشار للحكومة الهولندية ومشرفًا على تدريب الدبلوماسيين الذين سيعملون بالبلاد الإسلامية، إلي جانب عمله استاذًا للدراسات الإسلامية بجامعة ليدن حتى عام ١٩٢٧ وخلفه تلميذه المستشرق د. فنسنك (١٨٨٢ - ١٩٣٩)[٢].

ظـل د. هورجرونيه على نشاطه العلمي الدؤوب، ونشر عدة دراسات بمجلة جمعية المستشرقين الألمان الشهيرة ZDMG[٣] تناولت مشكلات الإسلام المعاصر، الخلفية التاريخية والحضارية لكتب الفقه العربية، الفتاوي والقواعد الشرعية المثلى ومدى اتفاقها مع القانون العرفي النابع من العادات والتقاليد المتوارثة... وتوفي في ٢٦ يونيو سنة ١٩٣٦ بعد حياة حافلة!

دراسة تفصيلية : لأحوال البلد الأمين!

يقـول د. معراج مرزا ود. محمود السرياني في تقديم كتاب " مكة " للمستشرق هورجرونيه:

" لقد أثار كتاب مكة اهتمامًا كبيرًا في دوائر الاستشراق في العالم الغربي، فكتب في تقريظه الكثير من علماء الاستشراق، بوصفه الكتاب الوحيد الذي اعتمد فيه المؤلف على السماع المباشر من أفواه الناس والمشاهدة الحية. فلم يكن الكتاب كغيره من كتب الرحالة الذي وجدوا في مكة لبضعة أيام خلال موسم الحج، فدونوا ملحوظات عابرة وسطحية، اعتمدوا في أكثرها على ما هو موجود في بطون الكتب، فجاءت هشة ينقصها العمـق.

وإزاء الشهرة التي ذاع صيتها لهذا المؤلف القيم، قام قنصل بريطانيا في جدة المستر هـ.

(١) حمد الجاسر: رحالة غربيون في بلادنا.. ص ١٨٥.

(٢) د. عبد الرحمن بدوي: موسوعة المستشرقين.. ص ٣٥٤.

(٣) Zeitschrift der Deutschen Morgenlandischen Geselischaft, Wiesbaden - صدر العدد الأول عام ١٨٤٧.

موناهان Monahan بترجمة الجزء الثاني من الكتاب، والمتعلق بالحياة الاجتماعية للمدينة المقدسة إلي اللغة الإنجليزية، وظهر بعنوان (مكة في نهاية القرن التاسع عشر)، وقد طبعة الترجمة أول مرة في عام ١٩٣١ م (١٣٥٠ هـ) في مدينة ليدن، ولقد نالت الترجمة شهرة واسعة في أوائل القرن العشرين بين قراءة الإنجليزية، مماثلة للشهرة التي نالها الكتاب بالألمانية عند صدوره، واعتمد عليها أكثر من كتب عن تاريخ مكة في العصر الحديث[١]".

لقد جاء الكتاب بجزأيه سفرًا كبيرًا يلقي الضوء على تاريخ مكة المكرمة وعلى أوضاعها الاجتماعية والاقتصادية والتعليمية والسكانية. يقول سنوك: " إن نشر التفاصيل الكاملة عن تلك الرحلة التي أكملت بعد صبر طويل، لهو هدف بعيد يحول دون تحقيقه كثرة المراجع المتوفرة، وجهد المؤلف المحدود في استيفاء مثل هذه الدراسات فأهمية مكة التي ولد فيه الإسلام كمركز روحي، وكونها هدف الحج للمسلمين عبر الأزمان، تجعل من المستحيل على المرء قراءة الآلاف العديدة من الإنتاج الأدبي العربي الذي سطر حول هذه المدينة، وتجعل المرء يلجأ إلي ما لجأت إليه من الاكتفاء بالنظرة العامة، دون الدخول في التفاصيل، مع إضافة أشياء كثيرة تتناسب مع تشخيصنا للأمور، وخاصة مما تحويه كتب التاريخ والسير ووصف الرحلات، وآمل ألا أكون أغفلت أشياء أساسية حول الموضوع، كما آمل أن يحصل القاريء على صورة متكاملة وحقيقية عن ذلك المجتمع، خاصة وأنه قد سمح لي أن أقيم بين المكيين ما يزيد عن ستة أشهر، وأن أعيش معهم كفرد منهم، وأن أكون في موضع يسهل معه جمع الكثير من التقارير عن الماضي، مما مكنني من الكتابة بصورة أفضل من الكتابة من خلال غرفة الدراسة[٢]"!

" إن النتيجة الرئيسية لرحلتي لم تكن إنتاج هذا الكتاب (مكة) فحسب، بل كان لإقامتي في المركز الروحي لعالم الإسلام أثره المستمر في دراساتي المستقبلية عن الإسلام. لقد كان الدافع لرغبتي في العيش لبعض الوقت في العالم الإسلامي، هو ذلك الشعور الحيوي بالحاجة للعيش كليًا ولو لبعض الوقت في هذه البلاد، لأنه بالنسبة لأي مستشرق في أوروبا يدرس اللغات ستكون تصوراته عن الحياة الفكرية والاجتماعية للشرقيين مليئة بالفجوات ما دام سيستخدم الكتب فقط كشاهد عيان لتلك البلاد ومما يشرح الصدر بأن المهتمين في موضوع الاستشراق - كما هو الحال في باريس وبرلين - قد بدؤوا يؤسسون مدارس للاستشراق بمساعدة معلمين شرقيين: لسد الفجوات في هذا المضمار.

ومن الجدير بالذكر أنه لا شيء يحل محل التأمل الذاتي، مع إدراك أن تأثيره المستمر مشروط

---

(١) د. معراج نواب مرزا، د. محمد محمود السرياني: دوافع رحلة سنوك هورخرونيه وقيمتها العلمية مصدر سابق، ص ٦٣١.

(٢) المصدر السابق، ص ٦٢٩.

بدراسة جادة للمصادر، وأن إقامة سنة في الشرق بحد ذاتها غير كافية لجعل الفرد قادرًا على إصدار الأحكام حول تلك الظروف، ولقد استطعت في ذلك البلد (مكـة) الذي قلما يزوره الأوربيون، أن أجمع الوثائق في أكثر من اتجاه، ولكن هدفي بقى دائمًا منصبًا على مراقبة حياة الإسلام، ولذلك استعملت كل شيء كعامل مساعد لتحقيق هذا الهدف، ولذلك فأن تقييم مشاهداتي سيتم تدريجيًا ما بقى الإسلام موضوع بحثي الرئيسي.

لقـد أقمت علاقات ومعارف مع علية القوم من أفراد المجتمع المكي، ولقد سمعت ما يتعلمه سكان المدينة العالمية، وما يعلمونه لطلابهم، وكيف يتحدثون في أمور السياسة وأمور الفكر والثقافة، لقد درست النظم المثالية والحياة الواقعية، كما درست أصول العقيدة الإسلامية والصراع من أجل البقاء، درست ذلك كله وخبرته وتعلمته في المسجد والديوان والمقهى ومن واقع الحياة اليومية[1]"

فـي معـرض حديثـه عن الحيـاة المعاصـرة في مدينـة مكـة، قال د. هورجرونيه أن المكيين قد استطاعوا تحويل عاصمتهم المقدسة إلي مدينة منتجة، ومـع أن الدين الإسلامي لا يقر الوساطة بين العبد وربه، إلا أن هناك من أثرى ببعض التعلق بالأسباب الدينية، فمنهم من تولى حجابة البيت ورعاية بئر زمزم، وبحراسة بعض الأماكن الأثرية، كدار السيدة خديجة وغيرها، وبالطوافة[2] ... ثم تطرق إلي الحديث عن سكان مكة ".. خليط من كل جنس ولون، من الأتراك والهنود والجاويين والنوبيين والحضارم والبدو والأفارقة، وأن كانت الغالبية العظمة من المكيين لا يزالون ينتمون إلي أصولهم الأولى " وأشار إلي بواعث استقرار هذه الجاليات " منافع دنيوية أخرى " وتأقلمها يعكس إرتباطها بهذه المدينة المقدسة.

ثـم وصف بيوت مكة، بنائها وتخطيطها ومحتواها بشكل مفصل، ونظام إيجار البيوت. وتحدث عن التقويم الإسلامي القائم على دورة القمر.. كما تحدث عن الحياة الاجتماعية عقب موسم الحج.. وأشار إلي قلة أسفار أهل مكة، وبالتالي كانت " معلوماتهم عن الأوروبيين لا تتجاوز ما تلقوه عن أمهاتهم "!.. وعرض لوصف مظاهر الحياة في بعض أشهر السنة[3]، كشهور المحرم وصفـر وربيع الأول، وما يتخللها من الاحتفالات مثل عودة قافلة المدينة المنورة.. ووصف الاحتفاليات الخاصة مثل: ذكرى وفاة عبد الله بن عمر رضي الله عنه بمحلة الشهداء، ومولد النبي.. وموالد " بشكات " الشيخ محمود بمحلة جرول - مخصص فقط

---

(١) المصدر السابق، ص ٦٢٩ - ٦٣٠.

(٢) حمد الجاسر: رحالة غربيون في بلادنا.. مصدر سابق، ص ١٠٤.

(٣) راجع " صفحات من تاريخ مكة المكرمة " ترجمة: د. محمد محمود السرياني، د. معراج نواب ميرزا ص ١٢٠ - ١٢٨.

للنساء! - والشيخ المهدلي والسيدتين آمنة وخديجة، والطريقة السنوسية، وذكرى الإسراء والمعراج. ويقول في الاحتفال بالسيدة ميمونة " إن الشباب من أهل مكة يأتون هنا لأغراض مختلفة تمامًا، فهم يأتون للاستمتاع بهواء الصحراء، ولإرضاء بعض رغباتهم، وهم بعد تناول الطعام من " المبشور " و" السلات " وهما من الأكلات المفضلة لأهل مكة، يتجمعون بالقرب من القبر لسرد القصص والحكايات وإنشاد بعض الأغاني وقد يستخدمون بعض الآلات الموسيقية[1]"!

واسترسل د. هورجرونيه بذكر عادات أهل مكة، وفصل الحديث عن الزيارة الرجبية للمدينة المنورة، وعن أجواء وطقوس شهر رمضان في مكة، والاحتفال بالعيدين وما يجري من تبادل للزيارات فيهما ومظاهر البهجة العامة خلال ثلاثة أيام.

وتحدث عن " المطوفين ".. ووصف بعضهم بالجشع، واشار إلي نصيب والي مكة فيما يحصله هؤلاء.. و" في بداية ذو القعدة، لا ترى من أهل مكة سوى أناس شديدي الجشع والنهم[2]"!.. هذه الإشارة، بالإضافة إلي أحاديثه عن خرافات الاحتفاليات بموالد من ذكرهم، يدل بلا شك على عدم معرفته بمكانة هذه المدينة المقدسة وما يتصف به علماؤها وعقلاء أهلها من صفات فاضلة!

وفي حديثه عن الحياة العائلية في مكة المكرمة، حاول أن يمحو ما علق بأفهام الأوروبيين عن مدلول كلمة " الحريم[3]" فقال: " الأوروبي يعتقد أن في الركن الخلفي ببيت المسلم يوجد سجن يعرف بـ" الحريم " يحوي عادة أربع نساء وعددًا لا يحصى من الجواري. وكلمة الحريم في مكة لا تعني ذلك الجزء من الدار، بل تعني النسوة أنفسهم، وعندما يتحدث الرجل عن حريمه فأنه يعني زوجته وجواريه "! ثم تحدث عن الصلات بين النساء والتزاور بين الأسر والتحفظات في العلاقة بين المرأة والرجال الأجانب.. وعن تعدد الزوجات فقد خصه هورجرونيه في الطبقة العليا من المجتمع، وأن الزواج بواحدة هو السائد عمومًا[4] وأشار إلي أن ربة البيت هي طبيبة الأسرة، حيث تحتفظ ببعض الوصفات الطبية من الأعشاب والتوابل لكافة أنواع الأمراض[5]!"

وقد علل هوردرونيه انتشار الخرافات في العالم الإسلامي بقول: " إن انتشار الإسلام في

---

(١) المصدر السابق: ص ١٢١.

(٢)المصدر السابق: ص ١٢٧.

(٣)المصدر السابق: ص ١٧٦.

(٤)المصدر السابق: ص ١٨١ - ١٨٢.

(٥)المصدر السابق: ص ١٩١.

بقاع كثيرة من العالم، ساعد على إيجاد خليط من السكان من أصول متعددة أستوطن مكة، ولهذا فأن هذا المجتمع لديه الكثير من المعتقدات الخرافية التي تسربت إليه من جميع بقاع العالم[1]".

ويشير هورجرونيه إلي كثير من مظاهر الحياة الأسرية في مكة، كالاحتفالات في مناسبات الزواج، والختان، وختم القرآن الكريم، والعودة من زيارة ضريح النبي بالمدينة المنورة.. ولم يفته الإشارة إلي أن بعض مظاهر هذا الاحتفال الأخير يخالف الشريعة، فمن يدخل مكة يجب أن يدخلها بسكينة ووقار وبملابس الإحرام، وليس في مظاهرة على قرع الطبول والإنشاد، وأضاف: " في عهد الخلفاء الراشدين لم تكن هذه الترهات موجودة، ولم يكن الناس يبنون بيوتهم أعلى من الكعبة "!

ويعد حديثه عن " التعليم في مكة " من أغزر وأصقل ما كتب المستشرقون، فقد تناول قضايا علمية يرتكز إدراكها على عمق الفكر والمعرفة الواسعة بأصول المعارف والعلوم عند المسلمين.. وقال عن علوم العرب في عصر الجاهلية[2]: " قبل الإسلام كان الشعراء هم أهل المعرفة إلي جانب بعض فروع المعرفة مثل السحر والكهانة والتطبيب ".. أما في العصر الإسلامي فقد أشار إلي أن دعوة النبي لم تقتصر على نشر العقيدة الإسلامية، بل تجاوزتها إلي وضع الأسس الأولى للعلوم عند العرب، كما تحدث عن ظهور المدارس الفكرية التي نشأت عن تجدد الآراء والأفكار حول تفسير القرآن الكريم والأحاديث النبوية وما يعرف بعلم أصول الفقه وانتهاء تلك المدارس إلي المذاهب الفقهية الأربعة المعروفة.

وتحدث هورجرونيه عن بعض فروع المعرفة في مكة، فقال عن الطب " مجرد حرفة وليس علمًا " أما الفلك " فرئيس المؤذنين في المسجد الحرام وبعض راغبي المعرفة هم وحدهم الذين يعرفون التقويم وتفسير بعض الظواهر السماوية ".. وقال عن الكيمياء " إن فئات من أهل مكة يهتمون بها بغية الحصول على ثروة، بتحويل المعادن الرخيصة إلي معادن نفيسة "!.. وأشار إلي اهتمام بعض أهل مكة بعلم الجغرافيا لمعرفة البلاد الأصلية للحجاج وتجارتها وحكوماتها، كما أشار إلي اهتمام أهل مكة بالتاريخ[3] كالسيرة النبوية وتراجم الصحابة " ويوجد رجال مثقفون يشغلون وقت فراغهم بكتابة الحوادث الهامة في حياة هذه المدينة المقدسة ".

وتحدث عن اهتمام البعض باقتناء الكتب، والحرص عليها لندرتها، ومن الكتب التي يهتم بها المكيون: شرح إحياء علوم الدين للغزالي وسيرة ابن هشام وطبقات ابن سعد وكتب الأدب مثل: العقد الفريد ومقامات الحريري، بالإضافة إلي كتب التاريخ والعقيد ومؤلفات مؤسسي الطرق

---

(١) المصدر السابق: ص ١٩٣.

(٢) المصدر السابق: ص ٢٧١.

(٣) المصدر السابق: ص ٢٨٠.

الصوفية وسير الأولياء، وأشار إلي كتاب: تاريخ الفتوحات الإسلامية[1] " طبع أثناء إقامتي في مكة في المطبعة الحكومية[2] " ثم أفاض الحديث عن تعليم الخط العربي، وتحفيظ القرآن وفن تلاوته، وتحدث عن المصدر المعيشي لطالب العلم، وتطور العلوم الشرعية في القرون الخمسة الأولى، وأشار إلي ظهور المدارس كمؤسسات تعليمية في عالم الإسلام.

ثـم يخلـص إلي الحديث عن " الحـرم الشريـف " أقدم جامعات مكة، الـذي يتلقى مدرسوه الدعم المالي من مصادر مختلفة.. أما عن طريقة التدريـس فيقول[3]: " ليس هناك ما يمنع أي فرد من أن يجلس حيث يشاء في المسجد الحرام، بعد صلاة الجماعة، فهؤلاء أطفال يجتمعون لحفظ القرآن بحركات إيقاعيـة، بينما بعض أتباع إحدى الطرق الصوفية يتحلقون وينشدون، وتتوزع في أرجاء المسجد حلقات الطلبة.. ولكل مدرس أن يتقدم بطلب الأذن من شيخ العلماء، للتدريس في الحرم. وشيخ العلماء - وهو في الغالب مفتي الشافعية - هو الذي يتولى تنظيم كافة أمور المؤسسة الدينية التعليمية في المسجد الحرام، ويمثلها في علاقاتها مع العالم الخارجي، ومع السلطات الحاكمة، ويتولى توزيع عوائد المدرسين ويقوم بتعيينهم "

وأشـار هورجرونيه إلي المكانة الرفيعة التي كان يحظى بها علماء مصر في مكة المكرمة بتفوقهم العلمي و" لكن بعد احتلال الإنجليز لمصر، ومحاولة إسماعيل باشا نشر الحضارة الأوروبية، أصبح الناس ينظرون إلي - مكة - بأنها الملاذ الحقيقي للإسلام[4]".

وكـم كان محقًا د. هورجرونيه عندما وصف مكة بأنها مركز للعلـم والثقافة.. " وفي كل قرن من القرون، يظهر في مدينة مكة عدد من رجال العلم والثقافة، ولمئات السنين، تميزت بكونها مركز ممتاز للدراسات الشرعية الفقهية، ولقد تهيأت في الوقت الحاضر، أسباب عديدة جعلت من المدينة المقدسة مركزًا فريدًا للعلم والمعرفة لجميع بقاع العالم الإسلامي[5]"

---

(١) تأليف: أحمد زيني دحلان، ومن أشهر مؤلفاته: " خلاصة الكلام في بيان أمراء البلد الحرام " المطبعة الخيرية، القاهرة، ١٣٠٥ هـ، " تاريخ الدول الإسلامية بالجداول المرضية " المطبعة البهية، القاهرة، ١٣٠٦ هـ.

(٢) صفحات من تاريخ مكة المكرمة.. مصدر سابق، ص ٢٨٢.

(٣) المصدر السابق: ص ٢٩٨.

(٤) المصدر السابق: ص ٣١٨ - ٣١٩.

(٥)المصدر السابق: ص ٣٦٠.


الضابط الروسى المسلم عبدالعزيز دولتشين

من يوميات ..
ضابط روسي في مكة والمدينة !

شهد النصف الثاني من القرن التاسع عشر.. تعاظم النفوذ الروسي في منطقة الشرق الأوسط وفي آسيا الصغرى، خاصة بعد ضم إقليم " تركستان " إلي روسيا عام ١٨٩٨ .. وبالتالي، فقد ألحق بالإمبراطورية الروسية عدة ملايين من المسلمين، بالإضافة إلي الشعوب الإسلامية التي تعيش في ربوعها.

وبالرغم من أن الحكومة الروسية كانت ترى في " الخليفة التركي " عدوًا تقليديًا، إلا أنها كانت تنتهج حيال المسلمين من رعاياها: سياسة حذرة تؤمن حرية الاعتقاد وممارسة الشعائر الدينية، واستقطاب الأئمة والعلماء بجعلهم " موظفين حكوميين "[١]!

وشهدت تلك الفترة، تنامي الاتجاهات الإصلاحية في الفكر الديني وفي الفكر الاجتماعي السياسي في وعي الشعوب الإسلامية داخل الأقاليم الروسية، وتعاطفًا مع حركات التجديد في الإسلام في المشرق العربي!

وتزايد قلق الحكومة الروسية، فقامت بتكليف مجموعة من المستشرقين الروس بوضع تقارير عن دور وأثر الإسلام في الحياة الاجتماعية والسياسية للرعايا المسلمين[٢] ومن أهمها " قضية حج المسلمين من رعايا الدولة ".. كما تم تكليف " هيئة أركان الدائرة العسكرية " باقليم تركستان بمراقبة نشاط رجال الدين!

ثم اكتسبت " قضية " الحج إلي مكة المزيد من الاهتمام.. واعتبر الحج وسيلة لتسريب

---

(١)يفيم ديزفان: الحج قبل مئة سنة – الصراع الدولي على الجزيرة العربية والعالم الإسلامي – الرحلة السرية للضابط الروسي عبد العزيز دولتشين إلي مكة ١٨٩٨ – ١٨٩٩، دار التقريب بين المذاهب الإسلامية، بيروت، الطبعة الثانية، ١٤١٤ هـ/ ١٩٩٣، ص ٩.

(٢) Wustenfeld, F.: Die Chroniken der stadt Mekka, I - IV, LP2 , 1857 - 1861 .

أفكار " الجامعة الإسلامية " إلى روسيا[1]، وتقييم الحج كظاهرة دينية سياسية، وساد الاعتقاد – ليس في روسيا وحدها – بل في جميع دول أوروبا الاستعمارية أن ما يحدث من تمرد أو ثورات في المستعمرات فبتأثير من مكة!

ولـد عبد العزيز دولتشين في الرابع والعشرين من يونيو سنة ١٨٦١، نشأ في عائلة من النبلاء تعود أصولها إلى التتار[2]، تمتعت بالثراء وتميزت بروح التقـوى الإسـلاميـة، كان والده ضابطًا تولـى عدة مناصـب هامة في إدارة مناطق " الأورال " جنـوب روسيا.

بعـد أن تخرج عبد العزيز من مدرسة " الأمبراطور بافل " العسكرية ذات المستوى الرفيع في " بطرسبرج ".. قام بالخدمة خمس سنوات في قلعة " دينابورج " بالقرب من " دفينسك ".. وفي عام ١٨٨٧، التحق بمدرسة اللغات الشرقية للضباط التابعة لـ " الدائرة الأسيوية بوزارة الخارجية " التي منحت للجيش والدبلوماسية ولعلم الاستشراق الروسي نخبة من المستشرقين البارزين.

أجـاد الضابط الشاب عدة لغات أوروبية وشرقية: الإنجليزية والفرنسية، والتركية والعربية والفارسية[3]، وانفتحت أمامه آفاق رائعة للترقي، ومن " بطرسبرج " انتقل إلى الإدارة المحليـة بآسيا الوسطى، وبالتحديد في " قرة قلعة " بالقرب من مدينـة " عشق اباد " الشهيرة، وأقام هناك سبع سنوات، تعرف على اللهجات المحلية، ودرس أحوال السكان وعاداتهم وتقاليدهم الموروثة، وكانت له لقاءات مع قائد مقاطعة: ما وراء القزوين " كورباتكين " الذي أصبح وزيرًا للحربية، ونمت صداقتهما، وعندما تطلب الأمر ضرورة ترشيح ضابط بالجيش الروسي لأداء فريضة الحج " ووضع تصور حول ما إذا كانت هذه الفريضة تشكل خطرًا على المصالح السياسية الروسية في الشرق "!..

قـام " كورباتكين " بترشيح دولتشين، وقد حالفه التوفيق في هذا الترشيح.. فقد كان دولتشين مسلمًا، وبالتالي أتـاح لـه هـذا الترشيـح أداء فريضة الحج وبدا الأمر " كمنحة من القدر[4]"!.. ورأى دولتشين في هذه المأمورية: فرصة لمساعدة إخوانه في الدين من رعايا روسيا، وأدائهم فريضة الحج في ظروف أكثر ملائمة، في إطار يعكس عناية الدولة برعاياها.

---

(١) كراتشكوفسكي: المطبوعات الجغرافية العربية، مجلد ٤، ص ٤٥٧ -٤٥٨ راجع أيضًا: ميروبييف الأهمية الدينية والسياسية للحج " سفر المحمديين المشكور إلى مكة لأجل الاحتفال بالعيد الديني " ص ٢٣٧، قازان ١٨٧٧، فينر: " حج المسلمين إلى مكة " الكشوف التركمانية، عدد ٢٩، طشقند، ١٨٩٥.

(٢) يفيم ديزفان: مصدر سابق، ص ٣٠.

(٣) المصدر السابق، ص ٣٠ – ٣١.

(٤) لم يكن " دولتشين " أول ضابط مسلم بالجيش الروسي يزور مكة، فقد سبقه: العقيد " عباس قولي أغا باقي خانوف " ١٧٩٤ – ١٨٤٥، من أذربيجان، وهو مؤرخ وشاعر وفيلسوف، توفي في الطريق من مكة إلى المدينة ودفن بوادي فاطمة.

أفـاد دولتشين من دراسات وأبحاث " مواد أرشيـف " المستشرقين بمعهد الاستشراق بمدينة " لييـنجـراد " التابع لأكاديمية العلوم السوفيتيـة خاصة فيما يتعلق بالعقيدة الإسلامية وتاريخ الإسلام والشعوب الإسلامية ضمن حدود روسيا والعالم العربـي.. كما أفاد من هيئة الأركان العامة للجيش الروسي – التي مضى دولتشين إلي مكة بتكليف منها – حيث كانت تتمتع بتقليد ونشاط علمي بارز تمثل في قيـام الضباط الروس برصد الأوضاع السياسية والاجتماعية والاقتصادية لمختلف أرجاء الإمبراطورية العثمانية، بأشراف اللجنة العسكرية العلمية[1] برئاسة أوبروتشيف (١٨٣٠ – ١٩٠٤).

وفـي " التقرير " الذي أعده دولتشين عن رحلته إلي مكة.. كان واضحًا عمق الانطباع الذي تركته شعيرة الحج في مشاعره الدينية، بالإضافة إلي ملاحظاته الدقيقة، وأفاد من مصادر متنوعة عربية وتركية في جمع معلومات تفصيلية شاملة عن الحج، وقام بتحليل المشاكل المتعلقة بحج المسلمين من رعايا روسيا ومن الدول الأخرى، وركز على الأوضاع الصحية في الحجاز وإجراءات الوقاية، ووصف بالتفصيل مدينة مكة والمدينة المنورة، وطرق الحج، والأوضاع الإدارية.. كما تضمن تقريره معلومات ذات طابع سياسي وعسكري واثنوجرافي وتاريخي واقتصادي عن الجزيرة العربية والحج في نهاية القرن التاسع عشر.

طرق الحج الرئيسية لمسلمي روسيا :

حـدد " عبد العزيز دولتشين " ثلاثة طرق رئيسية للحجاج من رعايا روسيا في أواخر القرن التاسع عشر[2]، على النحو التالي:-

(١) من منطقة ما وراء القوقاز (ارمينيا واذربيجان وجورجيا) عبر " كرمنشاه " ومدينة " خانقين " بالقرب من الحدود التركية، في اتجاه بغداد، ثم كربلاء والنجف الأشرف، ثم إجتياز صحراء الجزيرة العربية إلي مكة والمدينة.

ويشير دولتشين إلي أن معظم حجاج هذا الطريق – ما بين ١٢ و١٥ ألف حاج من الشيعة، وفي هذه المناطق، يقوم " الجاويشية " بالإشراف على قوافل الحج، وهؤلاء الجاويشية غالبًا من السكان المحليين ومن الأتراك والعرب، حيث يجوبون الأقاليم قبل موسم الحج، ويسجلون أسماء وبيانات الراغبين في الحج، ويحددون لهم أماكن التجمـع، إلي أن يقودونهم عبر البلاد والحدود " غير مزودين بجوازات السفر "!.

(٢) عبر سمرقند وبخارى ومزار شريف وكابول وبيشاور في افغانستان ثم إلي بومباي بالهند ومنها بحرًا إلي جدة وينبع.

---

(١) يفيم ديزفان: مصدر سابق، ص ٣٢.

(٢) المصدر السابق، ص ١٦ -١٨.

ومن سمرقند وبخارى إلي افغانستان، يستخدم حجاج هذا الطريق " البغال " حتى بيشاور، ومنها إلي بومباي باستخدام السكة الحديدية، وحجاج هذه الطريق نحو ٧ آلاف حاج، وهو طريق تاريخي منذ مئات السنين، وتتمثل أهمية هذا الطريق من حرص الحجاج على الوقوف بمدينة " مزار شريف " حيث يزعمون أن لمقام " الأمام علي " بها قدرة عجيبة على شفاء العميـان والبكـم!

(٣) عبـر أوديسـا وسيباستوبول، من أجل سكان المناطق الداخلية في روسيا وسيبريا، وعبر " باتوم " من أجل سكان آسيا الوسطى وما وراء بحر قزوين – وهذا الطريق الأسهل والأقصر – ويفيد منه التتر والسنة من القوقاز وعددهم نحو ثلاثة آلاف حاج، ينطلقون من موانى البحر الأسود إلي القسطنطينة إلي السويس ثم جدة وينبع.

ويـذكـر دولتشين أن السفر في هذه الطرق الثلاثة لا يكلف أكثر من مائة روبل، ولكنها تحف بالكثير من المصاعب، وأشار إلي أن حجا الطريق الثاني، الذين يستخدمون البغال والجياد حتى بيشاور، يبيعونها ويربحون في أثمانها وغالبًا ما يشتريها " أمير كابول " ويضمها إلي إسطبلاته، وأكد دولتشين أن البواخر الإنجليزية توفر وسائل الراحة للركاب أكثر من بواخر الشركة الروسية!

يوميـات رحلة دولتشيـن :-

فـي السادس من مارس سنة ١٨٩٨، قام دولتشين بوداع عائلته وزملائه في الخدمة، وتوجه إلي " قيزيل أرواط " ليستقل القطار، وقد نقلت الأمتعة على " عربة يجرها حمار "!.. وفي الطريق كان يودع بعيونه جبال " كابت داج " التي كان يعرف كل ممراتها وقممها، والقرى الواقعة بمحاذاة السكة الحديدية(١).

فـي السابع من مارس، وصل إلـي "كراسنوفودسك" حيث استقل الباخـرة "ميريديان"(٢) جديدة، نظيفة، مقصورات مريحة.. إلي ميناء " بتروفسك " وقام بجولة في المدينة وأرسل بعض البرقيات إلي أمه وأخيه وهيئة الأركان.

فـي العاشر من مارس، سافر في القطار المتجه إلي " بسلان " ثم انتقل إلي قطار آخر متوجه إلي " روستوف "...

فـي الثاني عشر من مارس، وصل إلي " موسكـو " حيث تجول بالمدينة ودهش لمنظر " العربات الزحافـة(٣)"!.. وفي اليوم التالي وصل إلي " بطرسبورج "

---

(١) المصدر السابق، ص ٤٥.

(٢) المصدر السابق، ص ٤٦.

(٣) المصدر السابق، ص ٤٧.

فـي الخامس عشر من مارس، التقى الجنرال " زخـاروف " رئيس هيئة الأركان العامـة، الذي دعاه على مائـدة الإفطـار بمنزله، وفي المساء توجه إلي " الكونسرفاتوار " ومشاهدة عرض أوبرا " فاوست "!

فـي التاسع عشر، وصل إلي " دفينسـك ".. وفي اليوم التالي وصـل إلـي " أوديسـا ".. المدينة نظيفة، شوارعها واسعة، الإضاءة جيدة، غير أنها فاحشـة الغـلاء!

فـي الثاني والعشرين، استقل أحدث بواخر الشركـة الروسيـة " الإمبـراطـور نيقـولاي الثاني " المتجهة إلي الإسكندرية[1]، مرورًا بالبوسفـور، وتوقفت الباخرة فـي " القسطنطينيـة ".. وأشار مثل كثير من الرحالة: أنها مدينة رائعة من البحـر، لكنها قذرة وغير جذابة من الداخل!.. وفي السادس والعشرين وصل إلي " أزميـر " عبر مضيق الدردنيل.

فـي الثامن والعشرين، وصلت الباخرة إلي الإسكندرية.. " مشهد المدينة من البحر أوروبي تمامًا.. الشوارع ممهدة والأرصفة مبلطة، مباني ترتفع لعدة طوابق، جامع فخم.. تمثال محمد علي في الساحة.. الفندق سيء ولكنه مفروش على الطريقة الأوروبية "!.. وقد ابتاع من الإسكندرية: ردائين طويلين أبيضين وطربوشًا وشالًا حريريًا لأجل العمامة وحذاء وقطعتين من القماش الأبيض لأجل الإحرام، وزنارًا لأجل النقود.. ودفع ثمنًا ثلاثة جنيهات إسترلينية!

فـي الحادي والثلاثين، وصل إلي السويس بالقطار، بعد أن وصف مشاهداته على الطريق: مساحات شائعة مزروعة بالقمح والشعير، أشجار النخيل، السواقي، البيوت الطينية، قنوات كثيرة وزوارق شراعية.. ونزل عند " الحاج علي " من بخـارى[2]!

وفـي أول إبريل، توجه لزيارة مدينتي بور سعيد والإسماعيلية بطريق السكة الحديدية، ولاحظ كثرة الأوروبيين خاصة الفرنسيين والإنجليز. وأبدى إعجابه بمدينة الإسماعيلية، حيث النظافة وكثرة البساتين وحدائق الفاكهة، وبالمصادفة التقى بمجموعة من الحجيج – ٣٦ حاجًا – إقاموا مخيمًا بالقرب من محطة القطار. وكانوا من خراسان وبغداد وبلاد فارس، ذهبوا إلي القدس على ظهور الخيل، ثم إلي يافا بالسكة الحديدية ومنها حجزوا تذاكر من " الشركة الخديوية " إلي جدة، مرورًا ببور سعيد والإسماعيلية والسويس.

فـي الثالث من إبريل، عاد إلي السويس.. والتقى بضابط بحري تركي في فندق " اوروبا " متوجه إلي مكة.. وراع دولتشين حالة اللامبالاة بوجود كثير من المسلمين في المحال والمقاهي خلال صلاة الجمعة[3]!

---

(١) المصدر السابق، ص ٥١.

(٢) المصدر السابق، ص ٦٣.

(٣) المصدر السابق، ص ٦٧.

وفـي الخامس من إبريل، كان يومًا عصيبًا، حين توجه إلي ميناء السـويـس ليستقل الباخر " Magnet " عتيقة وقذرة جدًا.. فحص جوازات السفر واعتماد التأشيرة استغرق عدة ساعات!.. وتدافع الركاب على ألواح خشبية خطرة للوصول إلي الباخرة " المرعبة "!

وفـي التاسع من إبريل، وصلت قافلة الحجيج بحرًا إلي " جدة[1]".. مدينة جميلة، شعاب مرجانية وصخور بحرية واسطول من الزوارق الشراعية!

فـي الثاني عشر من إبريل، وصلت القافلة إلي مكة المكرمة " كان الوصول مفاجيء تمامًا، فالمدينة لم تظهر إلا حين دخلناها.. البيوت حجرية عالية تزدان بالمشربيات، صخب الزحام في الشوارع.. " ونزل دولتشين ورفاقه – مؤقتًا – في ضيافة " الحاج سلطان "!

وصف مكة:-

وفـي وصف لمدينة مكة المكرمة، قال دولتشين[2]: إنها المدينة التي تضم مقدسات الإسلام الرئيسية وهي المركز الإداري والتجاري الرئيسي في الحجاز، وتقع على مسافة ٧٠ فرستا (الفرستا = ١٠٦٠ مترًا) شرقي جدة، في موضع تحف به الجبال الصخرية، وغير مطوقة بسور مثل سائر مدن الحجاز....

" البيـوت غالبًا ترتفع إلي ثلاثة طوابق، مشيدة من الحجر والآجر المحروق، لمسات من فنون العمارة الإسلامية، وتزدان البيوت بالمشربيات الجميلة المنقوشة بزخارف بالغة الدقة، الطابق الأرضي يستخدم عادة كمخزن، ومعظم البيوت مزودة بالمراق خاصة خزانات المياه. "

ومـن بين المباني العامة، بالإضافة إلي الحرم الشريف، أشار دولتشين إلي مبنى " السراي الكبير[3]" الذي تشغله إدارة الولاية، تميزه هندسته المعمارية الأوروبية الجميلة، وإلي جواره مبنى " التكية المصرية ".. هناك أيضًا عدد من بيوت الأوقاف التي تحولت إلي تكايا: هندية وماليزية وأفغانية وقازانية وغيرها. وفي أطراف المدينة، شيد مبنى ضخم، رائع البناء، مزود بحمامات وسلالم مريحة، لأجل إيواء الحجاج الفقراء وهو يمثل لهم " بذخًا مفرطًا "!

ويشيـر دولتشين إلي أن شوارع مكة: ضيقة وغير ممهدة وغير مستقيمة.. وعدد سكان مكة طبقًا للإحصاء الرسمي للسلطات التركية مائة وعشرين ألفًا، خليط من جميع القوميات التي تدين بالإسلام: هنود وماليزيين وزنوج وأحباش ومصريين وأتراك وفرس وتتر ومن عرب أفريقيا ومن البدو وغيرهم.

(١) المصدر السابق، ص ٦٩ – ٧٠.

(٢) المصدر السابق، ص ١٤١.

(٣) المصدر السابق، ص ١٤٣.

و وصـف أهل مكة بالذكاء واللطف في المعاشرة والتخاطب، يعتزون كثيرًا بكرامتهم، يحبون إكرام ضيوفهم، وارتداء الثياب الفاخرة، والطعام الجيد. والوجبات المحببة لديهم " الأرز باللحم والتوابل " بالرغم من المناخ الحار!.. ويشربون الماء في أباريق فخاريـة، ويقدمـون القهوة على الطريقة الشرقية، وبدأوا يستعملون " الشاي الأسود، الثقيل جدًا، الحلو جدًا "!.. ويدخنون التبغ بالنارجيله.

وعن النساء كتب دولتشين :-

والنســاء عند العرب، كما عند الشعوب الإسلامية الأخرى، يرتدين الحجاب، ولكنهن يتمتعن بقدر من الحرية أكبر بكثير، مثلًا، مما عند التتر. وهن يترددن على الجوامع على قدم المساواة مع الرجال، ويشغلن فيها مكانًا مخصصًا لهن، ويذهبن وحدهن إلي السوق لشراء الحاجيات، وهناك نساء عديدات يتعاطين في الشوارع التجارة بالمفرق، وغالبًا ما تقع العين عليهن في المحكمة أمام القاضي، حاملات الشكاوى أحيانًا على ازواجهن "!

وعن الحياة الثقافية كتب دولتشين :-

الحيـاة الفكرية عند هذا الشعب القدير واللطيف لم تتقدم منذ ذلك العهد المجيد الذي كان فيه العرب يسيرون في طليعة الحضارة، وليس هذا وحسب، بل على العكس تراجعت أيضًا، وتلك العلوم التي ابتدعوها وطوروها فيما مضى لفها النسيان تمامًا في الوقت الحاضر. بل أن التعليم الأولي البسيط – مجرد القراءة والكتابة – محصور ضمن حلقة ضيقة جدًا، وأشراف مكة الذين يقومون بدور قادة الحجاج أثناء القيام بمراسم الحج لا يعرفون بأغلبيتهم الساحقة لا القراءة ولا الكتابة، وفي المدارس الدينية المحلية، كما في جميع المدارس الدينية في أي مكان آخر، يعلمون العلوم التقليدية الدينية ذاتها بتفاصيلها الدقيقة جدًا وغير الضرورية، مزدرين المواد الضرورية كالحساب والجغرافية مثلًا. ولكن المدارس الدينية أيضًا تحفل بالناس القادمين، غير المحليين، بينما المحليون استثناء فيهـا.

وصف الحرم المكي[1] :-

وكـان دولتشين قد قام بالطواف حول الكعبة والسعـي بين الصفـا والمـروة.. وكتب عـن إنطباعه وهو يؤدي المناسك "إنطباع عميق وعجيب جدًا، نادرًا ما يعيش الإنسان هذه المشاعر في حياته"!

(١) المصدر السابق، ص ١٤٥ – ١٤٦.

الكعبة المشرفه و"كسوة السعادة"[1] :-

" حـرم مكة الواقع في قاع الوادي وفي وسط المدينة تقريبًا مبنى بنفس التصميـم الذي بنيـت به جميع المساجد القديمة في دمشق والقاهرة، وهو عبارة عن ساحة شاسعة مربعة مخططة، محاطة من جميع الجهات برواق مسقوف.

المحـراب مقام في مكان مكشوف في وسط المسجد. الرواق الذي يحيط بالمسجد يتألف من أعمدة أغلبيتها منتصبة في ثلاثة صفوف، وموصولة بعضها ببعض بالأقواس ومغطاة بقبب غير كبيرة مخروطية الشكل. ارضية الرواق مرصوفة بصفائح حجرية، أما القسم المكشوف منه، فهو مغطى بالرمل فقط. في الزوايا الأربع، وفوق الوجه الشمالي والوجه الشرقي، تنتصب سبع مآذن مبنية في أزمان مختلفة وبأساليب هندسية معمارية مختلفة. وللدخول إلي المسجد توجد أربعة أبواب كبيرة – من الواجهة الشرقية باب السلام، ومن الواجهة الجنوبية باب الصفا، ومن الواجهة الغربية باب إبراهيم، ومن الواجهة الشمالية باب الزنده، وعداها يوجد ١٨ مدخلًا صغيرًا. الرقعة التي يشغلها المسجد أدنى من سطح الشوارع المحيطة، ولهذا يجب النزول بضع درجات مبنية تحت الأبواب لأجل الدخول إلي الحرم.

فـي وسط الحرم تقريبًا، تنتصب الكعبة، أو كعبة الله، أو بيت الله. وجدران الكعبة مكسوة من الخارج بقماش أسود يسمى الكسوة أو " كسوة السعادة ".. وللمرة الأولى أخذ أحد حكام اليمن " أبو كرب أسعد " يغطي جدران المعبد دليلًا على الإجلال والتكريم الخاص، وفي عهد خليفة بغداد المشهور " المأمون " كانوا يغيرون هذه الكسوة المصنوعة آنذاك من قماش فاتح اللون ثلاث مرات في السنة، ولكن الملك المصري " الصالح إسماعيل " شرع في سنة ١٣٤٩ م يرسل الكسوة من قماش أسود ويغيرها مرة واحدة فقط في السنة، وهذه العادة بقيت حتى الوقت الحاضر.

والكســوة عبارة عن قماش أسود حريري سميك جدًا مخيط من ٨ قطع ومطوق ثلثها الأعلى بآيات من القرآن الكريم موشاة بالذهب، وهذا القماش يصنعونه كل سنة في مصر بمبلغ خاص من أموال الأوقاف قدره ٤٥٠٠ ليرة مصرية (حوالي ٤٥٠٠٠ روبل) ويرسلونه إلي مكة المكرمة مع المحمل وكل سنة يجري تغيير الكسوة في اليوم العاشر من شهر ذي الحجة، وتوضع الكسوة القديمة تحت تصرف نظار الكعبة.

مـن بابي الكعبة، يفتحون الباب الشرقي المزين بوفرة من الفضة، في أيام معينة، عشر مرات في السنة، وإذ ذالك يسمحون بالدخول إلي داخل المعبد لجميع من يرغبون في الصلاة هناك. وداخل

---

(١) المصدر السابق، ص ١٨٠ – ١٨٣.

الكعبة عبارة عن قاعة بسيطة، خالية من أي زخرف وزينة، وجدرانها مكسوة بقماش حريري يرسله السلاطين الأتراك عند صعودهم إلي العرش "!

في المدينة المنورة:-

في السادس من مايو سنة ١٨٩٨، وصل دولتشين ورفاقه إلي المدينة المنورة.. وبعد أن عرض للرحلة الشاقة من مكة إلي المدينة، ومشاهداته على الطريق.. وصف المدينة بأنها تقع في سهل عريض على أنقاض مدينة " يثرب " القديمة، تميزها البساتين وأشجار النخيل.. يحيط بها سور حجري قوي تتخلله بوابات محمية وأبراج مزودة ببطاريات المدفعية، وتنتشر في السهل نقاط حراسة يرابط فيها جنود أتراك!

وكان دخولهم للمدينة من البوابة المصرية[١].. إجتازوا شارع عريض تنيره المصابيح، ثم سوق المدينة وشوارعه الضيقة المبلطة بقوالب حجرية، وحوانيت تصطف بشكل منظم.

وعندما عبروا البوابة الغربية لضاحية " العنبرية ".. شاهدوا بيوتًا ترتفع لعدة طوابق، وشوارع مخططة تصطف على جانبيها أعمدة الإنارة.. ثم " المبنى الضخم الرائع[٢] للتكية المصرية التي تتفق وظيفتها مع وظيفة التكية المماثلة في مكة، من الجانب الأيمن، مقابل التكية، تقوم ثكنات كبيرة وبقربها مستشفى عسكري. ثم دار الحاكم المحلي وينتهي الشارع بساحة شاسعة تتوقف فيها القوافل وتقوم فيها أسواق الحبوب والحطب والماشية. وضاحية مناخة تتصل بالمدينة عبر بوابتين، أهمهما البوابة السورية التي تؤدي إلي شارع ضيق لا يربو عرضه على ٤-٥ أمتار ولكنه أكثر شوارع المدينة المنورة انتعاشًا وحركة، وهو يعبر المدينة كلها وينتهي عند بوابة الحرم. وهناك شارع رئيسي آخر، أوسع بقليل وتقوم فيه أفضل البيوت في المدينة المنورة، وهو يتجه شمالًا، بموازاة الشارع الأول، وينتهي إلي بوابة أخرى من الحرم "

وقال دولتشين أن الحرم النبوي يقع في الشمال الشرقي للمدينة المنورة.. ويشغل المكان الذي كان فيما مضى – بيت النبي – وقد أعيد بنائه في عهد السلطان عبد المجيد، الذي اعتمد لهذا الغرض ٧٥٠ ألف ليرة تركية.. من طراز المسجد في مكة[٣]، ولكن هندسته المعمارية أضخم وأغني، وحوله صف أوسع من الأعمدة، وبخاصة من الجانب المواجه لمكة، وزينته الداخلية أكثر ثراء، وقد استعملوا الجرانيت المحلي الضارب إلي الأحمر، الجميل جدًا بعد صقله ونقشه، ومن الحجر ذاته نحتوا الأعمدة أيضًا. والأرضية تتألف من بلاطات مرمرية مستجلبة من مصر، وتتميز زخارف الجدران الداخلية ببذخ بالغ إذ أنها مغطاء بفسيفساء غنية وكتابات أنيقة بالذهب

---

(١) المصدر السابق، ص ٨٤.

(٢) المصدر السابق، ص ١٦٢.

(٣) المصدر السابق، ص ١٩٣.

من آيات القرآن الكريم والأحاديث النبوية. ومكان مسجد النبي السابق الذي يشغل وسط القسم الجنوب من الرواق، يتميز بزخارف ذهبية خاصة على الأعمدة. وهنا يوجد المحراب والمنبر المتميزان بنقش دقيق رائع، والمقامان في مكانيهما السابقين، كما كان الحال في المسجد الأولي. وإلي جانب مكان المسجد القديم، يوجد من جهته اليسرى إذا وقف المرء مواجهًا الجنوب، مكان البيت السابق للنبي محمد، المحاط بسياج مشغول برونزي عال، كثيف، مرفق بستائر حريرية، والمكلل فوق الحرم بقبة خضراء عالية. وفي هذا السياج المسمى الحجرة الشريفة أو الروضة المطهرة توجد قبور النبي محمد وخليفتيه الأولين ابـو بكر وعمر، المغطاة بغطاء حريري مشترك، أخضر اللون مطرز بالأحجار الكريمة والخيوط الذهبية، وفي الساحة المكشوفة بوسط الحرم توجد روضة فاطمة، وبئر فاطمـة.

وللحـرم خمس مآذن، أربع في الشوارع وواحدة في الواجهة الشرقية وللمدخل خمسة أبواب، أكبرها – وعبره يدخل الحجاج – باب السلام ذو التلبيس الرائع الغني.

فـي المساء، ينيرون الحرم وجوانية الهجرة بمصابيح كالتي في مكة. وهناك أيضًا شموع كبيرة مثل الشموع المستعملة في الكنائس، وفضلًا عن ذلك تتدلى في مختلف الأماكن ثريات بلورية تبرع بها الأغنياء!

وأشـار دولتشين إلي سكان المدينة المنورة.. قلة من أهل الحجاز ثم خليط من البشر، كثير منهم فضل البقاء والحياة في المدينة وحصلوا على " الجنسية الحجازية ".. ومعظمهم من الأتراك والجزائريين والتونسيين والمصريين وهنود وتتر.

ويضيـف دولتشين " وقد بدا لي أهل المدينة المنورة ألطف[1] من سكان مكة، فهم غاية في البشاشة، والمودة والسماحة، وكرم الضيافة ومكارم الأخلاق.. وسكان الحجاز يفسرون – على طريقتهم – هذه السمات من طبائع أهل المدينة بأن: بركة النبي – صلى الله عليه وسلم – لا تزال تشملهم لأنهم أكرموه بعد هجرته من مكة "!

(١)المصدر السابق، ص ١٦٤.



محمد أسد ..

اكتشافه للاسلام ورحلته الى مكة المكرمة

كانت جزيرة العرب- ومازالت – موضع اهتمام الرحالة والباحثين والعلماء والأدباء لخصوصيتها كإحدى مناطق الحضارة القديمة وملتقى طرق التجارة العالمية، ومركز اتصال بالغ الأ همية بين الحضارات الأنسانية.. ثم كان بروز الاسلام: يقينا متوهجًا صحح المفاهيم وقدم الاجابات الواضحة وشكل قوة روحية عظيمة وصلت الى مشارف الاطلنطى غربًا وحتى سور الصين العظيم شرقًا، وماواكبه من أحداث سياسية واجتماعية واقتصادية تركت تأثيرها على العالم، مما اثار اهتمام الغرب، وحفز الرحالة والمستشرقين على التعرف على الاسلام ودراسته، وما شكله الحرمان الشريفان من أهمية دينية بالغة لجميع المسلمين فى بقاع الأرض.. ثم قيام الملك المؤسس " عبد العزيز آل سعود " بالعمل الأعظم عندما وحد جزيرة العرب وأسس المملكة ونشر مظلة الأمان على ربوع البلاد وهى الاشارة التى كانت قاسمًا مشتركًا فى كتابات الرحالة الغربيين.

ويأتى على رأس تلك المدونة الضخمة التى أنتجها هؤلاء الرحالة المستشرقين، كتابات الرحالة والعالم المفكر " محمد أسد " فى اطار تلك المعرفة الغزيرة بالشرق ووصفه واعادة تشكيلة ضمن فروع الدراسة العلمية المكثفة.

وعلى الرغم من أن " محمد أسد " كانت تفصله عن عالمنا ليس فقط المسافة الجغرافية، ولكن أيضًا الفهم والتواصل مع أنساق فكرية مختلفة وفروق حضارية.. إلا أنه كان طرازًا نادرًا من الرحالة وهو يخوض غمار غرابة عالم آخر: باحثًا عن الينابيع الداخلية الدقيقة فى أعماقة.

نشأ " ليوبولد فايس " فى أسرة يهودية وكان جده لأبيه حاخامًا، أتقن ليوبولد العبرية ودرس التوراه والتلمود وشروحهما وبات قاب قوسين أو أدنى من تحقيق حلم جده فى أن يتصل حفيده بسلسلة أجداده الحاخامات!

درس الفلسفة والفن بجامعة فيينا، ثم أتيح له أن يقوم بعدة رحلات فى الشرق الأوسط مراسلًا لبعض الصحف ووكالات الأنباء[1]، فى ربيع عام ١٣٤٠ هـ/ ١٩٢٢ كانت رحلته الى " القدس " وأول معرفة مباشرة له بالاسلام، وبعد عدة شهور دخل الجامع الأموى فى دمشق وتأمل كثيرًا مشهد جموع المصلين وتوحدهم، وأحس " بضرورة فهم روح هذه الشعوب المسلمة ".. ثم زار القاهرة فالتقى "مصطفى المراغى " شيخ الجامع الأزهر – صارا صديقين – فحاوره فى مقارنة الأديان، ثم بدأ بتعلم اللغة العربية فى أروقة الأزهر الشريف وهو لم يزل بعد يهوديًا!..

وظل مشغولًا بالبحث عن الحقيقة الكبرى خلال رحلاته فى ربوع العالم الاسلامى، مختلطًا بشعوبه، متعمقًا فى ثقافته، خاصة بعد إجادته للعربية والفارسية.. وكلما ازداد فهمًا لتعاليم الاسلام، ازدادت رغبته فى التساؤل عن واقع حياة المسلمين المعاصرين وبعدهم عن الامكانات المثالية التى تزخر بها تعاليم الاسلام، وناقش هذه الفكرة مع كثير من المفكرين المسلمين ما بين طرابلس الغرب الى جبال الافغان وهضبة " البامير " فى الهند، ومن البوسفور الى بحر العرب.. الى أن استجاب لنداء الاسلام عام ١٩٢٦م على يد رئيس الجالية الاسلامية فى برلين، وأدى فريضة الحج.

وكتب العالم والدبلوماسى والرحالة د.عبدالوهاب عزام عن اسلامه: " استجابة نفس طيبة لمكارم الأخلاق ومحاسن الآداب واعجاب قلب كبير بالفطرة السليمة، وادراك عقل منير للحق والخير والجمال "..

وقام بسفارة محفوفة بالأخطار بين السيد " الشريف السنوسى " وهو فى منفاه بمكه وبين المجاهد الكبير " عمر المختار " فى برقة لتدبير السلاح والذخيرة والمؤونة للمجاهدين، فى ظروف بالغة الخطورة[2]، وعقب تأسيس دولة الباكستان، دعاه صديقه الشاعر والفيلسوف والمفكر الكبير " محمد اقبال " لتنظيم " دائرة احياء الاسلام " فى البنجاب الغربيةوالاسهام فى وضع أسس ونظم الدولة الوليدة، وتولى " محمد أسد " رئاسة معهد الدراسات الاسلامية فى " لاهور " وأسس مجلة " عرفات " وأشرف على مجلة " الثقافة الاسلامية " فى حيدر أباد، ثم عين وزيرًا مفوضًا للباكستان فى الامم المتحدة، الى أن عاد رئيسًا لقسم الشرق الأوسط بوزارة الخارجية الباكستانية حتى استقالته عام ١٩٥٢ ليتفرغ لأبحاثه وكتاباته، حتى أصبح واحدًا من أبرز المفكرين الاسلاميين فى عصرنا، وأشتهر مؤلفاته: الاسلام على مفترق الطرق، منهاج

---

(١) عبد الرحمن بدوى: موسوعة المستشرقين، دار العلم للملايين، بيروت، ١٩٩٣م.

(٢) محمد أسد: الطريق الى مكة، ترجمة: رفعت السيد، مكتبة الملك عبدالعزيز العامة، الرياض، ١٤٢٥ هـ عن كتاب: **Asad,M.:The road to Mecca, Simon and Schuster, 1954**.

الاسلام فى الحكم، الطريق الى مكة (ترجم الى عدة لغات) وترجمة لمعانى القرآن الكريم بالانجليزية، وترجمة صحيح البخارى مصحوبه بتعليقات وفهارس[1].

رحلته الى " تيماء ":

لا يعتبر " محمد اسد " كتابه القيم " الطريق الى مكة " سيرة ذاتيه ولا رواية لمغامرات – على الرغم من كثرتها وما أحاط بها من أهوال – وانما هو بايجاز شديد "حكاية اكتشاف رجل أوروبى للاسلام " واندماجه فى المجتمع الاسلامى، عرف "محمد أسد " ايران ومصر أفضل مما عرف دول أوروبا، وكشفت له " كابول " أسرارهـا،

وبهرته أسواق دمشق والقاهرة وأصفهان والقدس العتيقة وصخب الحياة الشرقية.. إلا أنه لم يشعر بعظمة الحياة وسطوتها إلا فى صحراء العرب " تدهشك دائمًا بمفاجآتها " شكلت الصحراء وجدانه وهو الذى عايشها فى أوج عظمتها وتدفقها وحيويتها وتنوعها " فى هذه الصحراء يكمن شذى الجزيرة العربية "..

وكانت زيارته لواحات " تيماء " القديمة فى صيف ١٣٥١ هـ / ١٩٣٢م تتويجًا لرحلاته الاستكشافية، فآبارها العظيمة – التى لا مثيل لها فى جزيرة العرب – جعلت من " تيماء " منطقة تجارية كبيرة قبل الاسلام ومقصدًا للقوافل، وموطنًا للثقافة العربية المبكرة.. وسلك الطريق اليها عبر " قلب صحراء النفود " الرهيبة.. بحار شاسعه من الرمال الحمراء المقفرة، وكان " زيد الشمرى " دليله ورفيقه فى هذة الرحلة، كتب عنه: " كان زيد أحد أفضل الرجال الذين قابلتهم فى الجزيرة العربية.. الصحراء تسرى فى دمه، وقلبه يخفق متجاوبًا مع نبضها[2] "!

وعندما حل ضيفًا على مضارب البدو، وبعدما استقرت النظرات الحادة لشيخ قبائل " شمر " فى ربية على وجه محمد أسد، تذكر أنه رأى " هذا الأجنبى ذو البشرة البيضاء " فى القصر الملكى بالرياض، وتبادلا الذكريات والطرائف حول ضيوف الملك.. " كان البدو عادة يذكرونه باسمه الأول – عبد العزيز – بلا ألقاب رسمية ولا صفات تشريف، فهم فى تلقائيتهم وفطرتهم يرون الرجل فى الملك قبل أى جانب آخر، كانوا يجلونه فى إطار ما تفرضه البيئة الصحراوية "!

صداقة أسد بالملك:

إشتهر " محمد أسد " بصداقته للملك عبد العزيز، وكان أول لقاء بينهما فى مكة المكرمة سنة ١٣٤٥ هـ / ١٩٢٧ عقب اعتناقه للاسلام بعدة أشهر.. كتب أسد " توجهت فى الموعد المحدد الى بيت جميل فى جنوب مكة المكرمة، يقع على حافة صخريه تشرف على الطريق المتجهة جنوبًا الى

---

(١) موسوعة المستشرقين، مصدر سابق، ص ٥٣.

(٢) راجع مقدمة: الطريق إلى مكة، مصدر سابق.

اليمن، من شرفات المنزل الرحب تبدو مآذن الحرم، آلاف من البيوت تبدو كمكعبات بيضاء، وأسوار شرفات مشيده من أحجار ملونة، وخلف البيوت تبدو تلال الصحراء الساكنة تعلوها سماوات متوهجة"[١].

وكان الأمير (الملك) فيصل بن عبد العزيز حاكمًا للحجاز، وتوطدت أواصر صداقته بمحمد أسد، وكان أول لقاء بينهما بالمصادفة فى مكتبة الحرم المكى " التى اصطفت على جدرانها خزائن المخطوطات العربية والفارسية والتركية " وتحدث أسد عن هيبته ونبل سلوكه على الرغم من أنه لم يتعدى الثانية والعشرين من عمره.

مهد الأمير فيصل للقاء محمد أسد بالملك عبد العزيز، شقت السيارة طريقها عبر شارع المعلاة التجارى، والذى كان سوقًا لبيع السلع البدوية: رحال جمال، عباءات، طنافس، قرب مياة جلدية، خيام، سيوف، أباريق قهوة نحاسية.. كانت أمام دار الملك أعداد كبيرة من الجمال المرحولة وعدد من الحراس المسلحين، ووصف الدار وقاعة الاستقبال حيث " كان الملك جالسًا تحت نافذة عريضة تطل على الحديقة " تطلع أسد فى تعجب الى قامة الملك المديدة، وكان على دراية بعادات أهل نجد فى تحية العظماء، فنهض على أطراف أصابع قدميه حتى يستطيع لثم طرف أنف الملك وجبهته!.. ووصف زى الملك وكتب عن جلالته: " يحمل إمارات الرجولة والقوة، له لحية وشارب محفوفان على طريقة أهل نجد، عريض الجبهة ذا أنف مستقيم طويل، أما فمه فقد كان يشى بالرقه لا بالتهاون،وحين يتحدث يبدو وجهة مفعمًا بحيوية فائقة ".. وأضاف أسد: " لقد أحببته حبًا صادقًا، وكانت صداقة الملك عبد العزيز لى على مدى أعوام اقامتى فى الجزيرة العربية مثل ضوء دافىء يغمر جوانب حياتى، كان ينادينى بصفة الصديق ويعاملنى بهذه الصفه، على الرغم من أنه ملك وأنا لست إلا مراسلًا صحفيًا، كنت أناديه بدورى بلقب الصديق، لا بسبب ما أظهره تجاهى طوال اقامتى فى المملكه، فقد كان ذلك جانبًا من خصاله تجاه كثيرين ممن عدهم أصدقاء له، ولكن لأنه كان يفتح قلبه لى فى مناسبات كثيرة، تمامًا مثلما يفتح خزائنه لأبناء شعبه.. كان رجلًا لا يضارع وهكذا كنت أعده رجلًا رائعًا صادقًا مع نفسه ومتسقًا معها فى كل سلوكياته ودائمًا ما كان يمضى الى تحقيق ما ارتآه بعزيمة صادقة ".

أصبحت جزيرة العرب موطنه، فلم يعد أجنبيًا ولا غربيًا، وتحول ماضيه الأوروبى الى أضغاث أحلام، عاش فى المدينة المنورة لفترة حيث اقترن بزوجة عربية أنجبت ابنه " طلال ".. وكانت له بالمدينة مكتبة ذاخرة بالكتب عن تاريخ الاسلام وسيرة النبى وفى علوم القرآن والحديث، لكنه كثيرًا ما كان يدفعه الشوق الى المغامرة والترحال فى الصحراء التى عشقها[٢].

---

(١) محمد طماشى: عظماء ومفكرون يعتنقون الاسلام، ط.الثالثة، دار المحبة، دمشق، ١٩٩٢ م.

(٢) Peter, F.E.: The Hajj, the Muslim pilgrimage to Mecca and holy places, Princeton University press,1994 .

فى ليالى الصحراء، كم راح محمد أسد يسترجع الذكريات مع رفيقه " زيد ".. تذكرا أول رحلة لهما معًا فى أعماق صحراء العرب قاصدين " وادى بيشه " ثم الى صحراء " رنية " التى لم يطأها أجنبى من قبل.. واصراره على زيارة " المربع الخالى " وأيام ثلاثة كان فيها محمد أسد على وشك الموت بمفرده.. والبدوى الذى كاد أسد أن يرديه بالرصاص عندما عزم على تركهما وحدهما فى تلك الصحراء الرهيبة عندما اكتشف امتلاكه " آلة مكروهة تصنع الصور المحرمة دينيًا "!.. وتذكرا يوم ذهبا الى القاضى الشرعى ليحتكما اليه فى شرعية آلة التصوير، وكان لخطاب الملك عبد العزيز وختمه " فعل السحر على القاضى " فأجاز التصوير!

تداخلت صور الماضى والحاضر فى صمت الصحراء الذى تنيره النجوم، وعادت الذكراة الى أول حج أداه محمد أسد، ثم ظروف الكآبة التى عاشها عقب رحيل قرينتة " إلزا " التى أحبها كما لم يحب إمرأة أخرى والتى " ترقد الآن تحت تراب مكة المكرمة".. فكانت وفاتها – بعد تسعة أيام من حجهما معًا- نهاية طريقها وبدايو طريقة!.. كانت تدرك ما يريد من الحياة وشاركته اهتماماته فى رحلة البحث عن الحقيقة – أشهرت اسلامها بعده بعدة أسابيع – كانا يقرآن القرآن معًا ويتناقشان حول ما ورد فيه من أفكار، وأدركا معًا أن جوهر رسالة الاسلام ذلك " المنهج الاجتماعى الذى قدمه على قدر من البساطة يتناسب مع عظمتة ".. تجاوز أسد مرحلة الاستغراق الفكرى، وشغلته الحالة المعاصرة للعالم الاسلامى واخفاق المسلمين فى تحقيق منهج الاسلام، مؤكدًا " أننا نحن فى العصر الحالى نحتاج الى تعاليم تلك الرسالة أكثر من هؤلاء الذين عاشوا فى عصر محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ لقد عاشوا فى بيئات وظروف أبسط كثيرًا مما نعيش فيه الآن "!.. وظل محمد أسد حتى وفاته عام ١٩٩٢م يحلم بنهضة إسلامية جديدة اجتماعية وسياسية واقتصادية.. وبمجتمع اسلامى أكثر وعيًا بروح الاسلام الحق والأخوة الاسلامية.

رحلة الحج.. وقائع وانطباعات:

أدى محمد أسد فريضة الحج خمس مرات، وسمع نداء " لبيك اللهم لبيك " للمرة الأولى فى أول حج له عام ١٩٢٧م، صادرًا من مئات الحناجر على متن سفينة تحمل حجاج شمال افريقية من مصر الى جدة[١]، ومع تصاعد نداء التلبية، ينتشر الحماس بين الحجاج وتخفق القلوب عبر صفحة الماء باتجاه البلد الذى به معقد الآمال وكتب أسد:"بالنسبة لى كانت رؤية ساحل الجزيرة العربية يمثل طموح سنوات من البحث، نظرت الى إلزا التى كانت ترافقنى فى الحج، قرأت المشاعر نفسها فى عينيها "!.. وبينما كان يفكر: هل يوجد ما يعمق حياتهما اكثر من الحج ؟!.. بالطبع لم يكن مدركًا بمدى قرب الموت منها، ولكن قدر له فى حجته الأولى أن يغادر ماضيه وعالمه القديم، ويوصد فى صمت أفكار الغرب ومفاهيمه!

---

(١) عبد الحليم محمود: أوروبا والاسلام، دار المعارف، القاهرة، ١٩٨٦م.

كانت الترتيبات قد تمت فى جدة لاقامتهم فى مكة المكرمة لدى مطوف شهير يدعى " حسن عبيد ".. دخلت القافلة من الباب الشرقى لمدينة مكة تشق طريقها خلال زحام الحجاج والبدو والجمال المحملة والحمير المزينة، وسيارات فى ذهاب واياب ـ كانت السيارات الأولى فى المملكة ـ محملة بالحجاج، فى كل مكان كان " أسد " يسمع " لبيك اللهم لبيك " وأغانى الحنين الى البقاع المقدسة " كانت بيوت مكة المكرمة تماثل بيوت جدة بنوافذ عربية ـ مشربيات ـ من الأخشاب المعشقة " وفى صباح اليوم التالى اتخذوا طريقهم إلى الحرم المكى خلال شوارع مزدحمة، جزارين سلخوا جلود الماعز وعلقوها، بائعى خضروات فرشوها على حصر، ومحلات ملابس " مهرجان من ألوان " يضم طرز ملابس الشعوب الاسلامية.

ووصف " محمد أسد " مشهد الحجيج الذين أتو من كل فج عميق، أزياء ولغات مختلفة فى صخب الزحام.. أجساد بنية لصوماليين يلمعون كالنحاس فى ملابس صارخة الالوان؛ وعرب من أعماق الجزيرة العربية، وجوه نحيله بلحى كثة، وخطوات متثاقلة، وآخرون ضخام الأجسام أوزبكيون من بخارى، مازالوا بملابس بلادهم، من قفطان سميك وحذاء طويل حتى الركبة على الرغم من جو مكة المكرمة اللافح؛ بنات من جاوة بوجوه مكشوفة وأعين مثل اللوز؛ مغاربة متثاقلو الخطو يتيهون بالبرنس الأبيض،

وأهل مكة المكرمة بملابسهم البيضاء ورؤوسهم المغطاة، فلاحون مصريون بوجوه تملؤها الإثارة؛ هنود فى ملابس بيضاء وعيون سوداء تتطلع من تحت عمامه ضخمة بيضاء، ونساء هنديات بزيهن التقليدى فبدين مثل خيام متحركة؛ الفولاتا السود من تمبكتو وداهومى فى ملابسهم الزرقاء وغطاء رأس أحمر؛ سيدات صينيات دقيقات الحجم مثل فراشات ملونة، وخطوات صغيرة وأقدام دقيقة مثل أقدام الغزلان!

" هذه هى الكعبة، موضع شوق ملايين الناس وتوقهم على مدى قرون طويلة. ضحوا تضحيات عظمى فى سبيل الوصول إليها؛ فى الطريق إليها مات كثيرون؛ ووصل إليها كثيرون ممن يعانون الحرمان وشظف العيش؛ كان هذا المبنى المكعب غايتهم وأسمى أهدافهم، وكان الوصول إليه هو كامل التحقق.

ها هى ذى الكعبة هناك فى المنتصف، مكعب مكتمل مغطى تمامًا بستائر سوداء، يقف كجزيرة هادئة فى ساحة الحرم الواسعة: أهدأ من أى شكل عمرانى آخر فى العالم. أراد أول من بنى الكعبة – أعيد بناؤها منذ عهد إبراهيم عليه السلام عدة مرات على الشكل نفسه – أن يصنع مثلًا لتواضع البشر أمام الله. لقد أدرك من بناها أنه لا يوجد جمال عمرانى مهما كان رائعًا، ولا اكتمال فى الخطوط، مهما كانت عظمتها، يمكن أن تتناسب مع عظمة الله ".

ثم يأخذنا المستشرق العظيم الى حيث نستشعر جلال الموقف ورهبته، مسجلًا انطباعاته فى

مقارنة ما شهده من روائع العمارة الاسلامية بايقاعاتها الملوكية وبساطة بناء الكعبة بما يتناسب مع عظمة الله، فكتب: " لقد زرت مساجد وجوامع ومزارات إسلامية كثيرة رصعتها الأيدى الخلاقة بكل أنواع الفنون والأشكال، رأيت جوامع شمـال إفريقية التى تبدو كقصور رائعة للصلاة مشيدة من الرخام والمرمر الأبيض؛

ورأيت مسجد قبة الصخرة فى القدس، قبة عظيمة مكتملة فوق بناء رشيق، إنها حلم من الخفة والثقل من دون تعارض؛ ورأيت الجوامع الرائعة فى إستنبول، جامع السليمانية، وجامع " ينى فاليد ". وجامع بايزيد، وجوامع برصه، فى آسيا الصغرى، وجامع السفافيد فى إيران، إنها ايقاع ملوكى من الحجارة والصخور الملونة، والفسيفساء، ومداخل هائلة تعلو الأبواب المفضضة، ومآذن شاهقة مستديرة من المرمر بشرفات من الأزرق التركوازى، وساحات مغطاة بالرخام، ونوافير مياة، وأشجار نادرة عتيقة، عظيمة حتى فى قدمها.

رأيت كل ذلك – إلا أننى لم أشعر برهبة أمام أى منها كما أشعر بها الآن أمام الكعبة. لقد اقترب بانيها تمامًا من التعبير عن مفاهيمة الدينية، فى البساطة المطلقة للمكعب، فى التخلى عن كل ادعاء بشرى للجمال الفنى، لقد فكر: " مهما كان قدر الجمال الشكلى الذى يمكن للانسان أن يصنعه بعقله ويده، فسيكون من قصور الخيال أن يظن أنه يتناسب مع عظمة الله؛ ولذلك، فإن أبسط شكل يمكن أن يدركه العقل البشرى هو أعظم شكل يتناسب مع عظمة الله ".

فالشكل يجسد التخل البشرى عن كل ادعاء، ويتحدث عن التسليم لله؛ ولا يوجد مثيل ولا شبيه للبساطه العظيمة لبناء الكعبة على وجه الأرض كلها.. ويستطرد " محمد اسد " فى تسجيل مشاهداته وانطباعاته، فكتب:

" لايوجد إلا مدخل واحد للكعبة، وهو باب مغطى بطبقة رقيقة من الفضة فى الجانب الشمالى الشرقى، على ارتفاع سبع اقدام عن سطح الأرض، ولا يمكن الوصول إليه إلا باستعمال سلم يوضع أمام الكعبة بضعة أيام من كل عام. والكعبة من الداخل، وهى مغلقة عادة (رأيتها من الداخل بعد ذلك فى مناسبات أخرى) بسيطة جدًا، أرضها من الرخام عليها بضعة بسط، ومصابيح من البرونز والفضة تتدلى من دعامات السقف الخشبية، وداخل الكعبة لا يحمل فى الحقيقة أى معنى فى ذاته، فقداسة الكعبة تخص المبنى بأكمله كقبلة لكل العالم الإسلامى...

يوجد فى الركن الشرقى من مبنى الكعبة حجر أسود من دون ستائر، ويحيط به إطار فضى عريض، وأحدث تقبيل المسلمين له على مدى أجيال متتالية وقرون طويلة من الزمن، تجويفًا بالحجر، وكان تقبيل المسلمين له سببًا فى سوء فهم كبير من غير المسلمين، فقد أشاعوا أنه جزء من صنم قد وضعه محمد – صلى الله عليه وسلم – تصالحًا مع مشركى مكة المكرمة، وذلك مجاف تمامًا للحقيقة. فالكعبة موضع تبجيل

لا موضع عبادة، أى أنها لا تعبد، وكذلك الحجر الأسود موضع تبجيل لأنه كل ما تبقى من البيت الذى أسسه إبراهيم عليه السلام، ولأن شفتى محمد – صلى الله عليه وسلم – قبلته فى حجة الوداع قبل موته، فإن الحجاج يفعلون ذلك اقتداء به، كان الرسول – صلى الله عليه وسلم – واعيًا أن أجيال المسلمين من بعده ستقتدى به فى افعاله وأعماله، وكان يعلم أنه بتقبيله الحجر ستلتقى شفاه أجيال المسلمين من بعده فى وضع تقبيله الحجر فى احتضان رمزى، أقوى من الزمن، والحجاج عندما يقبلون الحجر الأسود، كأنما يحتضنون الرسول – صلى الله عليه وسلم –، ويحتضنون جميع المسلمين الذين جاؤوا هنا من قبلهم والمسلمين الذين سيأتون هنا من بعدهم!

وقفت أتأمل البيت الذى أقامه ابراهيم عليه السلام، وأتدبر عظمته من دون قدرة على التفكير (الأفكار والانعكاسات تأتى إلى المرء بعدها بزمن طويل)، من نواة فرح داخلى انبثقت بهجة وازدادت وعلت مثل الصوت الشجى.

كان بلاط الرخام يغطى الأرض فى دوائر حول الكعبة تعكس ضوء الشمس، يسير عليها بشر كثيرون ن رجال ونساء، يدورون حول بيت الله. كان من بينهم من يبكون، وآخرون يدعون الله جهرة فى الصلاة، وغيرهم ممن لم يجد كلامًا ولا دمعًا،راح يطوف ورأسه منكس إلى الأرض...

ان " محمد أسد " لا يدون مشاهداته فحسب، وانما يعبر أيضًا عن عمق تأملاته وقدرته على التحليل النفسى للظواهر والمناسك، فكتب[1]:

" من شعائر الحج أن تطوف سبع مرات حول الكعبة، لا لتظهر تبجيلك للكعبة، ولكن لتذكير المسلمين بأساسيات الحياة. فالكعبة رمز لوحدانية الله، وطوف المسلمين حولها رمز لأنشطة الحياة، يتضمن أن عبادة الله لا تكون بالفكر والمشاعر وحدهما

– وكل ما يمكن تسميته " الحياة الداخلية " – بل بالفعل البدنى والجسدى، أى بالمسعى والفعل، وبذلك يكون الوجود الإلهى محور الوعى الذهنى والفعل البدنى.

طفت أنا أيضًا ببطء، وأصبحت حزءًا من التدفق الدائر حول الكعبة. يظهر ويختفى رجل أو إمرأة بالقرب منى؛ صور منفصله تظهر أمام بصرى وتختفى، رجل أسود عملاق بملابس الإحرام، وسبحة خشبية ضخمة يلفها حول معصمه، ظهر ثم اختفى فى الزحام، ورجل مالاوى عجوز حاذانى فترة يحرك يديه كأنه فى حيرة، ثم اختفى. عينان خضراوان تحت حواجب شعثاء – إلى من تنتمى ؟ ضاعت فى الزحام. ضمن زحام الناس أمام الحجر الأسود، كانت هناك امرأة هندية شابة، ومن الواضح أنها عليلة، على وجهها الرقيق الدقيق توق واشتياق، واضح وضوح

---

(١) الطريق إلى مكة، مصدر سابق، ص ٤٩١ – ٤٩٣.

قاع الماء الشفاف، كفاها مرفوعتين فى ضراعة باتجاه الكعبة، أصابعها ترتجف كأنها فى صلاة صامتة!..

طفت، وطفت، مرت دقائق لا أعرف لها عددًا، اختفى ما كان بقلبى من مرار ومشاغل - أصبحت جزءًا من تيار يدور – آه! هل كان ذلك هو معنى ما نفعله؛ أن نعى أن المرء حزء يدور فى فلك ؟ هل يصبح إدراك ذلك نهاية كل حيرة ؟ ذابت الدقائق، وتوقف الزمن، وكأن الكعبة مركز الكون.. "!





المستشرق المجرى عبدالكريم جرمانوس

عبد الكريم جرمانوس ..
شمس الإسلام تشرق من مكة مرة ثانية !

الرحالة المستشرق المجري " جرمانوس - J.Germanus " الذي تعلق قلبه بالإسلام وفكره بالحضارة الإسلامية والأدب العربي، ولد في بودابست في السادس من نوفمبر سنة ١٨٨٤، التحق بجامعة فيينا سنة ١٩٠٥ ثم بجامعة استانبول، صنف كتابًا بالألمانية عن الأدب في العصر العثماني سنة ١٩٠٦، والحقه بكتاب عن تاريخ الاتراك في القرن السابع عشر.

تتلمذ جرمانوس على المستشرقين الكبيرين " فامبيري " و" جولدتسيهر [(١)]" وتعلم اللغات اللاتينية واليونانية والإنجليزية والفرنسية والإيطالية والمجرية، ومن اللغات الشرقية: الفارسية والأردية والعبرية والأمهرية وأتقن العربية والتركية!

وكان شغوفًا لمعرفة تاريخ الشرق الأدني، فرحل إلي لندن لدراسة المخطوطات التركية بالمتحف البريطاني، وفي عام ١٩١٢، عاد إلي بودابست، أستاذًا للغات العربية والتركية والفارسية وتاريخ وحضارة الإسلام بأكاديمية بودابست للدراسات الشرقية، إلي أن أصبح رئيسًا لقسم اللغة العربية[(٢)] وآدابها بجامعة بودابست عام ١٩٤٨ م.

دعاه شاعر الهند العظيم " طاغور[(٣)]" لالقاء محاضرات في التاريخ الإسلامي بجامعات دلهي ولاهور وحيدر آباد في الفترة من ١٩٢٩ - ١٩٣٢ وهناك أشهر إسلامه في مسجد دلهي الكبير، وألقة خطبة الجمعة، وتسمى بـ" عبد الكريم " ثم ذهب إلي القاهرة، حيث تعمق في دراسة الإسلام على شيوخ الأزهر، ثم قصد مكة حاجًا وزار ضريح النبي - صلى الله عليه وسلم - وصنف في حجته كتابه: " الله أكبر " الذي نشر في عدة لغات.

---

(١) نجيب العقيقي: المستشرقون، دار المعارف، القاهرة، الطبعة الرابعة، ١٩٨٠، الجزء الثالث، ٤٦.

(٢) المصدر السابق، ص ٤٦.

(٣) المصدر السابق، ص ٤٧.

في ربيع عام ١٩٥٥، عاد لقضاء بضعة أشهر في القاهرة والإسكندرية ودمشق، حيث ألقى محاضرات في الفكر العربي وصور من الأدب المجري، وعاد مرة أخرى سنة ١٩٥٨ لاستكمال مصادر كتابه عن أدباء الشرق المعاصرين.

وكان عبد الكريم جرمانوس عضوًا في عدد من المجامع والهيئات العلمية[1]: أنتخب عضوًا بالمجمع الإيطالي سنة ١٩٥٢، واختير عضوًا بمجمع اللغة العربية بالقاهرة سنة ١٩٥٦، وفي المجمع العلمي العراقي سنة ١٩٦٢، وعضوًا بمعهد الأبحاث الشرقية بلندن سنة ١٩٧٢ ثم عضوًا بأكاديمية علوم البحر الأبيض المتوسط بروما.

خواطره عن الإسلام :-

خلال إقامة جرمانوس في الهند – التي أعلن منها إسلامه – ألف كتابه الشهير "التيارات الحديثة في الإسلام " الذي أعاد فيه إلي الأذهان أمجاد الإسلام، وتحدث بأسلوب صريح عن فترات الضعف والمحن وأسبابها، وبلور أفكار ودعوات المسلحون من أجل نهضة إسلامية حديثة.. وأثار هذا الكتاب ردود فعل إيجابية رائعة في الشرق والغرب كما كان موضع تقدير كبار المفكرين والمستشرقين.. من بينهم فيلسوف الباكستان " محمد إقبال " الذي قدر فيه غيرته على الإسلام وتفاؤل لمستقبل هذا الدين الحنيف.. وقال كلمته الشهيرة وهو يخاطب جرمانوس " يجب أن تشرق شمس الإسلام من مكة مرة ثانية "!

ويقول " عبد الكريم جرمانوس " عن جوهر الإسلام[2] :-

" الإسلام ليس ديناً من الأديان.. أنه الدين الوحيد الذي جاء في قوله تعالى: " إن الدين عند الله الإسلام " فأنا في الحقيقة لم أخرج عن دين لأدخل في دين آخر، وإنما اكتشفت فجأة انني مسلم، فأذا كنت تعرف الخالق حق المعرفة وتعامل الناس ومن حولك بالمعروف فأنت مسلم بالفطرة، والإسلام هو دين الفطرة، أما الدين الذي يجد الإنسان نفسه عليه بفطرته، والإسلام هو الدين الوحيد الخالي من الرموز، فلا وساطة بين العبد وبه، لقد قرأت كثيرًا في علم الأديان المقارن ولم أترك دينًا سماويًا أو وضعيًا متطورًا أو بدائيًا، إلا وقد تغلغلت فيه تأملته طويلًا وظهرت لي جميع الأديان متكلفة، مليئة بالرموز والأساطير والتلفيقات التي يأخذها اتباعها كعقائد جامدة لا سبيل إلي الشك فيها، مع أنها في الحقيقة خرافات لا تصمد أمام العقل، ولذلك فهي بالتأكيد إضافات أو تشويهات لحقت بالأديان السماوية فيما عدا الإسلام، فهو خال تمامًا من الإضافات والتشويهات والعقائد التي لا يقبلها العقل، وهذا دليل على أنه الدين الصحيح أو دين

---

(١) المصدر السابق، ص ٤٧.

(٢) محمد طماشي: عظماء ومفكرون يعتنقون الإسلام، الطبعة الثالثة، دار المحبة، دمشق، ١٩٩٢، ص ١١٧ – ١٢٠.

الأديان أو ذروة اكتمال الفكر الديني لدى الإنسان، فأذا أضفت إلي ذلك معجزة القرآن الذي لا يدانيه كتاب آخر في عطائه واتساقه، وسيرة حياة محمد وكفاحه وأخلاقه لن يبد لي أي شك في أن هذا هو الدين الصحيح المنزل من السماء " وأضاف: " وفي اعتقادي أن أي إنسان يدرس الإسلام دراسة موضوعية غير متحيزة لابد أن يعتنقه "!

ويـؤكـد جرمانوس أن جوهر الدين هو المعرفة وبدونها لا يمكن أن يعرف الإنسان ربه، ويؤدي واجباته الدينية.. حيث قال: " الإسلام هو دين كل مسلم ومسلمة وجوهر هذا الدين هو العلم والمعرفة التي يجب على كل مسلم بالغ أن ينهل منها بقدر ما يستطيع، فالإنسان الذي يفتقر إلي المعرفة لا يستطيع تأدية واجبه نحو ربه ولا نحو إخوانه في الإنسانية وهي الأمور التي بدونها لا تستقيم حياة المجتمع ".

ويقـول عن معجزة القرآن الكريـم: " إن معجزة القرآن الكريم الخالدة حولت النبي الأمـي إلي رسول منقذ لأمته من الضلال إلي الهدى، وأخرجها من الظلام إلي النور، حتى أصبحت خير أمة أخرجت للناس تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر " وأضاف المستشرق العظيم: " أن هذا الكتاب المقدس، لا يزال بعد قرابة ألف وأربعمائة عـام، يهز بآياته الكريمة كل سامعيه، حتى من لا يفقهون العربية يتأثر وجدانهم لسماعه.. ولن يوجد ذلك الكاتب أو الفنان الذي يستطيع أن يبدع عملًا يضارع القـرآن

الكريم. وكلماته المقدسة هي العبادة والابتهـال إلي الله والسلوى من الأحزان، وعماد العلوم للملايين من البشر ".

وتحـدث جرمانوس في بعض مقالاته عن العادات والتقاليد الدينية التي كان يمارسها العرب في الحرم المكي في عهد الجاهلية وقال: " المجتمع في الجزيرة العربية لم يعرف الصلاة قط، وإنما كانوا في تلك العصور يحترمون ذكرى ويقدرون الأشخاص الذين ذاع صيتهم نتيجة لمميزات جسدية أو عقلية، فكانوا يطوفون حولهم سبع مرات، وفي أيام الوثنية أيضًا كانوا يطوفون بالحجر الأسود في الكعبة الشريفة في مكة سبع مرات في الشهر الحرام تعبيرًا عن احترامهم، وفي حالة انقطاع المطر كانوا يبتهلون إلي نجوم السماء أن تبارك أراضيهم الجافة بهطول الأمطار. وباستثناء هذه الشعائر فأن العرب في الجاهلية لم يمارسوا أي نوع من أنواع الصلاة المنتظمة قد. وقد فرضت الصلاة كأحد أهم أركان الإسلام. ولا زالت حتى يومنا هذا واحدة من أهم مظاهر الإيمان بالعقيدة، وإذا كانت الصلاة تقوم على التلفظ بكلمات استهلال معينة فأن لب الصلاة ليس في الألقاء الآلي للنصوص بدون إدراك لمعاني الكلمات وليست الصلاة مجرد تحريك للفم واللسان، وإنما جوهر الصلاة هو في التفهم التام والكامل لكل كلمة ففي الأدراك الكامل للكلمات والأحساس بمعانيها تكمن القوة التي توحي للمؤمن بواجباته الدنيوية التي جاء من أجلها، والتي بأدائها يتمتع بحقوقها الإنسانية التي وفرها له الإسلام "

ويقـول صديقه وعارف فضله د. " محمد رجب البيومي " عن تدينه ومواهبه: " كان الدكتور عبد الكريم جرمانوس مسلمًا عظيمًا حقًا لأنه رحمه الله درس الإسلام دراسة مقارنة ببصيرة قبل أن يعتنقه، حتى إذا أشرق نور الحق في قلبه هام به حبًا، وفاخر بانتسابه إليه، وأخذ يحفظ بعض آيات القرآن وأحاديث الرسول في شغف وإكبار.. لقد كانت كتب تفسير القرآن أحب الكتب إليه. وحين انتقل إلي رحمة الله حزن عليه عارفو فضله من مؤيدين ومعارضين إذ قدروا فيه مواهبه الكبيرة النادرة، وتحصيله الدائب الملح وهو تحصيل كاد يقرب من حد الأعجاز، إذ ما تقول في شيخ قارب المائة من الأعوام وهو لا يفارق القرطاس والقلم والكتاب إلا ريثما يقضي ضروريات حياتـه،

فأذا قابل أصدقائه فالحديث عما يتضمن الكتاب والقرطاس وما تقول في شيخ يؤلف بلغات عدة فيقرأوه الناس في الشرق والغرب معجبين، وهو يعد رحالة منقطع النظير لم تثنه الشيخوخة عن أن يطير في الجو، أو يرحل في البحر حتى لكأن القارات الخمس مدينة واحدة ذات دروب يقطعها الشيخ دربًا دربـًا في سهولة ميسرة ".

وقـال عند د. " عبد المنعم خفاجـي ": " كان عبد الكريم جرمانوس شخصية جديرة بالتقدير والاحترام بين المستشرقين الأوروبيين.. كان يجمع بين وداعة العالم وتواضعه، وحب البحث والكشف عن الحقيقة والإيمان بما يؤدي إليه العقل والدليل، لقد كان جرمانوس مثالًا طيبًا للإنسان الذي يجسد حقيقة الإنسانية بما أنطوى عليه من خصال ومشاعر نبيلة ".

وقـال عنه الأديب الكبير محمود تيمور: " إن رحلة هذا المستشرق الأوروبي، كانت من أجل دراسة الإسلام، وكان في رحلته هذه، من العلماء الذين خدموا الإسلام وأثروا الثقافة الإسلامية".

رحلـة الحج إلـي مكة المكرمة :-

كـان جرمانوس يتطلع بشوق إلي زيارة المدينة المقدسة " مكة المكرمة ".. وإزداد شوقًا عندما قال له محمد إقبال " إن الإسلام يجب أن تشرق شمسه من جديد في مكة المكرمة ".. ويحقق الله له هذه الأمنية، وكان نتاج رحلته للحج كتابه الشهير " الله أكبر " الذي ترجم إلي عدة لغات، وبقلمه رسم لنا مشهدًا إيمانيًا رائعًا[1]:

" عنـد أذان الفجر.. الله أكبر.. نهضت من نومي، فسمعت حركة رفاقي في الغرفة يتهيئون للصلاة، فتوضأت وصليت ركعتين، ثم توجهت إلي الكعبة المشرفة.. في هذه اللحظة، انفتح

(١) د. عبد الكريم جرمانوس: على هامش رحلتي إلي الحجاز " ليلة في مكة " مجلة الرسالة، عدد ٢٧٠ ص ١٠١٨ - ١٠٢٠، القاهرة، ١٩٣٧ راجع أيضًا المصدر السابق، عدد ٢٧١، ص ١٠٥٩ - ١٠٦٢.

أمامي مشهد سماوي، ها هي الكعبة العظيمة تكسوها شقق الديباج الأسود، تزدان بآيات قرآنية من خيوط الذهب، يطوف حولها أمواج من الرجال والنساء، ونداء " الله أكبر " هو الرباط الذي ينتظمنا جميعًا، السكينة والبهجة والرجاء ومشاعر فياضة تسري في أبداننا، تخلقنا خلقًا جديدًا.. فتحولت من إنسان دنيوي إلي مؤمن مفكر، استشعر عظمة الله ورخص الحياة.. وقفت أتأمل وأقول لنفسي: كم من مرة قرأت وصفًا لهذا البيت المقدس، وكم صورة شاهدتها له. لكن في واقع الأمر، أن كل ما قرأته لا ينتسب إلي هذا المشهد الذي أراه!.. فالكعبة في حقيقتها وفي جوهرها، ليست مادة تقاس بمقياس، وإنما هي رمز ومعان روحية سامية، لا يكاد المرء يقف أمامها، حتى تنجلي عن عينيه غشاوة الغفلة عن أرقى معاني الوجود وهو وحدانية الله تعالى وسمو العالم الروحي على العالم المادي "!

وبرع " الحاج عبد الكريم " في وصف مشاهد ومناسك الحج، معبرًا في صدق عما يختلج في صدره من إيمان عميق.. طواف الحجيج ببيت الله الحرام وهم يذرفون دموع التوبة، ضارعين ملبين: لبيك اللهم لبيك. " رفعت يصرى إلي السماء، داعيًا ومكررًا لما يقول المطوف، تمر أمام عيوني جموع الطائفين، من كل بقاع الأرض، خليط من البشر، هؤلاء أتوا من جاوه والخشوع والعبرات تملأ عيونهم، وهؤلاء من التتر، يشقون طريقهم بأجسادهم القوية، وأولئك من الصين، تبدو عيونهم مثل حبات اللوز، وبراءة الطفولة وطهرها يكسو ملامحهم، يتتابع من ورائهم الأفغان بلحاهم وهيئتهم المعروفة، يطوفون وكأنهم غزاة!.. وخلفهم هنود يكررون دعاء المطوف، ضارعين إلي الله وقد تحملوا كافة المشاق والصعاب، بينما النساء في ردائهن الأبيض، سافرات، يزاحمن في حذر.. في هذه اللحظات الرائعة، ليس هناك رجال ونساء، ولكن أرواح مؤمنة صادقة تطلب من الله الرحمة والمغفرة.. في مشهد سماوي يجل عن الوصف "!

آثاره العلمية :-

اشتهر عبد الكريم جرمانوس بغزارة إنتاجه العلمي وتنوعه، وله العديد من الدراسات والأبحاث المنشورة في الدوريات العالمية والعربية، تناولت مجالات اللغة والأدب والتاريخ والحضارة الإسلامية.. وأبرز آثار العلمية: -

- الأدب العثماني، بالألمانية.
- الأدب التركي الحديث، بالمجرية.
- تاريخ الجامعات في المجر بعد الفتح التركي، بالمجرية.
- التيارات الحديثة في الإسلام، بالإنجليزية وترجم إلي عدة لغات.
- دور الأتراك في التاريخ الإسلامي، بالإنجليزية.
- " الله أكبر " رحلته إلي الحج، بالمجرية وترجم إلي عدة لغات.

- شوامخ الأدب العربي، بالإنجليزية.
- دراسات في التركيبات اللغوية العربية، بالإنجليزية.
- حياة محمد، بالإيطاليـة.
- تجديد الروح العربية، بالمجرية.
- أصول الف ليلة وليلة، بالإنجليزية.
- الجغرافيون العرب، بالإنجليزية.
- روائع أدبية عربية مجهولة، بالإنجليزية.
- الأدب العربي في القرن العشرين، بالمجرية.



الفنان الفرنسي ايتيين دينيه (الحاج ناصر الدين) بورتريه بريشته

الفنـــان الفرنسي

"الحاج ناصر الدين" في مكة والمدينة ..!

الحملـة الفرنسية بقيادة " نابوليون بونابرت " على مصر سنة ١٧٩٨، وفتح أبواب مصر سنة ١٨١٤ أمام الخبراء الفرنسيين عقب توقيع محمد علي باشا لاتفاقية التعاون مع فرنسا.. ثم الحملة الفرنسية على الجزائر سنة ١٨٣٠.. هذا التطور التصاعدي في تدعيم نفوذ فرنسا السياسي والاقتصادي والعسكري والثقافي في هذه المنطقة من الشرق، كان سببًا مباشرًا في انفتاح أبواب الشرق الإسلامي أمام قوافل الرحالة والفنانين والأدباء والعلماء والدبلوماسيين والمغامرين والتجار الفرنسيين!

استحـوذ النزوع نحو تصوير عالم الشرق – الروحي والمادي – على اهتمام الفنانين الفرنسيين وعلى رأسهم: ديلاكروا، ديكان، ماريلا، فيرنيه، شاسيرو، فرومنتان، جيروم، دينيه.

وينفـرد الفنان الفرنسي الشهير " ايتيين دينيه – **Etienne Dinet** " بأنه الفنان المستشرق الأوروبي الوحيد الذي زار مكة والمدينة!.. فما هي قصته ؟!

ولـد دينيه في ٢١ مارس سنة ١٨٦١، وبالتحديد في ٩٥ شارع بوتيت شامب[١] بباريس، كان والده رئيسًا للمحكمة المدنية بمقاطعة السين، ووالدته ماري بوشيه ابنه محامي شهير، وفي عام ١٨٦٥ ولدت أخته " جان " والتي ستصبح مؤرخة لحياة وأعمال أخيها في كتاب نشرته عنه عام ١٩٣٨، وعندما بلغ دينيه سن الخامسة من عمره ظهرت مؤشرات اهتمامه بالرسم.

فـي عام ١٨٧١، التحق دينيه بمدرسة " هنري الرابع " بباريس[٢]، ووضح مقته للمواد العلمية، لكنه أحب التاريخ والجغرافيا وبالطبع الرسم حيث كان يحصل على الدرجات النهائية،

---

(١) Denise, B.: Le vie et l'oeuvre de Etienne dinet , les Orientalistes, vol 2 , ACR Edition, Paris , 1991, Reperes chronologiques: P. 296 .

(٢) OP. cit., P. 296 .

وكانت أمتع لحظات حياته تلك التي كان يقضيها في الرسم خلال الاجازات بمنزل العائلة بمقاطعة " فونتين بلو – Fontainbleau "

فـي عام ١٨٧٩، حصل دينيه على البكالوريا، ورحل لأداء الخدمة العسكرية في " جرانفيل – Granville " بمقاطعة نورماندي، حيث كان يقضي أوقات فراغه أيضًا في الرسم!

فـي عام ١٨٨١، حانت لحظة تحديد المصير، فالعائلة " القانونية، ترغب في أن يدرس القانون، غير أن ميوله الفنية اتجهت به إلي مدرسة " الفنون الجميلة – Beaux Arts " وسجل إسمه في اتيليبه " جالاند " الذي أغلق خلال عام!.. فسجل إسمه في أكاديمية " جوليان " حيث تتلمذ على وليام بوجورو وتوني فلوري.

فـي عام ١٨٨٢، شارك لمرة الأولى في صالون الفنانين الفرنسيين[١] – Salon des Artistes Francais بلوحة " الأم كلوتيلد "!.. وفي العام التالي حصل على جائزة أكاديمية جوليان.

فـي عام ١٨٨٤، قام دينيه بأول رحلة له إلي الجزائر، بعد إلحاح من صديقه " لوسيان سيمون " عالم الحشرات الذي كان متوجهًا إليها ضمن بعثة علمية، وفضل دينيه التعرف على الحياة والمجتمع في جنوب الجزائر حتى وصل إلي " بو سعادة – Bou Saada " التي تركت أثرًا هائلًا وعميقًا في ابداعاته[٢]، ففي بوسعاده كان كل شيء بالنسبة لدينيه يثير الفضول والدهشة.. الطبيعة الجزائرية الغنية بمظاهر الغربة والإبهار.. الصحراء، الجبال، السهول، النخيل، حياة البدو، تنوع الألوان! لقد عثر أخيرًا على كنزه المنشود!

فـي عام ١٨٨٥، حصلت لوحته " القديس جوليان Saint Julien " على الجائزة الأولى في " صالون باريس " وبالقيمة المالية للجائزة، قرر القيام برحلته الثانية إلي الجزائر، وحتى يأتي الربيع – موعد الرحلة – قام برحلة إلي: نورماندي وبريطانيا وجيرسي والسويد، لدراسة الطبيعة في هذه البلاد.

فـي عام ١٨٨٧، قام دينيه برحلته الثالثة إلي الجزائر، مصطحبًا مجموعة من شبـاب الفنانين الذي اجتذبتهم بلاد الشمس، تحت إشراف " ليونسي بينيديت " مدير متحف لوكسمبورج، وقد قرروا جميعًا تأسيس " جمعية الفنانين المستشرقين الفرنسييـن[٣]" واختير الفنان الفرنسي الشهير " جان ليون جيروم " رئيسًا لها.

فـي عام ١٩٠٥، استقر دينيه في " بو سعاده[٤]" متخذًا بيتًا متواضعًا لإقامته، متنقلًا بين

---

(١) OP. cit., P. 296 .

(٢) OP. cit., P. 296 .

(٣) OP. cit., P. 297 .

(٤) OP. cit., P. 297 .

روائع الطبيعة، مستوحيًا مئات الموضوعات من تفاصيل الحياة اليومية، في محاولة للارتقاء بالواقع نحو الحلم والرائع والجميل والسامي.. كانت القيم الشرقية اقرب إلي روحه، فراح يبحث في ذاته عن شيء يلتقي مع الثقافة الشرقية!

وفـي عام ١٩١١، بدأ التفكير في حياة محمد[1] – صلى الله عليه وسلم – والتعرف على سيرته، كما وجه اهتمامه بدراسة ترجمات القرآن لـ " سافاري " و"كازميريسكي ".. وعكف على دائرة المعارف الإسلامية والدراسات التي تناولت العقيدة الإسلامية، والحضارة الإسلامية خاصة كتابات المؤرخ الأشهر د. " جوستاف لوبون " والحياة الاجتماعية في الإسلام خاصة كتابات صديقه " كريستيان شيرفيل " الذي اهتدى إلي الإسلام تحت إسم " عبد الحق[2] "!.. كما بدأ البحث في النصوص القديمة باللغة العربية ومنها: سيرة ابن هشام وطبقات ابن سعد..

فـي عام ١٩١٣، انتمى دينيه رسميًا إلي الإسلام تحت اسم " ناصر الدين **Nacer Addine** – وكان قد اتخذ هذا القرار منذ وقت طويل، إلي أن بدأ بإعلانـه بين الخاصة من أصدقائه!.. ثم أشهر إسلامه أمام مفتي الجزائر في احتفالية شعبية بالجامع الجديد بالجزائر[3]!

فـي عام ١٩١٨، انتهى دينيه أو ناصر الدين من كتابه " حياة محمد " بالفرنسية الذي أهداه إلي " المسلمين الشهداء من أجل فرنسا[4]"!.. وقد ازدان الكتاب بلوحات الفنان الجزائري الشهير " محمد راسم ". في عام ١٩٢١، انتهى من دراسته النقدية التي أثارت جدلًا واسعًا بعنوان: " الشرق في نظر الغرب[5]" وأهدى الكتاب إلي صديقه الفرنسي المسلم " عبد الحق "!

فـي عام ١٩٢٢، توفيت زوجته وبميراثها اشترى فيلا في " سان أوجين " إحدى ضواحي الجزائر العاصمة، ولمدة عام كامل لم يرحل إلي باريس!

فـي عام ١٩٢٩، بدأ الاستعداد لرحلة الحج إلي مكة المكرمة[6] بصحبة زوجته الثانية والشاب الجزائري " سليمان بن إبراهيم ".. وفي الأول من شهر إبريل غادر " بو سعاده ".. وفي ٢٦ مايو وصل إلي جده.. وفي اليوم التالي كان وصوله إلي مكة المكرمة.. وفي طريق العودة قضى الفترة من ٤-١٠ يونيو بجبل الطور بسيناء وفي ٢٠ تيونيو وصل إلي مارسيليا.. وفي السادس من

---

(١) OP. cit., P. 29 .

(٢) OP. cit., P. 29 .

(٣) OP. cit., P. 299 .

(٤) OP. cit., P. 299 .

(٥) OP. cit., P. 299 .

(٦) OP. cit., P. 300 .

يوليو، وقع للمرة الأولى باسم " الحاج ناصر الدين[1] ".. وفي التاسع من نوفمبر، انتهى من كتابه " الرحلة إلي بيت الله المقدس ".. وفي ٢٢ نوفمبر وصل إلي باريس حيث دخل إلي المستشفى، وزاره الحاكم العام للمدينة، وفي ٢٤ ديسمبر يرحل عن عالمنا، وفي السادس من يناير عام ١٩٣٠ ينقل جثمانه من مارسيليا إلي الجزائر، وتتم مراسم دفنه في التاسع من يناير في " بو سعاده " طبقًا لوصيته[2]!

مؤلفاته وإبداعاته :-

هـذا الفنان " الأسطورة " كان نموذجًا عظيمًا للإنسان المسلم، والفنان الملهـم.. لم تحظ إبداعاته باهتمام الغرب سوى مؤخرًا.. ببساطة شديدة لأنه هجر بلاده ومعتقدات قومه، واعتنق الإسلام وأحب أهله، وعشق صحارى الشرق، وعاش تفاصيل الحياة اليومية للمسلمين في أبسط صورها، ودافع عن الإسلام بقلمه وريشته!.. لقد كانت حياته " في جوهرها نموذجًا لقدرة الخير والجمال على الانتصار على الشر والقبح "!

وقـال عنه " بينيديت " مدير متحف لوكسمبورج " لقد استطاع دينيه أن يصور الجمال أروع تصوير وأن يستخرجه من الحقيقة التي لا توجد سواها إلي عالم الحـواس "!

وقـال عنه الفنان " محمد راسم ": " لم يكن ناصر الدين باحثًا في علم الأجناس البشرية، ولا متخصصًا في الفولكلور.. بل كان من ذوي المشاعر النبيلة والفكر المستنير والإيمان الصادق، وكان مع ميله للعزلة، يتمتع بشخصية جذابة في الوسط الأوروبي بالرغم من افتقاد ابداعاته للاهتمام – لغرض خفي – تعبيرًا عن استنكار معظمهم اعتناقه للإسلام "!

وأهم مؤلفاته[3] :-

(1) " Le Printemps des Coeurs "

أو ربيع القلوب، صدر عام ١٩٠٢، وتضمن أساطير وأشعار صحراوية من الجزائر، بمشاركة صديقه " سليمان بن إبراهيم " وازدان الكتاب بلوحات من إبداعات دينية الصحراوية.

" (٢) Les Fleaux de la Peinture "

آفات فن الرسم، صدر عام ١٩٠٥ بباريس وأعيد طبعه سنة ١٩٢٦

" (٣) 24 Scenes de la vie Arabe "

---

(١) OP. cit., P. 300 .

(٢) OP. cit., P. 300 .

(٣) OP. cit., P. 301 .

أو ٢٤ مشهدًا من حياة العرب، صدر في باريس عام ١٩٠٦، وأعيد طبعه سنة ١٩٠٨ تحت عنوان " Tableaux de la vie Arabe " ثم أعيد طبعه سنة ١٩٢٥ م.

" (٤)Khadra , danseuse ouled Nail "

وهي رواية عن عادات وتقاليد البدو في صحراء جنوب الجزائر، صدر في باريس سنة ١٩١٠م.

" (٥) El Fiafi Ou le Desert "

الفيافي أو الصحراء، صدر في باريس سنة ١٩١١ م.

" (٦) La vie de Mohammed"

أو حياة محمد، بالاشتراك مع سليمان بن إبراهيم، صـدر في باريس سنة ١٩١٨، وأعيد طبعه سنة ١٩٣٧ م وترجم إلي العربية عام ١٩٩٠[1].

" (٧)L Orient, vu par Loccident"

أو الشرق في نظر الغرب، صدر في باريس عام ١٩٢١ م، ترجمه إلي العربية عمر فاخوري

" (٨) Le Pelerinage a la maison sacree d Allah":

الحج إلي بيت الله المقدس[2] (الكعبة) وصدر عام ١٩٣٠ بعد وفاته.

ومن إبداعاته :-

أبـدع الفنان دينيه الكثير من الروائع التي خلدت إسمه في عالم الفن الاستشراقي، يأتي في مقدمتها إبداعاته عن الحياة في " بو سعادة " و" الأغواط[3]" منها على سبيل المثال: الواحة، الليل في الصحراء، بورتريه سليمان بن إبراهيم، بورتريه سي أحمد الصغير، سليمان بن إبراهيم في ميدان الكونكورد، نساء من بوسعادة طفلة من بوسعادة، فتاة من بوسعادة، عائشة، رأس إمرأة

---

(١) اتين دينيه، سليمان بن إبراهيم: " محمد رسول الله " ترجمة: د. عبد الحليم محمود، د. محمد عبد الحليم، الشركة العربية للطباعة والنشر، الطبعة الثالثة، القاهرة، مارس ١٩٥٩، وصدر عن دار المعارف، القاهرة، ١٩٦٥، كما صدر أيضًا عن: دار الكتاب اللبناني، بيروت، ١٩٩٠ تضمن الكتاب تقديم بقلم الإمام الراحل د. عبد الحليم محمود واستغرق الصفحات ٧ - ٥٨ عن حياة ناصر الدين وآراؤه ودفاعه عن الإسلام وحصره لكتابات عدد من المستشرقين ونظرته الفنية والدينية " ذلك الفنان الكبير الذي أحب حياة العرب فاتخذ له بينهم مقامًا محمودًا في بلاد الجزائر " وتضمن الإشارة إلي الصداقة والمودة التي ألفت بين ناصر الدين والأستاذ " راشد رستم " أول من عرف - المصريين - به، فكتب عنه العديد من المقالات وترجم له رسالة: " أشعة خاصة بنور الإسلام ".

(٢) ترجم: توفيق أحمد خاتمة كتاب " الحج إلي بيت الله " ونشرت بمجلة الشبان المسلمين.

(٣) Denise, B.: OP.cit., P. 116 - 118 .

عربية، أخ وأخته، رأس عربي، الفلاح الصغير، طفلة من الأغواط، العجوز والطفل، عازف الناي والغزلان، السوق في بوسعادة، الصباح في بوسعادة، الجمعة في المدافن، صيد الغزلان، فارس في الصحراء، مهرجان الفروسية، زينب الساحرة، ثلاثة أولاد من بوسعادة، رقص الصبايا، الرقص في واحة النخيل، صبايا في نزهة، طفلة وعروستها، ليلة المولد، صلاة العيد، ملابس العيد، على السطح في يوم العيد في بو سعادة، يوم العيد، في المقهى، القاضي، الكاتب العمومي، في النافذة، النقاب الأخضر، القافلة، فتاتان من بوسعادة تحملان طفلة في مقطف!.. عنتر بن شداد، عبلة ابنة عم عنتر، عبلة خطيبة عنتر، الهلال الإمام يؤم المصلين، التسبيح، الركوع، السجود، ختام الصلاة، مسلمة تصلي أمام منزلها، المؤذن يدعو المؤمنين للصلاة، مسلمون يخرجون من مسجد القرية، داخل مدرسة قرآنية (الكتاب).. مداح ضرير يشدو بمآثر النبي، مقابر الخلفاء بالقاهرة، المجاورون في فناء جامعة الأزهر.....

ومن وحي رحلة الحج إلي مكة والمدينة المنورة، أبدع دينيه عددًا من روائعه[1] منها:-

- " جدة: رحيل القوافل في الليل "
- " الصلاة حول الكعبة "
- " الطواف حول الكعبة صباحًا "
- " صلاة المغرب حول الكعبة "
- " محراب المسجد الحرام "
- " مشهد عام لمكة بالقرب من قمة جبل أبي قبيس "
- " الحجيج على جبل عرفات "
- " مخيم الحجيج ليلًا في طريقهم إلي منى "
- " مشهد للمدينة المنورة "
- " صلاة الفجر في مسجد النبي بالمدينة "

وصف ناصر الدين لجدة:-

وفي إيجاز، وصف ناصر الدين دينيه جدة التي وصلها في ٢٦ مايو سنة ١٩٢٩ فقال عنها:

" مدينة جميلة.. يحيط بها سور حصين تعلوه أبراج ويتقدمه خندق، يتخلله ثلاثة أبواب: باب اليمن جنوبًا، باب المدينة شمالًا، ثم باب مكة – أجمل الأبواب – يرتفع على جانبيه برجان متوسطا الارتفاع، المباني مرتفعة تزدان بالمشربيات وتمتد بطول الميناء.. المدينة مأهولة بالسكان..

(١) OP. Cit., P. 145-146 .

يعمل أكثرهم في التجارة بأنواعها وبعض الحرف التقليدية.. والأسواق عبارة عن ممرات مسقوفة تموج بخليط من البشر.. من جميع الأجناس.. الباعة يتربعون فوق بضاعتهم أو أمام دكاكينهم الصغيرة!

الكعبة.. مشهد يوحي بالعظمة!

وفي وصف مكة المكرمة يقول ناصر الدين[1]: " ما هو سر هذه المدينة العجيبة ؟!.. والتي تهوى إليها أفئدة الملايين من المسلمين في جميع بقاع الأرض..

وهي التي تكاد لا تعرف في الأزمان السحيقة.. هل هي إحدى المدن الرائعة التي شيد فيها أثرياء الملوك قصورًا زاهرة، وجمعوا فيها النفيس من كنوز الفن ؟!.. هل هي إحدى مدن التجارة الكبرى التي تطل على البحر وتمتد في البر، وتتدفق عليها الثروات العالمية ؟!.. أم هي عاصمة إمبراطورية قوية أخضعت جيوشها جميع الشعوب المجاورة ؟!

لا شيء من ذلك على الإطلاق.. إن مدينة مكة هي أجدب بقاع الأرض وأكثرها حرمانًا، وقديمًا كانت تجارتها مقصورة على ما تجود به قوافل الصحراء، فلم تكن تملك أسباب الثراء والقوة.

ولكن كم من المدن التي تحسدها على احتضانها بيت الله المقدس، وعلى أنها شرفت دون سواها بميلاد النبي محمد.. وإليها يقصد آلاف الحجاج في كل عام للسجود حول كعبتها، حاملين إليها الهدايا، إن مكة لا يمكنها أن تباهي كبرى المدن في ترف القصور وفخامة المساجد.. أما في نظر المؤمنين، فأن كنوزها تتألق سناءً وجلالًا.. كنوز ليست أبدًا من هذا العالم!

وبإطلالة على مكة المكرمة، من أعلى جبل " أبي قبيس " نجدها لا تختلف كثيرًا عن غيرها من مدن الصحراء العربية، إلا أنها تفوقها من حيث كثرة بيوتها، وعلوها، وزخارفها المعمارية...

ها هي الكعبة – بيت الله المقدس – تقف شامخة أمامنا في جلال، محاطة بستارها الأسود المزدان بآيات قرآنية بخيوط ذهبية.. المشهد يوحي بالعظمة.. جبال مزدلفة وعرفات والطائف تتدرج في الأفق وكأنها ديكور لهذا المنظر، بعض المباني الأثرية المتناثرة، من بينها مسجد قديم مشيد بأسلوب بدائي.. قصور شريف مكة.. رمال الصحراء.. كل ذلك يكاد يشكل لوحة فنية!...

في ساحة الحرم، جلسنا نتأمل، ينتابنا شعور من الرهبة والجلال.. استمتعت بأصوات المؤذنين ترتفع من المنارات الأربع، وهم يدورون خلال الشرفات الحجرية فوق المنارات

---

(١) " محمد رسول الله " ترجمة: د. عبد الحليم محمود، د. محمد عبد الحليم، دار المعارف، القاهرة ١٩٦٥، ص ٧١ - ٧٢.

الجميلة.. نغمات شجية تنساب في الفضاء، وعشرات الآلاف يتراصون في صفوف منتظمة وقد امتلأت قلوبهم بالإيمان.

هـؤلاء البدو، لا شيء فيهم قد تغير على مدار الأجيال والعصور، يتوارثون تقاليدهم وعاداتهم وملابسهم.

أنني أعشق الشرق ولون سمائه، وأحببت الإسلام في إيمانه الخالص، وطالما تمنيت أن يحب الأوروبيون بلاد الإسلام[1].. بلاد الجمال والسلام والسعادة الروحية.!

ويصف " الحاج ناصر الدين " مشهد الحجيج على جبل عرفات[2] فقال:

" لقد كان مشهدًا مؤثرًا يمس القلوب.. أكثر من عشرين ألفًا ارتدوا ثوب التواضع، كشفوا رؤوسهم.. اكثرهم تنساب دموع الندم من مآقيهم.. تكاد تسمع زفرات الحزن تتصاعد من صدورهم، يطلبون من الله المغفرة ويعاهدونه أن يحيوا حياة جديدة!

كـان " ناصر الدين " غيورًا على دين لم يتخذه إلا بعد أن بحث وفكر مليًا ودافع بقلمه وفرشاته عن الإسلام وعن عقيدته التي آمن بها في يقين حار مطمئن.. وامتزجت فيه القيم الفنية بقيم الدين، فكان مثالًا للإنسان الملهم!

---

(١) المصدر السابق، ص ٧٣.

(٢) المصدر السابق، ص ٧٤.


إيفيلن كوبولد فى أسكتلندا

ايفلين كوبولد
أو الحاجة زينب فى مكه و المدينة

الرحلة.. هى جزء اصيل من حركة الحياة على الارض، والرحلة ـ فى حد ذاتها ـ قد رسخت كـل العوامل والمفاهيم التى بنيت عليها " وحدة البشر على هذا الكوكب " فالرحلة قديمة قدم الانسان ذاته، وكما لعبت دورها فـى حركة الكشوف الجغرافية، فقد حققت نوع مـن الاتصال الحضارى بين الشعوب واكتساب المعرفة بالآخر، خاصة فيما يتعلق باللغة واللهجات والتقاليد المتوارثة والأوضـاع الاجتماعية والثقافية.

ومن النساء من تركن بصمات واضحه فى تاريخ أدب الرحلة.. وقد اجتذب الرجال قبل النساء: سحر الشرق والرحيل المغامر عبر الصحراء وبلاد ألف ليلة وليلة.. والخيال الرومانسى كـان أشد وقعًا لدى نساء الغرب.. ومن الأوروبيات اللاتـى يذكرهن أدب الرحلة: ايزابيل بورتون، آن بلنت، جرترود بل، ليدى جين دجبى، استر ستانهوب، والأميرة اميلى روث، إميليا إدواردز، صوفيا لين بول، ليدى ايفلين كوبولد، وغيرهن...

وقد قامت البريطانية "ايفلين كوبولد ـ Evelyn Cobbold برحلتها إلى مكة عام ١٩٣٣ Pilgrimage to Mecca سجلت فيها ملاحظاتها عن الإسلام وأهله في بلاد الإسلام، وهى رحلة ـ كما يشير حسن بن على خياط ـ انجزتها فـى فترة المراحل الاولى لتوطيد الملك عبدالعزيز مملكته الفتية وحيث كانت انظار العالم ترقب التحولات التى تجرى فى الشرق الاوسط، وما يقوم به الملك عبدالعزيز من إعادة لتكوين الجزيرة العربية تحت راية الاسلام الحقيقية من جديد.

و مسز ايفلين تنتمى لاسرة ارستقراطية تمتد جذورها الى الريف الاسكتلندى، عمل والدها فى المجال الدبلوماسى، كان يفضل أن يقضى فصل الشتاء فـى دول المغرب العربى، وفـى مدينة الجزائر عايشت البنية الاسلامية، فكانت تهرب من مربيتها وتذهب مع أصدقائها الجزائريين الـى المسجد " كنت مسلمة صغيرة بقلبى دون ادراك منى "!

كانت أول اشارة لرحلة ايفلين وكتابها فى جريدة " السياسة " المصرية، فى الثانى مـن يناير عام ١٩٣٥ وتضمنت خواطر عن رحلتها التى بدأت من مدينة " بورسعيد " فى ٢٢ فبراير سنة ١٩٣٣.

كان على السيدة ايفلين أن تحصل على إذن مسبق من الملك عبد العزيز حتى يسمح لها بالقدوم الـى المدينتين المقدستين " حيث كانت الاجراءات تقضى بأن يبقـى الغربى الذى سيشهر اسلامه فى جده لمدة عام كامل تحت الملاحظة للتأكد من صدقه فى اعتناقه للاسلام، بمراقبة مدى حرصه علـى اداء الصلوات جماعه ومطابقه سلوكياته مع تعاليم الاسلام ".

وقد قامت بالتنسيق مع الوزير المفوض فـى لندن معالى الشيخ " حافظ وهبه " لاتمام الزيارة بعد أن حصل الشيخ على الاذن لها من جلالة الملك عبدالعزيز.

وتسجل ايفلين انطباعها الخاص عن مؤثرات الحج وتصورها للمعانى السامية لهذا الجمع العظيم.. فى هذة المناسبة العظيمة.. فى هذة البقعة المقدسة التى شهدت مولد الاسلام وذكريات الكفاح والمعانـاة للنبـى محمد ـ صلى الله علية وسلم ـ فتقول: " اذا كـان هناك شىء يوحد القوى المشتته للمسلمين ويطبعهم بعاطفة مشتركة فهو الحج.. انه يخلق لهم مناسبة سنوية ليتقابلوا ويتعارفوا ويتبادلـوا الآراء والخبرات ويوحدوا جهودهم.. إن التنظيم الاجتماعى للحج لا يبرز للمسلمين مجرد تنظيم مقدس، بـل منظمة أمم، مؤسسة دولية للأدب والعلوم، وغرفة تجارية دولية فى آن واحد "!

ايفلين فى جدة:

على متن السفينة الايطالية " مصوع " رحلت ايفلين، وكان معها علـى السفينة حجاج ودبلوماسيون من بلاد مختلفة.. ابرزهم السير " اندرو ريان " قنصل عام بريطانيا فى جده ـ والذى كـان يرتبط بصداقة مع جلالة الملك عبدالعزيز ـ و" باشا مكناس " الذى كان فى طريقة للحج مـع حاشيتة..

وصلت ايفلين الى جدة بعد رحلة استغرقت أربعة أيام، ضيفة على " آل فيلبى "، وكانت مسز فيلبـى قد أرسلت اليها زورقًا حكوميًا يرفع العلم الأخضر للمملكة، ليقلها بين الشعاب المرجانية الى الميناء.. وتسجل ايفلين انطباعتها عبر جدة، فكتبت " بعد رحلة أربعة أيام نصل الى جده فى بحر صيفـى، ويبدو المنظر ساحرًا من الخليج، بلدة بيضاء وبنية تعطى انطباعًا بمكان حصين، حيث يحدها من جهات ثلاثة سور عال، مآذنها تشرأب باتجاه السماء، تبرز نوافذها الجذابة المنحوته مـن الخشب على شوارعها الضيقة... وقد تلطف آل فيلبى فاستقبلوننى كضيفه فى منزلهم ".. المعروف بـ " بيت البغدادى " فى مواجهة رصيف الميناء، وكان من أقدم وأشهر منازل جدة.

وبعد أن تصف البيت من الداخل وحديقة السطح.. تواصل انطباعاتها، فتكتب: " جده ليس بهـا نباتات خضراء من أى نوع، ولكن الزرقة الرائعة للبحر تلون المنظر الطبيعى العام لها، وغروب الشمس بها من الاحلام الجميلة!.. انى أجد الحياة فى جدة مختلفة عن أى مدينة شرقية زرتهـا، إن سكانها من العرب الخلصاء، لا توجد حانات شراب، أسواقها توفر احتياجات سكانها العرب.. إن منازلها فى غاية الجاذبية، فهى مبنية بالحجارة المستخرجه من محاجر الصحراء، أمـا الابواب والشرفات فهى منحوتة بطريقة رائعة مـن خشب الساج المستورد مـن جزيرة جاوه ".. وتصف نزهاتها تحت ضوء القمر السحرى " أتجول على طول الساحل، أجمع الاصداف الجميلة والشعـاب الحمراء التى تكسو الشاطىء، إن هذة الليالى العربية سوف تعيش طويلًا فى ذاكرتى "!

وتشير ايفلين الى الفندق الجديد الذى افتتح من أجل استقبال الحجاج " وحيث كان يقيم بـه مهندسون أمريكيون جاءوا من أجل الحصول علـى امتياز النفط مـن الملك "!.. وتحدثت عـن المفوضية البريطانية " وهى مكان لقاءات محبب لمجتمع الغربيين فى جده ".. وتصف سوق جده، فكتبت " دخلنا الى معبر طويل مسقوف يشتمل على المراكز التجارية لجدة، كـل واحد منها محدد بدولاب مفتوح لعرض بضائعهم، كثير من الحوانيت مظلله بسعف النخيل، مشدود مع ارتفاعات مختلفه، فتنتشـر الظلال على المتجولين فى السوق وهم يتبادلون التحايا.. خليط من روائح البهارات والقهوة الحـادة النفاذة المميزة للشرق.. البضائع المعروضة مغرية جدًا.. معظمها من اليابان، خاصة الموسلين.. وقـد رفضت اغراء شراء اللؤلؤ المجلوب من جزيرة البحرين.. بينما يتناثر الصيارفة مع أكوام عملاتهـم المعدنية مكومة على هيئات أهرامات صغيرة على أطباق منبسطة "!

وينصحها فيلبى أن تكتب رسالة الى ابن جلالة الملك " الأمير فيصل ـ نائب الملك فـى الحجاز " والذى سيصل لزيارة فيلبى فى التاسع من مارس، وتصف " الأمير فيصل " بقامته الطويلة وثوبـه الأبيض الفضفاض وعباءته البنية المذهبة " وهو مثل معظم عرب نجد له طلعه مميزة ".. وفـى الحادى عشر من مارس، تصلها الاخبار بموافقة جلالة الملك ـ بعد وساطة فيلبى ـ على السماح لها بزيارة المدينة المنورة ومكة المكرمة وأداء مناسك الحج.

الطريق الى المدينة المنورة:

فى الرابع عشر من مارس، كانت ايفلين قد أعدت كل شىء لرحلتها التـى بدأت عقب صلاة الفجر، وكانت قد استأجرت سيارة لموسم الحج، سائقها العربى " سليمان " ورافقها " مصطفـى ناظر " والذى وصفته بأنه شخصية متحضرة قدمه لها مستر فيلبى، وسودانى عجوز هو والد الطاهى " وقـد أراد أن يقبل قدمى عندما عرضت عليه الركوب معنا الى المدينة "..

ومضوا جميعا عبر الصحراء، فى طريق تحده العظام المبيضة لجمال ميتة.. شجيرات شوكية.. بعض أشجار النخيل.. خيام لـرعاة الأغنام.. وكان أول توقف لهم عند " رابغ " حيث تم فحص جوازاتهم.. وتصفهـا فقالت: " البلدة واقعه على بعد ميلين من البحر، تتناثر فيها منازل الطين على السهل المستوى، بالقرب من السوق، مجموعة من الاكشاك مفتوحة الواجهه مسقوفة بسعف النخيل، والتى يمكن للحجاج أن يستريحوا فيها أو ينامون على الحصير ".. وتحدثت عن أوضاع السكان الذين كانوا مازالوا فى عهـد البداوة، وأشارت الى أن السوق كان عامرًا بالمصنوعات اليدوية البسيطة والمواد الغذائية... واشارت ايفلين الى أنها عوملت معاملة الضيوف الرسميين على الدولة.. وتمضى فى رحلتها حتى دخلت مناطـق الأودية الجبلية " واد محاط بجبال عظيمة من الحجر الرملى الأحمر ".. وحتى الوصول الـى " المسيجيد " المحطة الأخيرة فبل المدينة المنورة، كانت قد مرت بقوافل الحجيج على الجمال وأبـدت اعجابها بالشقاوف، ولم تغفل ايفلين الإشارة الى حالة الامن والاستقرار التى بسطها الملك عبدالعزيز على طريق الحجيج، وكان وصولها الى المدينة حلمًا وحدثًا عظيمًا، عند " باب العنبرية " توقفت السيارة حيث فحصت الجوازات، وقد منحت جوازًا للسفر باسم " زينب كوبولد ".. وكان وصولهـا فى السادس عشر من مارس.. وما إن دلفت الى المنزل المخصص لها حتى شعرت بالرغبة فى النوم، وما أن أغلقت عيناها حتى سمعت أحد الحجاج يرتل بصوت عميق وبـ" إيقاع سحـرى " سورة " يوسف ".. وفى الفجر " استيقظت على صوت الاذان، ومن خلال نافذة صغيرة باتجـاة الجنوب، بالكاد رأيت المآذن الطويلة والقبة الخضراء لمسجد النبى، وشعرت بالسرور عندما أفكر كـم كنت قريبة من المسجد ذى المكانة المبجلة فى الاسلام.. وتبعت " المزور " الى المسجد بعـد أن " تحجبت بشكل كامل ".. ومرت بعدة شوارع ضيقة الى أن وصلت الى ساحة المسجد النبـوى.. وتكتب: " ومن خلال بوابة عظيمة، دخلت الى ساحه من الاقواس تغمرها أشعة الشمس المشرقة، وأسمع هديل الحمام، ارتفعت أمامى القبة الخضراء للمسجد، مثل زمردة تتألق تحت سماء زرقاء فى صباح باكـر، انتابتنى رعشة عندما خلعت حذائى وتجاوزت العتبة.. ودلفت الى المسجد الفخم، الذى قام بتوسعته وتجديدة السلطان التركى عبدالمجيد منذ تسعين عامًا... واجتزت أعمدة لا حصر لها، القباب تزدان بزخارف حمراء وزرقاء، وشققت طريقى بين الزائرين حتى وصلت الى الروضة الشريفة، حيـث أديت صلاة الفجر.. إحساس بالامان والراحة يخيم على أرجاء المسجد، يزداد بتلاوة القرآن التى لا تتوقف ليلًا أو نهارًا ".

و زارت ايفلين قبرى أبى بكر وعمر، وزارت روضة السيدة فاطمـة، وأشارت بأن الروضة الشريفة فى موقع المسجد الاصلى الذى شيد بالطوب والطين وسعف النخيل وشارك النبى ـ صلى

الله علية وسلم ـ بنفسه فى تشييده.. وأشارت بأن الخلفاء والسلاطين كانوا حريصين على توسعة وتجديد المسجد فى عصور مختلفة، وأبدت اعجابها بروعة المحاريب و" المحراب المقدس بوسط الروضة يحدد الوضع الذى كان يقف فية النبى ".. والجدران مكسوة بالرخام الفاخر وتزدان بآيات من القرآن " بخط عربى جميل ".. وتقول بأن الكتابة الزخرفية عند العرب تستخدم بتأثير رائع.. بوابات المسجد متعددة وتبرز روعة العمارة الاسلامية فى تزيين المساجد.. ثم عادت للحديث عن المدينة ومكانتها، وسجلت ايفلين ما يتحلى به أهل المدينة المنورة من مكارم الاخلاق والادب الجم.. وقالت:" كانت المدينة فى عهد النبى قرية صغيرة بها بساتين ونخيل وأشجار فاكهة، وحملت قوافل الجمال حبوبها وتمورها الى سائر بلاد الجزيرة العربية وبلاد الشام ".. وتشير الى عهود عجاف مرت على المدينة المنورة.. وتأمل فى أن يعود اليها الرخاء " فى ظل حكومة قوية وتنامى الشعور بالأمن فسوف تستعيد المدينة مكانتها القديمة: حديقة الجزيرة العربية "!

فى مكة المكرمة :

عادت ايفلين الى " جده " وقضت ساعات فى زيارة للميناء ومشاهدة وصول الحجيج فى القوارب الشراعية التى تنقلهم من السفن الى الشاطىء..

وفى اليوم التالى، اغتسلت وارتدت ملابس الاحرام، وبدأت رحلتها ـ بالسيارة ـ الى مكه، وقطعت مسافة خمسة وأربعين ميلًا فى ساعتين.. كان الطريق مزدحمًا بقوافل الحجيج، الى أن وصلت الى عامودين طويلين يحددان موضع الدخول الى البقاع المقدسة " منطقة الشميسى " وعبر التلال والكثبان الرملية واصلت " التلبية ".. وشاهدت على البعد قمة جبل النور.. وبعض من منازل مكه المكرمة ومنارات الحرم المكى " مكة ليس لها أسوار، فقط جبالها وصحاريها تحميها، بوابات خضراء ضخمه مغلقة أمامنا ".. تقصد منطقة " البيبان " وموقعها الحالى " منطقة جرول ".. وقد أزيلت هذه الابواب فيما بعد.. ومضت بالسيارة خلال أسواق تمتد بلا نهاية، وشوارع ضيقة، ومنازل عالية تزدان بالرواشن، ووصفت منزل مضيفها من الداخل، والاستقبال الجميل من نساء البيت.. وفى المساء توجهت الى الحرم المكى مع ربة البيت والمطوف، لأداء مناسك العمرة.. وتحدثت عن مهنة الطوافة.. وعبر منطقة " الشبيكة " وصلت الى باب ابراهيم وأشادت بأن للحرم المكى أربعون بابا، وتدهشها ضخامة المسجد.. الاروقة والقباب تزدان بآلاف من القناديل.. وممرات من الرخام الناعم تؤدى الى الكعبة " أقدس المقدسات، بيت الله، المكعب العظيم الذى يرتقع بجلال.. كسوة سوداء تغطى الكعبة، تزدان بآيات من القرآن بحروف مذهبة، جموع الحجيج يطوفون ويلبون.. والقلم يعجز عن

وصف ذلك المشهد، كثير من الحجاج تنهمر دموعهم علـى وجناتهم، وآخرين رافعين رؤوسهم الى السماء المرصعه بالنجوم.. وكـم تأثرت بتلك الانفعالات والأيدى الممتدة بالدعوات.. طفنا سبعًا بالبيت المقدس، وقد نغم مطوفى دعائه بصوت رخيم.. وتمكنت من تقبيل الحجر الاسود المثبت باطار من الفضه ".. ثـم أدت ركعتين عند مقام ابراهيم، وتضرعت امام باب الكعبة المشرفة، وشربت من بئر زمزم، وتمضى خلال أروقة الحرم الـى " باب الصفا ".. ثم الى شارع المسعى.. وتستمر فى وصف مناسك العمرة.. وفـى الصفا والمروة تلحظ اختلاط الاجناس، مسلمون أتوا للحج من شتى بقاع الارض..

وتعقد العزم على زيارة الحرم المكى مبكرا فى اليوم التالى.. وفى الضحى تعانى من حرارة الشمس، وحشود عظيمة حول الكعبة، وتعرف أن جلالة الملك عبدالعزيز بداخل الكعبة، يشارك فـى غسلها بماء زمزم ثم بعطر الورد.

وتشير ايفلين الى أن أهل مكه يعيشون على موسم الحج، وتؤكد على أهميتها كمركز للنشاط التجارى، الى جانب مكانتها المقدسة، فهى مقصد قوافل التجارة من الصين والهند وايران، والعراق وسوريا، واليمن ومصر وبلاد افريقيا.." ووصول ومغادرة القوافل هو أهم حدث فى حياة المدينة "!

وتعرض ايفلين الـى صفحات من سيرة النبى ـصلـى الله عليه وسلم ـ وتاريخ الاسلام، وسلالات الجزيرة العربية، وحياة البدو و" الهجر " التى أمر بتشييدها الملك عبدالعزيز ورجـال الصحراء الذين اشتهروا بـ" الاخوان " الملتزمون بأصول الدين، وتشيد بعبقرية عبدالعزيز " أعظم عربى مـن عهد محمد".. وتصعد الى " جبل أبى قبيس " ومن قمته تشاهد منظرًا رائعًا للحرم المكـى يتوسط وادى مكة، وأشارت الـى مكانه المرأة فى الاسلام، وان محمدًا ـ صلى الله عليه وسلم ـ فرض " احترام المرأة " كأحد التعاليم الاساسية فى العقيدة.. وتتحدث عـن أن العالم الغربى مدين لعلماء العرب فى الطب، وحرص الاسلام علـى طلب العلم.. ثـم تتحدث عن فتح عمر لمدينة القدس، واستعادتها من الصليبين وتطهيرها من الغزاة بقيادة صلاح الدين " أمير الفرسان "..

وتستدرك ايفلين انها شطت بعيدًا، وأنها فى اليوم الثامن من ذى الحجه.. فبدأت تعد لرحلتها الـى " منى ".. الطريق يعج بحشود من الحجيج والجمال والحمير والشقادف والشبارى.. وتمـر بمدافن " المعلاة ".. وقصر الملك.. وتكتب عن منى " تلك البلدة الصحراوية التى تستيقظ مرة فـى السنة على الغزو الكبير للحجاج "!.. وتتحدث عن منازل منى ومسجد " الخيف " ومخيمات الحجيج.. ثم الوصول الى مزدلفه ومسجد " المشعر الحرام ".. ومن خيمة " رائعه "

باتجـاه جبل عرفات تسعد برؤية موكب الملك عبدالعزيز، تحيط به فرق الخيالة، وهو فى طريقة الى جبل الرحمة، ثم تتحـدث عن " رمى الجمرات " وطواف الافاضة.. وتعود للحديث عن كسوة الكعبة ونبذة تاريخية عـن " المحمل المصرى " وتدون ذكرياتها عندمـا زارت القاهرة منذ سنوات وشاهدت الاحتفال الرسمى والشعبى بـ " طلعة المحمل ".. وتعود الـى جده التى بدت لها مهجورة.. وتشير الى البرقيات التى توالت عليها من صحف لندن لترسل اليهم بانطباعاتها، وتكتب الحاجة زينب: " كيف يمكن لـى أن أصف ما يفوق الوصف فى كلمات قليلة أو أن أجعل الأوروبيون يرون مهرجـان الشرق العجيب "!





فيلبى حاجًا..!!

جاءت حقبة " الامبراطورية البريطانية " بتوجهاتها الاستعمارية.. وقد هيأ لها الرحالة والمستشرقون ـ منظومة متكامله ـ من معرفة الشرق.. وكان الشرق الأوسط فى ذلك العصر " ساحة قصية مفعمه بالغموض والاسرار " مما دفع بريطانيا إلى إرسال عدد من الخبراء من ذوى المهارات اللغوية.. والذكاء الخاص، فكان من الصعب التمييز بين العالم والدبلوماسى وعميل جهاز الاستخبارات!

كان " هارى سانت جون فيلبى ـ واحدًا من مجموعة ضباط تم تجنيدهم لحساب البعثة البريطانية فى البصرة.. ومنذ أول لقاء فى نوفمبر عام ١٩١٧ لم يضيع فيلبى وقتًا لكى يكتسب ود " عبد العزيز آل سعود " حتى عام ١٩٢٥ عندما نجحت قوات " عبد العزيز " فى زحفها نحو الغرب من وسط الجزيرة، أن تجتاح منطقة الحجاز وأصبحت مدينتا مكة المكرمة والمدينة المنورة جزءًا من المملكة العربية السعودية.. ومن المدهش أن فيلبى قد حالف آراء جميع زملائة عندما أعلن أن " رجل الأقدار فى جزيرة العرب هو عبدالعزيز آل سعود وليس الحسين بن على "!!.. ليثبت فيلبى أنه الوحيد الذى كان على حق فى رؤيته.. وما كانت هذة الحقيقة بالشىء الذى يستهان به!

وغدا " فيلبى " ليس أشهر الرحالة الآوروبيين فحسب.. بل تلك " الشخصية الأسطورية " التى كان لها دورها المتميز فى المملكة العربية السعودية وفى المنطقة العربية.. كما أنه أحد الرجال الذين قامت على جهودهم صروح الامبراطورية البريطانية فى الشرق، وكان له أثره العميق فى الأحداث السياسية والعسكرية والاقتصادية التى شكلت مرحلة هامة فى تاريخ العرب الحديث!

خلال حياته التى بلغت الخامسة والسبعين، كانت شخصيته متعددة الجوانب غريبة الأطوار، يتخرج فى جامعة كمبردج ثم يقضى عشر سنوات فى الهند ـ درة التاج البريطانى فى ذلك الوقت ـ ثم يعمل فى العراق والسعودية والأردن، ويلعب أدوارًا سياسية هامة، ويحيا حياة

البادية، ويشتغل بالتجارة، ويكتشف مجاهل الجزيرة العربية، ويراسل الصحف ويؤلـف الكتب العلمية والجغرافية وتمتد شهرته عبر القارات، والمحيطات...

وحين جاءت نهايته كان قد غادر المملكة العربية السعودية مغضوبًا عليه مـن الملك سعود بن عبدالعزيز وأقام أيامه الأخيرة فى بيروت. وذات صباح حملت الصحف نعيه فـى سطور قليلة: ـ "صلى الأمس على المرحوم الحاج عبدالله فيلبى فى مستشفى الجامعه الأمريكية فى بيروت حسب الشريعه الإسلامية طبقًا لوصيته، ثم نقل الجثمان إلى مقبرة الباشورة حيـث ووري الثرى".

ولد " فيلبى " فى جزيرة " سيلان " عام ١٣٠٢ هـ / ١٨٨٥ م والتحق بكليـة اللغات الشرقية بجامعة " أكسفورد " وهو فى الثالثة والعشرين من عمره، ثم عمل موظفًا فـى حكومة الهند فى السنة التى تليها، ومكث نحو سبع سنين، وعمل فـى العراق بعد ذلك سنة، فرأس البعثة البريطانية فى الجزيرة العربية فتره، عاد بعدها مستشارًا فى وزارة الداخلية فـى العراق، فرئيسًا للبعثة البريطانية فى الأردن، حيث مكث أربع سنوات، وتقلب فـى وظائف عديدة، ولم يكن أثناء قيامه بأعماله السابقة منقطع الصلة على أحوال هذة البلاد، التـى اتخذها فيها بعد مستقرًا له[١].

ويقول جون فيلبى أو " الحاج عبدالله فيلبى " عن الرحلة التى مهدت لاعتناقة الإسـلام فى كتابه: " أيام عربية "[٢].

" لقد اجتذبنى الإسلام منذ أيامى الأولى فى الهند، إذ تأثرت بما فيه من بساطه فـى تناول حقائق الحياة الخالدة وفلسفتها. وكنت قد توقفت منذ أمد طويل، عن أن أكون مسيحيًا، وأصبحـت فيلسوفًا أتطلع إلى الحياة بنظرة فلسفية عميقة. دون أن تكون لى أية معتقدات أو مشاعر دينية، على الرغم من اعترافى بأن الديانه تؤلف لغالبية الناس، ضرورة لا مناص منها، ومع ذلك فقد بدا لى أن الاسلام فى الهند قد أصبح محاطًا بسلسلة من الطقوس والمظاهر الغريبة عنه، وهـى طقوس ومظاهر لا يمكن للإنسان أن يتقبلها إلا بعد تمحيص دقيق. وعندما انتقلت الـى العراق، وجدت طائفتها السنية، كثيرة التعلق بالرسميات والمظاهر، فى أداء الفروض الدينية بينمـا وجدت من الصعب أن أؤمن بالنظرية الشيعية، التـى تستند إلى الأئمه والأولياء. وعندما مضيت الى السعودية، اتصلت بها بدا لى، الفكرة المبسطة عن الاسلام التى تستمد وحيـها وإلهامها من القرآن الكريم، وسنة الرسول الأعظم وتبتعد عن النظريات والعقائد الدينية المتشابكة والمعقدة.

---

(١) لمزيد من التفاصيل عن سيرة العالم والرحالة فيلبى يراجع "فيلبى الجزيرة العربية"، إليزابيث مونرو، ترجمة أحمد عمر شاهين، مكتبة الملك عبدالعزيز، ١٤٢٥هـ، ويراجع أيضًا، نجيب العقيقى: المستشرقون، دار المعارف، القاهرة، ١٩٨٠ م.

(٢) أيام عربية، عبدالله فيلبى، ترجمة عباس سيد أحمد، مكتبة العبيكان، الرياض ١٤٢٢هـ.

وبدا لى أن المذهب الوهابى[1]، هو الدين المثالى، ولـم أجد فى تعصب أتباعه ما يسؤنى أو ينفرنى. فقد رأيت الوهابيين يمارسون الطقوس البسيطة كما يؤمنون بهـا ويبشرون، ورأيت أن مذهبهم يتفق مع حاجـات الحيـاة البشريـة والمجتمـع فى أبسـط صورهمـا. واعتقـدت أن الاسـلام على هذة الطريقة، هو المذهب الذى يستطيع الانسان أن يتقبلة قبولًا حسنًا ويؤمن بـه إيمانًا صادقًا كدليل موجه للحياه والسلوك، وأن مقاييسه الدينية تنسجم مـع الحاجات الأساسـية للبشريـة أكثر من أى دين أخر. وإذا كانت فيه بعض الخشونة فإنه مـن الناحية الاخرى يرفض كل زيف وخداع، كما أنه يرى فى تعدد الزوجات خير سبيل لمنع العهر والدعارة مـن سبل الوصايا العشر.

وفي ضوء التقدم نلاحظ أن هناك شبه إجماع علي أن المصدر الفكري لهذه الحركة هما القرآن والسنة النبوية.. باختصار تهدف الحركة الاصلاحية العودة بالمجتمع الاسلامي الي صورته النقية

---

(١)دأب عدد من الرحالة والمستشرقين وفي الأدبيات الغربية علي إطلاق لقطة "الوهابية " أو "المذهب الوهابي" علي الحركة السلفية الاصلاحية،وقد تعددت الآراء وتباينت في هذا الموضوع،وقال الملك عبدالعزيز – رحمه الله – في إحدي خطبه بمكة المكرمة: "يسموننا الوهابيين أو يسموننا مذهب الوهابيين باعتبار أنه مذهب خامس وهذا غلط أحسبه من الدعايات المغرضة " (شبه الجزيرة العربية في عهد الملك عبدالعزيز،دار دهر العلم للملاين، ١٩٨٥ م، ج٣،ص ٧٩١) والتسمية نسبة الي الشيخ محمد بن عبدالوهاب، لكن اكبر الأخطاء التي ارتكبها الرحالة والمستشرقون إعتبار العقائد والأحكام الاسلامية – شعائر وهابية،أي نتاج للعقيلة الوهابية، ويعود هذا للنظرية الإجتماعية التي ارتكز عليها هؤلاء الرحالة بالاضافة الي ثقافتهم المسيحية الغربية، وكتب خير الدين الزركلي واصفًا الشيخ محمد بن عبدالوهاب بأنه: "زعيم النهضة الدينية الإصلاحية الحديثة في جزيرة العرب... آزره في دعوته الأمير محمد بن سعود... وجهر دعوته سنه ١١٤٣ هـ / ١٧٣٠م فكانت الشعلة الأولي لليقظة الحديثة في العالم الاسلامي كله، تأثر بها رجال الاصلاح في الهند ومصر والعراق والشام وغيرها، وساهم خصومهم بالوهابيين وشاعت التسمية عند الأوروبيين، وأخطأ بعضهم فجعلها مذهبًا جديدًا في الاسلام!.. (الأعلام،دار العلم للملايين، بيروت الطبعة السابعة عشرة، ٢٠٠٧ م، ج٦، ص٢٥٧) وقد اعتبر الأستاذ / أحمد عمر السليم كتاب الشيخ حافظ وهبه "أيام العرب " مرجعًا للأجانب عن هذه الحركة الاصلاحية وقد ترجم الي الانجليزية، حيث قال: إن القرآن والسنة هما مصدر الحركة الوهابية وهذا هو المصدر الثابت، أما من ناحية المصدر المثال فهو شيخ الاسلام ابن تيمة وقد أدرج الشيخ حافظ وهبه المبادئ التي اعتمدها محمد عبدالوهاب وهي:

١ – محاربة البدع والخرافات وعدم وجود وسيلة بين العبد وربه وتحريم طلب المساعدة إلا من الله تعالي.
٢ – الحث علي الجهاد والدفاع في سبيل الله
٣– محاربة شتي طرق الصوفية والدراويش
٤ – عدم الحج إلا لمكة المكرمة والمدينة والقدس
٥ – محاربة المبتدعة كابن عربي وأمثاله
٦ – اتباع منهج الاجتهاد المقنن ونبذ التقليد والمحاكاه
٧– الابتعاد عن منهج التأويل،والتفسير يكون بالقرآن والسنة النبوية.

الأولي (المظاهر الثقافية في كتابات الرحالة المشرقين، مكتبة الرشد، الرياض، ١٤٢٩ هـ، ص١٦٨ – ١٦٩) وكان تأييد الامام محمد بن سعود للشيخ محمد بن عبدالوهاب في دعوته بعد اقتناعه بأنها دعوة لتحديد الدين وارشاد الناس الي الصواب " كان الأمر يحتاج إلا لقليل من الجهد لإذكاء جذوة الالتزام الديني الكامنة في أعماق سكان صحراء الجزيرة العربية، لقد كانت العقيدة الصحيحة مبرأة من التشويه الذي لازمها في وقت لاحق وبدأت الحقائق الرئيسية للعقيدة تشع مجددًا كمنارات هادية لكل تائه في ظلمات الشك" (فيلبي، قلب الجزيرة العربية، مكتبة العبيكان، الرياض، ط. أولي ١٤٢٣ هـ، ص ١٦) اذًا فالوهابية ليست مذهبًا وانما هي تجديد لما علق بالكتاب والسنة من معتقدات خارجة عن نصوص الكتاب والسنة.

وأخذ حبى يشتد للبلاد العربية بعد عام ١٩٢٥، وكانت المشكلة التى تواجهنى هى هل أنا على استعداد للمضى مع العرب الى أخر الطريق...

ولم أتردد قط فى اتخاذ قرارى، وأن أقتضى اتخاذ هذا القرار فترة طويلة من الوقت، إدراكًا منى للحقيقة الواقعه، وهى أنه عندما يتخذ فمن الصعب الرجوع عنه.

وقد عرف " ابن السعود " من أمد ببعض ما يجول فى خاطرى، ولكننى أقولها، قوله صدق أنه أمتنع مطلقًا عن محاولة الضغط علي أو التأثير على اتجاهى، تاركًا تقرير هذا الموضوع لضميرى وحده، مع إدراكى الكامل بأنه سيرحب أبلغ الترحيب بهذة الخطوة وانضويت الى رعيته، حيث يتلقانى بذراعين مفتوحين، وأخيرًا كان للقدر شأن فى اتخاذ هذا القرار.

" كان الملك يقضى فصل الصيف فى الطائف، بعد أن جاء من الرياض لأداء فريضة الحج فى مكة، ثم قصد إلى جدة، حيث أستقبل رايان وزير بريطانيا المفوض الجديد، وتلقى منه أوراق اعتماده. وكان فؤاد حمزة، الذى تولى مؤخرًا نيابة وزير الخارجية خلفًا للدملوجى الذى غادر البلاد، فى مكه، فهتفت له أحدثه بما وقع، وأسأله إبلاغ الملك بأننى قد حزمت أمرى على ما سبق الحديث فيه، وأننى أرجو زيارته فى الطائف لبحث التفاصيل اللازمة. ولم تمض إلا ساعات، حتى كان الملك يحدثنى بنفسه هاتفيًا من الطائف، معربًا عن سروره، بأننى قررت أخيرًا الدخول فى حظيرة الإيمان. وأبلغنى أنه سيوفد إلى فورًا فؤاد حمزة، حاملًا وثيقة يجب على أن أوقعها تتضمن الاعراب عن رغبتى، فى اعتناق الإسلام. وأكد لى أن هذة الوثيقة ضرورية لإطلاع علماء مكة حيث سيسمح لي غدًا بالذهاب إليها مع فؤاد حمزة وعبدالله السليمان لأداء فروض العمرة، ومن ثم أمضى الى الطائف حيث أحل أهلًا وسهلًا عليه.

وقد استغرقت هذة العمليات التمهيدية أقل من أربع وعشرين ساعة، وغادرت جدة بعد ظهر السابع من آب، محتجًا لموظفي مكتبى بأننى سأمضى الى وادى فاطمة لمقابلة وزير المالية لأمور تتعلق بالأعمال التجارية، ثم مضيت فى سيارتى الفورد الخضراء فى طريقي إلى مكة.

وإذا ود إنسان أن يسألنى " لماذا اتخذت هذة الخطوة ؟ " أجبته على الفور: " لأننـى لا أدرى لماذا ترددت طويلًا فى اتخاذها ". لقد كان الملك عبد العزيز هو العامل الموجه فى هذة العملية كلها.

فيلبى يؤدى العمرة:

ويصف فيلبى فى كتابه " أربعون سنة فـى البرية "[1] كيف أدى العمرة لأول مرة فيقول: لقد كنت أنا هذا الانسان الذى هداه الله، وقد ارتديت مئزر الاحرام لأقوم بالفريضـة الأولى من فرائض الانتماء الى ابسط ديانة عرفها العالم، وأقلها تعقيدًا أكثرها تأثيرًا، وهـى الديانة التى كنت منذ أيامى الأولى فى الهند، وفى مقاطعة البنجات بالذات، قد اتصلت بها عـن كثب، والتى يدين بها العرب، الذين نذرت نفسى لخدمتهم، وقررت أخيرًا بعد تفكير طويـل ودرس عميق، أن أصبح واحدًا منهم، وأن ألقى بحظى بين حظوظهم.

ووضعت حذائى على مقربة من باب المسجد العتيق، وأسلمت قيادى الى دليلـى ومرشدى، الذى أمسك بيدى اليمنى من رسغها، فدخل بى من باب السلام، الى ساحـة الحرم الكبرى، التى امتدت أمامنا فسيحة واسعة، فى ضوء القمر الساطع، الذى تقطعه بيـن الفينة والأخرى سحب صغيرة، سرعان مـا تختفى تاركة لأشعة القمر، الذى كاد أن يكون بدرًا، إضاءة الكون، بنورها الأزلى، ورأيت فى وسط ساحة الحرم، الكعبة المشرفة، وقـد غطتها الستائر السوداء، وأبصرت ببضع مئات من الناس، وقد انتشروا فى جماعات صغيرة يصلون ويتهجدون، بينما شاهدت عددًا أخر، يطوف حول الكعبه طوافًا مستمرًا لا تقطعه إلا فترات قصيرة من التوقف، ليستأنفوا الطواف حول هذا البيت المقدس وكانت هدأة الليل، لا يقطعها إلا همسات المصلين وابتهالهم إلى الله.

وتلوت الآيات والأدعية التى كان يرددها الدليل على مسامعى، ثم سرت فـى ممر مرصوف إلى وسط الكعبة المشرفة، حيث وقفت أمام مقام ابراهيم عليه السلام، وإلـى يمينى يقع بئر زمزم، ليعود فيصبح إلى يسارى، وأنا أتجه الى الحجر الأسود القائم فـى الزاوية الشرقية من الكعبة المشرفة. واقتربت مع دليلى بكل خشوع من الحجر الأسود، فقبلناه بكـل إجلال، ثـم بدأنا نطوف بالكعبة سبع مرات، ونحن نردد الدعاء المأثور، لنقف بين الطوفة والأخرى فنلثم الحجر، ثم اتجهنا الـى الزاوية الجنوبية، فاستقبلنا الركن اليمانـى، نلمسه بأيدينا ونحن نهلل ونبتهل.

وانتقلنا بعد اداء الطواف إلى مقام إبراهيم، حيث أدينا ركعتين، تحية للكعبة المشرفة، لننتقل بعدهما الى زمزم، حيث تناولنا قدحًا من الماء الطاهر فأكملت بذلك مناسك العمرة.

---

(١) أربعون عامًا فى البرية، عبدالله فيلبى، ترجمة عاطف فالح، مكتبة العبيكان، الرياض ١٤٢٤هـ.

وفى كتاب " عبدالله فيلبى: قطعه من تاريخ العرب الحديث " يقول خيرى حماد[1]: " لقد عاش فيلبى الثلاثين سنة الأخيرة من حياته مسلمًا، مؤمنًا، وقد ذكر هو أنه كان يقيم الصلوات فى أوقاتها، ويؤدى فريضة الصيام حتى فى أقسى شهور الصيف، وأثناء رحلاته وجولاته فى البوادى العربية، مبالغًا فى ذلك فى تزمته، إذ أن الاسلام يبيح للمؤمنين الإفطار إن كانوا على سفر، وأنه كان يؤدى فريضة الحج، دائمًا، كما مات فيلبى ميتة المسلم، وأوصى بأن يدفن فى المقابر الإسلامية. لكن أصدقاء فيلبى الحميمين الذين عرفوه، هذة المدة الطويلة، فى المملكةالعربية السعودية، وفى سنواته الاخيرة كانوا يشكون فى حقيقة إسلامه ويؤكدون أنه لم ينقطع عن الخمر التى يحرمها الإسلام، ويعزون تزمته فى الصيام إلى رغبته الشديدة فى التظاهر، كما ينسبون إقباله على الحج الى محض الرغبة فى أن يكون دائمًا وأبدًا فى رفقة الملك السعودى الراحل، الذى كان لا يتوانى عن أداء الفريضة، وهم يعللون وصيته الأخيرة، بأنها مظهر نهائى، لتجنب كل ما يفضح حقيقته التى عاشها طوال هذة السنين.. "

رحلة الحج فى معية الملك عبدالعزيز:

وحرص فيلبى على الاشارة لخطبة " الملك عبدالعزيز " فى ضيوفه عشية الحج.. ووصف حفل العشاء الملكى التقليدى بالقصر والذى أقيم فى الثالث والعشرين من أبريل عام ١٩٣١م.. وقد دعى اليها نحو سبعمائة ضيف، وقال عن خطبة الملك بأنها كانت بسيطة جدًا فى معالمها مباشرة فى مناشدتها بل كخطبة الرسول نفسه والخلفاء الأولين:" لا تظنوا أن هناك ما نخشاه من الكفار، الذين شاء الله فى حكمته الخفية أن يجعلهم ساده على عدد كبير من بلاد الاسلام وذلك بلا شك لابتلائنا.. وفى الواقع، أنهم ليسوا من أخشى ولكنها الانقساماتالسياسية والطائفية فى الاسلام نفسه، وإن لم نجد الوحدة فى عقيدتنا فلن ننتصر.. ليسوا الكفار ولكن أنفسنا وعدم وحدتنا.. من يجب علينا أن نلوم لوضعنا المهين الحالى "!..

"ليس بمثل هذا الترويج للأساليب الغربية يمكننا تحقيق المساواة مع الغرب، فلنفخر بعقيدتنا وبتقاليد الجنس العربى الذى نشر الاسلام فى العالم، بشريعتنا الاسلامية وحضارتنا"!

عقب صلاة الجمعه من اليوم الرابع والعشرين من شهر ابريل ١٩٣١، السادس من ذى الحجة، بدأ تحرك قافلة الحج والركب الملكى.. الجميع فى ملابس الاحرام " لقد كان الطريق الواسع المخترق لمدينة مكة شرقًا، والمجاور لمقبرة المعلاة القديمة والقصر الملكى فى المعابدة، والمفضى الى المسجد الحرام طيلة اليوم مسرحًا لحركة لا تنتهى وفى ازدياد دائم، وقطارات الجمال حاملة الهوادج.. تسير حاملة أثقالها.. فرق حاملة رايات متعددة الالوان لتكون مناطق تجمع

(١) خيرى حماد: عبدالله فيلبى قطعه من تاريخ العرب الحديث، بيروت، ١٣٨١ هـ/ ١٩٦١م.

للجماعات المختلفه.. الحجيج يتقدمون فى بطء نحو مقصدهم.. وقد بدأ سهل عرفات يتحول الى مدينة من الخيام "!

وأشار فيلبى بأن حركة السيارات كانت ممنوعة فى المدينة خلال اليومين الاولين للخروج الى عرفات.. وكلما تقدم المساء، علا صخب الزحام.. من الحجيج والجمال والحمير... وقد بقى الملك وحده وحاشيته يصرفون المهام اليومية حتى " يوم التروية " وبدء التحرك، وقال الملك " إن أمر الحج هذا كالحملة "!.. وقد كان مقررًا لفيلبى أن يصحب الملك فى سيارته، لكن لتأخر حمل فيلبى، قام برحلته الى منى فى سيارة وزير المالية " فأتيحت لى فرصة رؤية الطريق الجديد المقرر للسيارات، لإخلاء الطريق الرئيسى للجمال والمشاة، ولم يزل الجمل النجدى نافرًا من هدير السيارات، بينما كان أخوة الحجازى قد وطن نفسه عليها منذ فترة طويلة "!

قدمت وجبة العشاء للملك وصحبة فى خيمة ضخمه قرب القصر " وبعد الأكل تجولت فى المعسكر والقرية ـ ولم يكن أمرًا سهلًا للجماعات المتحركة من الناس والجمال ـ وكان القمر يضفى على المنظر سحرًا، فلمحت الشياطين الثلاثة منصوبة على مسافات فى القرية ـ كل واحد منها عمود من الحجر فى سور دائرى من الحجارة بأبعاد غير مرتفعه ـ وقد طليت بالأبيض، فى تباين مع لونها الحجرى، فى العطلة التى كانت بعد الحج الأخير. ويبدو أن تجارة صغار التجار فى منى كانت رائجة فى السلع غير القيمة التى كانت يشتريها الحجاج فى مثل هذة المناسبة ـ أشياء تذكارية من مواد غذائية ومياة.

واشار فيلبى الى عادة الملك عبدالعزيز فى حرصه الشديد على الاستغراق فى قراءة القرآن الكريم عقب صلاة الفجر وحتى شروق الشمس.. بينما الجميع يحتسون أقداح الشاى والقهوة!

وحين بدأ ضوء النهار يخترق ضباب الوادى من وراء التلال السوادء.. تحركت " مجموعة الملك " نحو أسفل الوادى، وسرعان ما انضمت القوافل الاخرى فى " موكب رهيب" أكثر من مائة ألف جمل خلف الملك فى صباح يوم الحج.. ومر الجميع بمسجد مزدلفة حتى دخلوا " وادى المأزمين " الضيق الى بازان صهاريج المياة، ثم عين زبيدة.. حتى وصلوا الى العمودين اللذين يحدوان " حرم مكة " وورائهما " المنطقه المحايدة " المسماه " وادى عرفه " وفيها مسجد نمرة... وفى هذا المكان المحايد " أنخنا أسوة بسنة الرسول وانتظرناحتى العصر".

ووصف فيلبى " جبل الرحمة " أهم معالم سهل عرفات.. ومشهد " مدينة الخيام " التى قامت اثناء الليلة الماضية لإيواء الحجيج.. " نام الملك لمدة قصيرة، وبعد الظهر بقليل دعينا الى خيمة الملك لتناول الغداء المكون من لحم الضأن والأرز.. ماء كثير وثلج من القصر الملكى "

وتحدث فيلبى عن صلاة الظهر بمسجد " نمرة " وكان يقصد الجمع بين صلاتى الظهر والعصر، وقال أنها نسك هام عند من يقتفى سنة الرسول محمد صلى الله علية وسلم فى حجته

الوحيدة " حجة الوداع ".. وكانت أعداد هائلة من الحجاج قد اتخذت أماكنها داخل المسجد فى ساعة مبكرة بينما أمضى بعضهم ليلة الحج مخيمين فى المنطقة حول المسجد.. وكان على الملك وحاشيته وإمام مكة والامراء والوزراء وكبار رجال الدولة أن يشقوا طريقهم بصعوبة بالغة حتى يصلوا إلى الاماكن المخصصة لهم فى الرواق..

كان قد ألقى الخطبة الشيخ عبدالله بن حسن، شيخ أئمة مكة، الذى صعد درجات المنبر البسيط فى شكلة، وفى يده عصا، وانطلق يشرح ببعض التفصيل أوامر الرسول صلى الله عليه وسلم عن الحج.

وأشار فيلبى الى أن هذة الخطبة.. كانت فى عهود الأتراك والأشراف، أحد الشعائر الهامة فى يوم الوقوف بعرفه، تلقى من على ظهر جمل أو من قمة جبل الرحمة نفسه أو بالقرب منه.. أو فى وسط المحمل وغيره من مظاهر العظمة الدنيوية!..

وتحدث عن " المحمل " الذى يبعث به سنويًا سلطان تركيا أو خديو مصر كرمز لسيادة "مدعاة" على المدينتين المقدستين!

لعل الوقوف بعرفات أيام الاتراك والاشراف كان مختلفًا تمامًا، حين كان الوقوف فى شكل شعيرة منظمة، تتخلل الخطة طلقات المدافع أو أشياء أخرى. أما الآن فما على المرء إلا أن يتجه الى مكة ليدرك أن روحًا جديدة قد دخلت فى الوقوف على عرفات. هى إيمان بالغرض الاساسى من الحج وبالواجب الانسانى بالخضوع والصبر، وهما الوحيدان اللذان يجعلانه مقبولًا عند الله.

وبعد تجاوز الأعمدة الحجرية المحددة لحرم مكة المكرمة.. والمرور بممر المأزمين، انفتح مشهد سحرى لمدينة رائعة تزدان بالألاف من الأنوار.. أقواس مضاءة فى صفوف منتظمة.. " لم يكن لهذة المدينة أثر من قبل عندما مررنا فى الصباح، لقد نبتت فجأة فى الوادى منذ الغسق.. لقد كانت مزدلفة، حيث علينا أن نقضى الليل أسوة بالنبى "..

وأشار فيلبى بأن السيارات غدت عنصرًا هامًا متزايدًا فى مشاهد الحج، وقال بأن استخدام السيارات كان امتيازًا خاصًا للأسرة المالكة وكبار رجال الدولة، لكن فى عام ١٩٥٥ رفعت القيود ورخص لدائرة أوسع.. حتى بلغ عدد السيارات المشاركة فى موسم الحج " ٤٠٠ سيارة"!

ثم واصلوا سيرهم صاعدين الوادى نحو " منى ".. وكان الملك قد استبدل مله بحصان وواصل سيره صاعدًا شارع منى الى العقبة لرمى الجمرات..

لقد كان على آنذاك أن أطوف، سبعة أشواط حول الكعبة بدءًا بتقبيل الحجر الأسود أو تحيته: بسم الله، الله أكبر "!

أكمل فيلبى الأشواط السبعة.. وعاد من حيث بدأ عند " الحجر الأسود " لكنه لم يستطع الاقتراب منه واكتفى بتحية ذلك الرمز المقدس من بعيد... وزار مقام ابراهيم وأدى ركعتى الطواف.. وشق طريقة وسط الزحام، وقد أنعش نفسه بشربة ماء من " بئر زمزم المقدسة والتاريخية " مما يقدم للحجاج عادة فى كوب من المعدن يصب فيه من جرار فخارية كمثرية الشكل[1]..

فى مدينة النبى :-

كتب فيلبى وصفًا طبوغرافيًا بالغ الدقة للمدينة المنورة[2].. وقد عقد مقارنة بين قياساتها فى زمنة وما ذكرة كل من " الدون ريتر " و" بيرتون ".. كما تحدث عن أسوارها وأبوابها.. وسكانها وبيوتها وبساتينها.. الشوارع والمتاجر وخط السكة الحديدية الشهير.. ووصف الحرم النبوى.. وقد حاول " تخمين الطريق الذى سلكته ناقة الرسول ـ صلى الله علية وسلم ـ الى المكان الذى يقوم فيه مسجده "!

وتحدث فيلبى عن الطريق الرئيسى باتجاه الشرق والذى يحتوى مقر الحاكم وأسرته وبعض الدور الكبيرة.. ووصول الزائرين للحرم النبوى عبر جسر " أبو جيدة " الى مكان التخييم المعروف بـ" المناخه " أو خانات المدينة.. والطريق التجارى الجديد " العينية " المؤدى من مخيم الحجيج الى منطقة الحرم، وقال بأن سور المدينة فى هذة المنطقة كامل لم يتهدم منه شىء، بوابته الرئيسية " الباب المصرى " قائمة بكل جمالها وما يحيطها من ابراج، وزقاقها المتعرج بحوانيته المؤدى مباشرة الى " باب السلام " البوابة الرئيسية للحرم النبوى..

وكتب فيلبى عن قصر اسرة " الخريجى " النجدية التى اقترنت بتجارة المدينة قديمًا.. ومكتب رئيس الشرطة " خالد "!.. وسوق للمنتجات " الريفية " كالخضروات والفواكة واللحوم وغيرها.. ووسط منطقة السوق يرتفع بناء يظهر الاحترام التركى للقوانين الصحية "!.. حمامات على شكل دائرى.. يقابلة " مجلس المدينة " مركز جميع الانشطة المحلية ومقر أمين عام المدينة.. وتحدث عن البوابة المعروفة بـ" الباب الصغير " يعلوها مكتب البريد والبرق..

ثم " باب دمشق " المؤدى الى " قلعة السعيدى ".. و" باب الحمام " المؤدى الى المدينة من حى " النخاولة " وقال عن مسجد النبى: " يبدو أن المسجد الاصلى الذى كان الرسول قد أمر ببنائة كانت جدرانه من الطين فوق أساسات وطبقة رقيقة من الحجارة. وإن كان ذلك هو أسلوب البنائين آنذاك، فإنه لمن الجائز ألا يرى على وجه الارض الآن أى شىء كان ظاهرًا تراه

---

(١) لمزيد من التفاصيل عن رحلة الحج التى قام بها فيلبى بمعية الملك عبدالعزيز يراجع: حاج فى الجزيرة العربية، عبدالله فيلبى، ترجمة عبدالقادر محمود، مكتبة العبيكان، ١٤٢١هـ.

(٢) المصدر السابق، ص ٦٧ - ٩٨.

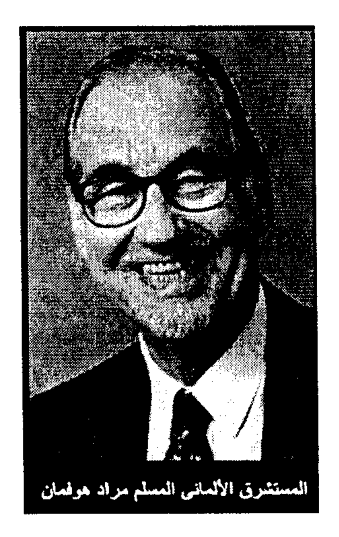
العين آنذاك. ولعل الحفريات ـ وعلى وجه الاحتمال ـ تكشف أساسات معاصرة لعصر الرسول صلى الله علية وسلم والخلفاء الراشدين أو متأخرة عنه ".

وزار فيلبى المكتبة الشهيرة لشيخ الاسلام " عارف حكمت "، وتحدث عـن كنوزها مئات من المخطوطات النادرة.. وأضاف:

" وهذه المكتبة التى أهم ما يميزها حجرة للقراءة، دائرية، غاية فى الروعة، بها تلك الكتب النادرة مكومة فى أكوام، لا قائمة فى ارفف، لها أمين، عالم كبير السن، ذو جاذبية، اسمه الشيخ ابراهيم بن احمد حمدى زادة الخربوطلى، من اصل اناضولى، كان جده قد استقر هنا فى١٢٥٥هـ (١٨٣٩م). وعرض على بعض كنوزة. وإن حسرتى الوحيدة هى، أنـه خلال زيارتى الاثنتين للمدينة، لم يسمح لى ضيق الوقت والالتزامات الاخرى بالاستفادة من المكتبة بالقدر الذى كنت أتمناه "!

وتحدث فيلبى عن طابع الحياة فى المدينة.. فبجوار الحرم، قريبًا مـن باب السلام، ساحة سوق ـ مبلطة ـ تعرف بالعينية، وكانت هذة المنطقة فى الاصل بستانًا ومتنزهًا للسكان.. تحولت الى شارع تجارى تصطف الحوانيت بطوله، تتقدمها شرفات مسقوفة وأروقة واسعه على جانبية، وإزالة البوابة وجزء من السور أفسح مجال الرؤية " أمام المشهد الرائع للقبـة الخضراء "!..

وآخر ألماني:


المستشرق الألماني المسلم مراد هوفمان

الدبلوماسي والرحالة ويلفريد هوفمان
مدير قسم المعلومات والإعلام بحلف الناتو..!

هـو أحد أبرز الشخصيات الإسلامية الغربية في عصرنا، ومنذ سنوات، والمسلمون في ارجاء الأرض يتابعون كتاباته ونشاطه الفكري في مجال الدعوة الإسلاميـة...

ولـد د. " مراد ويلفريد هوفمان " في السادس من يوليو سنة ١٩٣١ بمدينة " اشافينبرج " بألمانيا، في أسرة كاثوليكية، تخصص في دارسة القانون وتخرج من جامعة " ميونيخ " سنة ١٩٥٠ ودرس علم الاجتماع بجامعة " يونيون كوليج " بنيويورك عام ١٩٥١، ثم حصل على درجة الماجستير في القانون من جامعة "هارفارد" الأمريكية سنة ١٩٦٠، وحصل على درجة الدكتوراه من جامعة "ميونيخ" سنة ١٩٧٥، وعمل بالخارجية الألمانية منذ عام ١٩٦١، حيث تقلد عدة مناصب في بعثاتها في " برن " و"باريس " و" بروكسل " و" فيينا " و" بلجراد ".. ومن خلال عمله بالقسـم السياسي بالخارجية تولى مسئولية العلاقات الألمانية مع الهند وباكستان وسيلان ونيبـال وبوتان، وعمل سفيرًا لبلاده في الجزائر من ١٩٨٧ إلي ١٩٩٠ انتقل بعدها سفيرًا لبلاده في المغـرب.. وآخر منصب تولاه: المستشار الإعلامي لحلف الناتو في بروكسل..

أثـار إسلام " مراد هوفمان " قدرًا هائلًا من الاهتمام والجدل إلي جانب "الحرج" في الغرب.. حتى أن بعض المسئولين الألمان كانوا يخفون حقيقة إسلامه، وقد جاء اعتناقه للإسلام سنة ١٩٨٠ تتويجًا لمشوار طويل من الدراسة المقارنة والتفكير العميـق: بين حضارة الغرب وقيمه وإيديولوجياته، وبين الإسلام وفلسفته وإنجازاته الحضارية على مستوى الفرد والمجتمع.. وعن يوم اعتناقه الإسلام يقول مراد هوفمان في " يوميات مسلم " بتاريخ ٢٥ سبتمبر سنة ١٩٨٠: " نطقت بالشهادتين في المركز الإسلامي بكولونيا " لا إله إلا الله محمدًا رسول اله " واخترت لنفسي من بين الأسماء الإسلامية " مراد فريد " وأصبحت منذ اليوم مسلمًا، وهكذا بلغت مرادي "!

آثاره العلمية :-

" نهج فلسفي لتناول الإسلام " ١٩٨٣ بالألمانية.

" دور الفلسفة الإسلامية " ١٩٨٥ بالألمانية.

" يوميات مسلم " ١٩٨٧ بالإنجليزية، سنة ١٩٩٠ بالألمانية والفرنسية، وترجم إلي اللغة العربية سنة ١٩٩٣.

" الإسلام هو البديل " ١٩٩٢ بالألمانية، وأعيد طبعه ١٩٩٦، ثم نشر بالإنجليزية والعربية ١٩٩٩ م.

" الطريق إلي مكة " بالإنجليزية، وترجم إلي العربية ٢٠٠٠

" الإسلام في الألفية الثالثة " بالإنجليزية ٢٠٠٠ وترجم إلي العربية ٢٠٠١ م.

" خواء الذات والأدمغة المستعمرة " ترجم إلي العربية ٢٠٠٢

يوميات ألماني مسلم :-

هذا الكتاب الذي نشره " مراد هوفمان " سنة ١٩٨٧، قدم له المفكر والرحالة المستشرق الكبير " محمد أسد " الذي كتب بأن هذه اليوميات كشفت عن تجليات فكرية بارزة سلطت الضوء على اقتراب المؤلف من الإسلام، وهي العملية التي امتدت عبر سنوات طويلة وتوجت أخيرًا باعتناقه النهائي للإسلام في عام ١٩٨٠يقول مراد هوفمان في " يوميات مسلم " بتاريخ ٢٥ سبتمبر سنة ١٩٨٠: " نطقت بالشهادتين في المركز الإسلامي بكولونيا " لا إله إلا الله محمدًا رسول اله " واخترت لنفسي من بين الأسماء الإسلامية " مراد فريد " وأصبحت منذ اليوم مسلمًا، وهكذا بلغت مرادي ويضيف "محمد أسد " الذي عاش نفس التجربة وانتهت باعتناقه للإسلام عام ١٩٢٥: أن هذه اليوميات كانت – حوارًا مع النفس – فرضته طبيعة " هوفمان " الألمانية الميالة إلي الاستغراق بعمق في دراسة القضايا الأخلاقية والسلوكية والجمالية.. " ولقد دفعه نفوره من حضارة التكنولوجيا الحديثة المادية، وكذلك من عقم الفكر السيسولوجي الغربي، وما ينطوي عليه من إنكار لكل القيم المتعلقة بمصير الجانب الروحاني في انسان إلي اكتشاف التناسق بين الأشكال الفنية في العالم الإسلامي والنظرة الدينية لأبنائه، وهذا هو الاكتشاف الذي أوضح له في حينه الارتباط الوثيق بين الثقافة الإسلامية والعقيدة الإسلامية ذاتها، وكانت خبراته كدبلوماسي وكزائر لدول إسلامية مختلفة – معظمها في شمال إفريقيا وتركيا – حافزًا له على أن يعكف على دراسة القرآن، وأيقن على مر السنين أن اعتناق الإسلام هو النتيجة المنطقية الوحيدة لبحثه عن الحقيقة النهائية لحياة، واختار لنفسه أسم " مراد " الذي يعني " المبتغى " وبمعناه الواسع " الهدف " أي أعز أهداف حياة ويلفريد هوفمان "!..

ويضيف محمد أسد: " لا شك أن هذه اليوميات سوف تسهم إلي حد بعيد في مزيد من التقدير للإسلام من جانب أولئك الغربيين الذين لا يزالون ينظرون إلي ديننا بشك بلغ حد العداء، والذين يصرون بعناد على رفض مجرد التفكير في احتمال هبوط وحي إلهي حقيقي بعد عصر المسيح، لا سيما أن مثل هذا الوحي – بما يتسم به من وضوح وبساطة – يختلف اختلافًا جوهريًا عن الكتاب المقدس وما يحفل به من لاهوت زخرفي، وكذلك عن تجارب الغرب الدينية"!

و " مراد هوفمان " كدبلوماسي نهل من ثقافات متعددة، وتجارب هامة، أسهمت في إستكمال منظومته المعرفية، فاهتدي إلي الإسلام.. ويقول عن يومياته: " أنها ليست رصدًا زمنيًا لسيرة ذاتية حتى في تلك اللحظات التي تعكس فيها بصدق أحداثًا محدودة – مثلما حدث في مكة والمدينة، إن هذا الكتاب أقرب ما يكون إلي تصوير مراحل محدودة لتلك العملية العقلية المفضية إلي اعتناقه الإسلام".

لقاء مع محمد أسد:-

كان لقاء العملاقين اللذين عاشا تجربة رائعة تكاد تتشابه من أوجه كثيرة، انتهت بهما إلي اعتناق الإسلام.. منها على سبيل المثال: التعمق في الدراسات الاستشراقية، والدراسات المقارنة، الاهتمام بكل ما كتب عن الإسلام، رحلاتهما في كثير من بلاد العالم الإسلامي، دفاعهما عن عقيدتهما " الجديدة " والإمكانات المثالية التي تزخر بها تعاليم الإسلام.. وكان هذا اللقاء " التاريخي " في لشبونة، يوم ٢١ سبتمبر سنة ١٩٨٥، وفي انطباعاته عن ذلك اللقاء، يقول مراد هوفمان:

" في فندق – تريفولي – بلشبونه، كنا ننتظر بشوق لقاء محمد أسد وقرينته الأمريكية " بولا حميده ".. جاء يقود سيارته بنفسه وهو في سن الخامسة والثمانين، وتحدثنا أولًا بالألمانية – اللغة التي كان يتحدث بها في شبابه – ثم بالإنجليزية، ومع ذلك فقد كان على استعداد أيضًا لأن يشارك في المحادثة بالعربية والفارسية، والفرنسية والبرتغالية والاسبانية، والأردية!

ولقد طرحت عليه أسئلة كثيرة بالقدر الذي يخرج بي عن حدود اللياقة لكي أعرف المزيد عن خلفية إنجازاته العلمية والأدبية الرائعة في سبيل الإسلام، والتي حققها خلال معظم هذا القرن، وذكرته بالأمنية التي أعرب عنها في الثلاثينيات، وهي أن يشغل الإسلام الفراغ الناجم الذي سيخلفه رحيل الإلحاد الغربي والشيوعي عن مسرح الأحداث في حالة إفلاس روحاني.

ولقد تحققت نبؤته جزئيًا، حيث يأخذ النظامان في التداعي، ولكن خلافًا لما جاء في نبؤته، فإنه لم يتم الاعتراف بالإسلام كبديل، ذلك أنه ما من دولة إسلامية قد استطاعت أن تطور نفسها بطريقة تجعل الغرب ينظر إليها كنموذج مضاد مقنع وجذاب، بل الأمر على النقيض من ذلك!

ولكـن أسد، وبالرغم من تقدم سنه، لم يغرق نفسه في أحلام اليقظة، ولا استرسل في اجترار المرارة، كانت عيناه يقظتين ومدققتين، وتحليلاته عميقة ومنطقية كدأبها دائمًا، وإذا كان ثمة شيء متضارب في هذا السيد الرقيق الصوت ذي اللحية الصغيرة، فهو التناقض الظاهر بين إسهامه الهائل في إحياء الإسلام من ناحية، وبين تواضعه الشديد إلي حد إنكار الذات وطيبته المفرطة من ناحية أخرى، وليس ثمة أوهام تساور اسد في أن هناك الكثير جدًا مما يجب عمله حتى قبل أن تصبح الإنسانية مستعدة لقبول تحقيق تقدم استراتيجي للإسلام، وقال أنه ينتظر مني أن أتحمل شطرًا من المسئولية " أن الله مع الصابرين "وليس هناك على الله مستحيل"!

الطريق إلي مكة المكرمة :-

مـن بين ما سجله " مراد فريد " في يومياته.. انطباعاته عن رحلته إلي مكة المكرمة لأداء العمرة وزيارة المدينة المنورة حيث مثوى خاتم الأنبياء صلى الله عليه وسلـم:

جده في ١٨ ديسمبر ١٩٨٢ :

" فـي مكتب فحص الجوازات أخذ مسئول الجوازات السعودي الشاب يجيل نظراته متمعنًا عدة مرات ما بين تأشيرة الحج ووجوهنا حتى بدأ يساورني القلق بأن هناك شيئًا ما لا يتفق والإجراءات البيروقراطية المحكمة. ثم لاحظت الدموع تنساب على وجهه، وعلى غير انتظار مني وجدته يقفز منحنيًا من فوق " الكاونتر " محتضنًا إياي باعتباري أخاه في الإسلام ".

وكـم من مرة شهدت دموع الفرح هذه في وجوه المسلمين الشرقيين الوضاءة عندما يعرفون أني مسلم.

وإذا كان قد قدر للمسيحيين أن يفهموا مثل هذه المشاعر لأدركوا بشكل افضل فشل جهد التبشير المسيحي بين المسلمين.

أن المسلم – وإن كان مدقعًا، أو أميًا، أو لا يحفظ من القرآن سوى سورتي الفاتحة والإخلاص – لسوف يظل يشعر بأنه أوفر حظًا بكثير في مجال المعرفة الضرورية من غير المسلمين، لا سيما أولئك الذين يعتنقون أفكارًا تنوي على الشرك مثل " ابن الله "، و" أم الله "، و" الثالوث المقدس: الآب، والابن، والروح القدس، والخلاص عن طريق التضحية بالذات الإلهية، والأسرار المقدسة.

إن المسلم الفقير الأمي عندما ينطق بـ " لا إله إلا الله " ليشعر بالغبطة لاقتناعه بأنه بذلك خلف وراءه عصر الجاهلية وحتى لو لم يكن ذلك قد تم بالنسبة للآخرين ".

مكة المكرمة في ٢٠ ديسمبر ١٩٨٢ :

" دخلنـا المسجد الحرام – مرتدين ملابس الإحرام البسيطة البيضاء – مستقبلين الكعبة الكائنة في قلب رحبة داخلية فسيحة.. وإنها للحظة لا يجرء حتى المسلم أن يحلم بها قبل حدوثها

فعنـدمـا يشهد المرء بأم عينيه آثارًا معمارية أو طبيعية اعتاد على رؤيتها في الصور والأفلام، فأنه غالبًا ما يصاب بإحباط شديد عندما تأتي الحقيقة دون الخيال.

ولكن الأمر كان مختلفًا في هذه الحالة لـم يكن هناك ضجيج الأسواق حول هذا المسجد، ولا مناخ سحري قدسي حار. وكان كل شيء يبدو بسيطًا ينضح بالكبرياء والذوق الفني الرفيع. ولم يثر حشد الحجيج الضخم جلبة ما أو تزاحمًا بالمناكب. وإنما على النقيض من ذلك، ساد الإنسجام أثناء أدائه لصلاة الجماعة، في صمت مطبق يصون لكل امريء استقلاله الذاتي.كان هناك عشرة آلاف حاج وزائر يطوفون حول الكعبة صامتين.

وكم كان تأثير ذلك آخذًا بالألباب وغمرتنـا مشاعر دافقة بالترحيب والإحساس بالأمان التام بين إخواننا. هناك أدركنا معنى تحية " السلام عليكم " وقد بدت نابضة بالحياة حيث تتجسد الكرامة، والجمال والإيمان والأممية.

لقـد شعرنا بأننا مثل ذرات في وحدة كونية كبيرة، حيث تختفي في مكة الفوارق بين الأجناس. وخلال ركوعي في الصلاة فقط، أدركت من الأقدام المختلفة الألوان، أن كل الأجناس والقارات ممثلة هنا.

وتعـد الكعبة، كنموذج لأي شيء ثلاثي الأبعاد، في بساطتها المطلقة، رد الإسلام الأمثل على الحاجة إلي رمز مرئي لله. وإذا كان الله (سبحانه وتعالى) – على حد تعبير ابن سينا – هو البساطة في أوجها، فإن هذا المكعب المجوف والمجرد من الزينة هو أفضل ما يرمز الله من أي نموذج معماري آخر.

والكعبـة باعتبارها نقطة ثابتة وقبلة (يتجه إليها المصلي) تمثل مرساة مزية لديانة عالمية تعلم يقينًا أن الله ليس في الشرق أو في الغرب، وإنما يتجاوز كل قيود الزمان والمكان.

و تتضـاءل إزاء هذا الحل المعماري لـ"بيت اله" كل الكاتدرائيات المشيدة على الطراز القوطي، وكافة الكنائس المبنية على الطراز الباروكي لتصبح حليًا صغيرة تافهـة.

وبعـد أن طفنا سبع مرات حول الكعبة تحت قبة السماء المرصعة بالنجوم الساطعة – أية ديانة أخرى تبلغ بها البساطة حد أداء شعائرها في معابد مكشوفة ؟ - توقفنا عند الحجر الأسود الذي وضعه في مكانه محمد (صلى الله عليه وسلم) حيث انهال عليه الناس تقبيلًا وعويلًا.

ومـا من امريء قد يساوره مثل هذا الشك عندما يرى هؤلاء الحجاج في مكـة (على الرغم من رواج عبادة الأصنام المصنوعة من الأحجار في بلاد العرب في عصر ما قبل الإسلام). وعلى الرغم من إمكانية أن تتحر الرموز من الأفكار الكامنة وراءها، فأنها قد لا تفعل ذلك بالضرورة إن كل تكبيرة " الله أكبر " (أو كما ترجمها لورنـس العرب: " أن الله وحده هو الكبير ") لهي دليل حي يدحض الزعم بعبادة حجر أسود بسيـط.

أدينا منسك السعي الذي يرجع إلي عهود سحيقة – وهو الهرولة سبعة أشواط بين جبلي الصفا والمروة التؤمين، واللذين يقعان بجوار المسجد الحرام ويشكلان جزءًا منه – بمساعدة المطوف السعودي – ولابد أن يكون قد شق عليه أن يسمعنا ونحن نتعثر في نطق الابتهالات العربية بلهجتنا المروعة.

وفي اليوم التالي راودنا الأمل في أن نكون وحدنا ولو لمرة واحدة في هذا المسجد الآسر، فبالغنا في التبكير بالاستيقاظ، حوالي الساعة الثالثة صباحًا، وقبل الآذان الأول.

ولكن ذلك لم يجد، حيث كان مئات المسلمين يتدفقون ليل نهار بلا انقطاع للطواف، أو يصطفون منتظرين لمس أو تقبيل الحجر الأسود مرة أخرى.

وكان هؤلاء المسلمون، وهم يفعلون ذلك، يوثقون من أواصر علاقتهم الشخصية، ليس فقط بملايين المسلمين الذين جاءوا إلي هذا المكان من قبلهم (والذين سوف يحضرون في المستقبل إن شاء الله) وإنما بنبي الإسلام (صلى الله عليه وسلم) ذلك أنه عندما كان قد أصبح من المتعين إعادة بناء الكعبة للمرة الثانية بعد طوفان اجتاحها، كان محمد (صلى الله عليه وسلم) باعتباره وسيطًا بين الفرقاء، هو الذي وضع الحجر الأسود في مكانه الحالي في اركن الشقي من البناء.

إن هذا الوعي التاريخي خليق بدين ترجع شعائر الحج فيه إلي إبراهيم (عليه السلام) على امتداد فترة تزيد على ٣٨٠٠ عام، شريطة أن يكون الحاج على علم كاف بالمضامين التاريخية والرمزية للطقوس التي يؤديها بطبيعة الحال.

يوم عرفه

يستعد الحجيج فى ليلة التاسع من ذى الحجة، يوم وقفة عرفة، للوقوف فى عرفات، إذ إن "الحج عرفة"، فمن فاته "الوقوف" بعرفه، فاته "الحج" كله. فلا عجب إذن أن يشعر الجميع بشيء من الارتباك والقلق. نسألك يا ربنا أن تيسر أمورنا ولا تعسر منها شيئًا، يارب العالمين.

وها نحن أخيرًا، أكثر من مليونى حاج، يلتف كل منا بلباس أشبه ما يكون بـ:"الكفن" الأبيض، وكأننا نتوقع "يوم الحساب"، وكل منا يلبى: "لبيك اللهم لبيك!" من يا ترى فى الغرب يستطيع أن يستوعب هذا التكريس وهذا التفانى فى العبادة ؟

ويخطب الخطيب عند صلاة الظهر الخطبة ذاتها (بمفهومها) التى خطبها النبى صلى الله عليه وسلم فى خطبة الوداع عند الصخرات، قريبًا من جبل الرحمة فى عرفات، عام ٦٣٢م. كان معى فى الخيمة مسلم أمريكى؛ أستاذ إحصاء اقتصادى فى جامعة جورج واشنطن. وقد صلينا، وتأملنا، ثم صلينا، وتناقشنا، ثم صلينا، الساعة تلو الساعة.

كان الجو حارًا، وقد بلغت درجة الحرارة ٥٢°مئوية بحيث بدأ الهواء ذاته يهتز من شدة الحر.

وقد احترق جلد أسفل قدمى عند ذهابى إلى الحمام لقضاء حاجتى، ولم أصطحب مظلتى!... إلا أننى لم ألحظ ذلك. ويبدو أن المتمرسين بأعباء الحج يدركون أن العقبات والمصاعب الكبيرة أثناء الحج ليست سوى ترهات صغيرة فقط.

وبعد غروب الشمس، اتجهت خمسون ألف حافلة ركاب، ووصلت إلى "مزدلفة"، فى الوقت ذاته. وكانت النتيجة "زحام" عجيب جدير بأن يحتل مكانًا فى كتاب "جينيس" للسجلات العالمية!... ففى مزدلفة، حيث نتوقف هناك لأداء صلاتى المغرب والعشاء، هى مكان على بعد سبعة كيلومترات فقط من عرفات، إلا أننا استغرقنا اربع ساعات حتى وصلنا إليها. وقد وصلناها منهكين، جائعين، ونكاد نهلك من العطش. وقد بدأنا قبل كل شىء، متناسين تعبنا وإرهاقنا وعطشنا، بأداء صلاتى المغرب والعشاء جمعًا وقصرًا. ثم جمعنا عددًا من الحصى لرجم الشيطان فى منى، ثم انطلقنا نحو منى. وفيها، أدينا عبادة من أقدم العبادات، محاولين أن نعلن رفضنا الشخصى لكل ما هو شيطانى. ثم وجدنا أنفسنا خلال فترة وجيزة فى مكة مرة أخرى لأداء صلاة الفجر، حيث تمكنا من الوصول إلى مكة قبل الشروق بقليل.

لقد كنا متعبين منهكين إلى حد يفوق الوصف، إلا أننا كنا فى حال من السعادة والسرور بقدر يفوق الوصف أيضًا، وطفنا طواف الإفاضة، وهو الطواف قبل الأخير فى "رحلة الحج"، وأدركنا بهذا أننا أصبحنا "حجاجًا ". وتأملت الكعبة المشرفة، (زادها الله تشريفًا وتعظيمًا)، هذا البيت الذى يعبر عن "التوحيد" بأجلى معانيه، ولا ينافسه فيه بيت على وجه المعمورة، وقد تجلت الكعبة المشرفة ببهاء معمارى أخاذ كامل ببساطة بنائها وليس بتعقيده أو زخرفته.

وبعد ستة وعشرين ساعة من الوقوف والعبادة والحركة المستمرة، وصلنا فى نهاية المطاف إلى مخيم مؤقت للإقامة فى منى ثلاثة أيام يهنىء بعضنا بعضًا، ويبـارك

بعضنا لبعض سائلين الله العلى القدير أن يقبل حجنا وعبادتنا. وعندما استيقظت كان الوقت قد حان لرجم "الشيطان" للمرة الثانية خلال الحج.

في المدينة المنورة

إن مـن شهد الاحتفالات الليلية البالغة الحماس بالمولد النبوي في المساجد وقد غمرتها الأضواء من داخلها وخارجها، وشابت مراسمها بعض الطقوس ذات الصبغة الكهنوتية، سيؤخذ بمظاهر الحزم التي تسعى الشرطة الدينية السعودية في المدينة من خلالهـا إلي ضمان عدم قيام أي شخص بأداء فريضة الصلاة في مواجهة قبر النبي. وتكفل هذه اليقظة من جانبهم ألا يصلى الناس في يوم مولده وبالقرب من قبره، سوى النوافـل.

وليـس للمرء أن ينتقد هذا السلوك إذا ما أدرك ما حدث بعد وفاة المسيح من عملية بدأت

بالإعجاب به وإنتهت بتأليهه، ويسعى الإسلام إلي كبح جماح مثل هذه الاتجاهات قبل استشرائها .

تـوجهنـا في المساء سيرًا على الأقدام إلي الحرم النبوي، والذي لمست بعض المبالغة في زخارفه – للمشاركة في صلاة المغرب، وكـان علي ان افترق عن زوجتي التي اختفت بين مئات النسوة ذوات المظهر المتماثل، حيث كن جميعًا محجبات ويرتدين عباءات سوداء متشابهة. ثم انتظرتها بعد ذلك تحت أحد مصابيح الطريق حتى تصطحبني، مدركًا مدى التغير الشامل الذي طرأ على أدوارنا – عاداتنا – (حيث كان البديل، وهو قيامي بمحاولة التعرف على زوجتي، أمرًا محفوفًا بالمخاطر الجسيمة في بلد لا يستطيع الرجال فيه مخاطبة النساء).

لم نستطع أن نزور القسم التاريخى الصغير فى المسجد: "الروضة" النبوية الشريفة، إلا حوالى منتصف الليل، عندما فرغ المسجد من أكثر المصلين. وقد كانت هذه الروضة الشريفة، خلال عهد النبى صلى الله عليه وسلم تحيط بها بيوت أزواجه؛ أمهات المؤمنين. وقد دفن حبيبنا صلى الله عليه وسلم فى حجرة أم المؤمنين عائشة، رضى الله عنها، وقد دُفن معه وزيراه، وصاحباه الكريمان أبو بكر الصديق وعمر بن الخطاب رضى الله عنهما. وهنا، حيث عاش الحبيب صلى الله عليه وسلم، وعمل، وخطب، وأحب، ومات، نجد كثيرًا من الحجاج يُجهشون بالبكاء، ولا يستطيعون تمالك أنفسهم على الإطلاق. ألم يحلموا سنوات طويلة أن يأتوا ليزوروا الرجل الذى غيرت رسالته حياتهم ؟

لقد أصبح المسجد النبوى الآن متاخمًا تمامًا لحدود جدار مقبرة البقيع؛ المقبرة الإسلامية التاريخية، بل المقبرة التى تضم عددًا كبيرًا من آله الكرام، رضى الله عنهم وأرضاهم، وأصحابه الغر الميامين، رضى الله عنهم (بما فى ذلك: عثمان بن عفان رضى الله عنه، وفاطمة الزهراء رضى الله عنها، وعائشة الصديقة بنت الصديق؛ أم المؤمنين رضى الله عنها وأرضاها). وقد درست معالم هؤلاء الصحابة والآل الكرام بطريقة لا يعرف مواقعهم فيها إلا الخبراء، حيث لا يمكن تعريف قبور الأفراد فى هذه البلاد. ولا شك أن هذه طريقة جوهرية غير مسبوقة لإزالة عبادة الأشخاص وتقديسهم من قلوب الناس!

الإسلام في الألفية الثالثة :-

وعـن أحدث مؤلفاته يقول مراد هوفمان: كتاب " الإسلام في الألفية الثالثة " هو دعوة للمجتمع الغربي إلي اعتناق الإسلام الذي يشمل الحلول الشافية لما يواجهه هذا المجتمع الآن من مشكلات اجتماعية وثقافية مستعصية وقد سرت في هذا الكتاب الجديد على نفس النهج الذي اتبعته في كتاب " الإسلام كبديل " الذي يعتبر من " أجرأ " ما نشر باللغة الألمانية وأحدث ضجة لفتت الأنظار إليه داخل ألمانيا وخارجها عندما نشر عام ١٩٩٢ م، فهو لم يعرض بعض

جوانب الإسلام عرضًا تقليديًا، ولم ينطلق من منطلق الدفاع عنه تجاه ما يتعرض له من صور عدائية، بل يطرحه باعتباره البديل الضروري والأفضل مما يعتنقه المجتمع الغربي من تصورات في مختلف الميادين.

وقد خطوت بهذا الكتاب الجديد خطوة أخرى في تقديم الإسلام كبديل، فهو يؤكد عبر الحوار المنهجي المتوازن أن الإسلام فيه الحلول لما يواجهه المجتمع الغربي الآن من مشكلات اجتماعية وثقافية مستعصية عجزت الأنظمة الوضعية عن حليها.

وعن موقف الإسلام عقب أحداث سبتمبر، قال بأن الإسلام سينتشر في الغرب على نطاق واسع بالرغم من التحولات والتطورات التي أعقبت الحدث.. فهناك إقبال هائل على معرفة وفهم الإسلام في أوروبا وأميركا...

وهناك مؤشر إيجابي يتمثل في الطلب المتصاعد على المؤلفات الإسلامية، وأوروبا ليست وحدها التي تشهد هذه الظاهرة. فالأمر ملموس في أمريكا أيضًا، ولقد لاحظنا أن الطلب على ترجمات معاني القرآن الكريم بعد الحادي عشر من سبتمبر قد قفز بنسبة الف في المائة، ونفذت العناوين الإسلامية من متاجر الكتب بعد أسبوع واحد من حوادث نيويورك وواشنطن.

ولكن يجب أن نعلم أن كثيرًا من الناس لم يشتروا هذه الكتب من باب تأييد الإسلام وإنما بداع الخوف، فقد أرادوا أن يعرفوا من هم هؤلاء وكيف سيتصرفون معهم. ولكن ذلك لا يجعلنا نستبعد أن يفضي الأمر إلي مزيد من المعرفة، وبالتالي إلي اتخاذ مواقف أكثر إيجابية، فالإسلام حاضر في وسائل الإعلام الغربية بشكل هائل، إذ يندر أن نفتح صحيفة أو ننقر على مفتاح قناة تلفزيونية دون أن يظهر لنا موضوع إسلامي.

ويجب أن نعلم أن العقلية الأوروبية لا تزال محكومة بذكريات الحروب الصليبية، فالكنيسة الكاثوليكية لم تغير وجهة نظرها السلبية تجاه الإسلام بصورة كاملة، والإعلام الغربي يؤدي دورًا كبيرًا في تشويه صورة الإسلام ومهاجمته، والغربيون ينساقون وراء هذا الإعلام، ويخافون على حضارتهم الغربية من حضارة الإسلام، ويتخوفون من الزيادة المضطردة للمسلمين في الغرب.

ولا نستطيع أن نحمل الجاليات المسلمة في الغرب مسئولية تصحيح هذه الصورة المشوهة التي تراكمت في أذهان الغربيين عن الإسلام عبر سنوات طويلة وأحداث كثيرة، ولكن الأمر يحتاج إلي استراتيجية متكاملة يتعاون من خلالها قادة المسلمين في الغرب وعلماؤهم مع الهيئات والمؤسسات الإسلامية داخل العالم الإسلامي وخارجه، وذلك لمواجهة الإعلام الغربي، ونشر صورة الإسلام الصحيحة من خلال حملات إعلامية ضخمة، والاستعانة بشبكة الإنترنت لنشر الإسلام وتوضيح صورته الحقيقية للعالم كله وبمختلف اللغات، وإقامة حوار عن الإسلام في وسائل الإعلام الغربية وفي الندوات والمؤتمرات...

و لابـد أن نعلم أن لديننا ربًا يحميه، فصورة المسلمين اليوم وما يفعله بعض المتشددين يصدم العقلية الغربية في الإسلام، ورغم ذلك فإن الله بيده كل شيء، فمن كان يصدق أن شخصًا مجرمًا مضللًا للإنسانية مثل " مالكوم اكس " سيتحول للإسلام في أمريكا، ويعود من مكة داعية للإسلام، ويقطع صلته بالإجرام والإرهاب، ويتسبب في دخول آلاف الأمريكيين في الإسلام.

ولكنـي أقول إن الله سيظهر دينه، وسينتشر أكثر وأكثر، وسيكون الإسلام هو دين البشرية مستقبلًا، أو كما قلت سابقًا في كتبي ومؤلفاتي: " الإسلام هو الدين البديل والأقوى اليوم للبشرية الغربية التي تعاني وتعاني بقسوة، وتبحث عن بديل ولن تجده إلا في الإسلام، وأعتقد أن المستقبل مملوء بالتفاؤل والأمل الكبير لإسلامنا "!

ومما يثير الدهشة أن د. مراد هوفمان تحدث مبكرًا عن "انفلونزا الخنازير" وقبل أن يسمع به أحد فى العالم، عندما كتب بتاريخ ١٤ سبتمبر عام ١٩٨٣ فى كتابه: الرحلة إلى الإسلام ص ١٢٤ " ألا يكفى أن نعلم أن فيروسات مرض الانفلونزا الخطير تتمكن من العيش خلال فصل الصيف باستضافة الخنزير لها فى جسمه ؟ على ما يبدو، لم يدرك الناس هذه الأمور ادراكًا كاملًا بعد حتى الآن"!!

خاتمة

الرحلة هى "عين الجغرافيا المبصرة" وهى جزء أصيل من حركة الحياة على الأرض، وكما لعبت الرحلة دورها فى حركة الكشوف الجغرافية، فقد حققت نوع من الإتصال الحضارى بين الشعوب وإكتساب المعرفة بالآخر، خاصة فيما يتعلق باللغة واللهجات والتقاليد المتوارثة وأنماط الحياة.

ولقد قام عدد من الرحالة الغربيين بزيارات إلى المشرق الإسلامى، فى مختلف العصور وبمختلف الأدوار، وتسنى لكثير منهم ـ ممن أسلموا أو تظاهروا بالإسلام ـ الدخول إلى المدينتين المقدستين "مكة المكرمة" و"المدينة المنورة" وأكثرهم كانوا من أبرع الكتاب وأدق الباحثين.. وأيضًا الجواسيس!.. وطلائع الإختراق الغربى لمجتمعاتنا الإسلامية مازالت تمثل فصلًا من أخطر فصول اللعبة الكبرى!.. وما بدأه هؤلاء المغامرون مازال مستمرًا إلى اليوم بأقنعة جديدة وللأهداف القديمة نفسها[1]!

وإن تظاهر أكثرهم بالإسلام، فإنى أستثنى من بين هؤلاء عدد من الرحالة والمستشرقين العظام وعلى رأسهم: محمد أسد، عبدالكريم جرمانوس، ناصر الدين دينيه، مراد هوفمان... وغيرهم ممن حَسُن إسلامهم وكانوا من خير وأعظم المدافعين عن عقيدة الإسلام.

وهؤلاء الرحالة جميعهم تأثروا بسحر الحياة العربية، وعندما غادروا إلى بلادهم حملوا معهم بيئة الصحراء، وظلوا ينظرون إليها بشوق!.. وجميعهم كانوا يبحثون عن الينابيع الداخلية الدفينة فى أعماقهم وهم يخوضون غمار غرابة عالم آخر مختلف تمامًا، بعضهم أبدى بعض التفهم وبوعى للصورة الكلية أو فى جوانب منها..

ومثلت المدينتان المقدستان مطمحًا للمغامرين والرحالة الغربيين، وبعضهم دخلهما متنكرًا فى مواسم الحج، فقد كان ذلك لأهمية الحرمين الشريفين فى التاريخ والواقع الإسلامى والتطلع لمعرفة الأثر العظيم لهذا البقاع المقدسة فى تاريخ الإسلام والإنسانية، وهؤلاء الرحالة وهم

---

(١) يراجع الدراسة القيمة: المتظاهرون بالإسلام – طلائع الإختراق الغربى، حسن السعيد، دار الهادى للطباعة والنشر، بيروت، ١٤٢٨هـ/ ٢٠٠٧م.

يصفون إنطباعاتهم ومشاهداتهم فى الحرمين الشريفين ـ موضع شوق المسلمين وتوقهم على مدى قرون طويلة ـ فقد حاولوا جمع ملامح وتفاصيل صورة مكتملة إجتمع فيها بشر من مختلف شعوب الأرض، متعددى اللغات والجنسيات والألوان، وجميعهم شاهدوا مزارات إسلامية كثيرة، رصعتها أيد مبدعة بكل روائع الفن، إلا أنهم جميعًا لم يشعروا برهبة أمامها مثلما شعروا أمام "الكعبة المشرفة" على الرغم من بساطتها المطلقة!

ومن اللحظة التى ولدت فيها مكة المكرمة كان إتصالها بالناس والحياة، وكان إقبالها على "الآخر" الذى أشرعت له أبوابها وكأنها وهى واد غير ذى زرع أرست نموذجًا مثاليًا للمدينة الكونية، فهى لا توصد هذه الأبواب فى وجوه الغرباء الذين عرفتهم، وآنست لهم، وهى أم القرى التى يكمن فى نماءها وحياتها ذلك التجاذب بين الوجوه والأمكنة، وكان لها مع كل زائر حكاية.. حتى حوت فى ذاكرتها كل الحكايات التى لا تنتهى!

ببليوجرافيا

المراجع والمصادر العربية :-

(١) اتيين دينيه: محمد رسول الله، ترجمة: د. عبد الحليم محمود، د. محمد عبد الحليم دار الكتاب اللبناني، بيروت، ١٩٩٠م.

(٢) د. أحمد زكي: مكة والمدينة ومن زارهما من الأفرنج، مجلة الهلال، عدد أكتوبر / نوفمبر، ١٩١٩، القاهرة.

(٣) إدوارد سعيد: الاستشراق المعرفة. السلطة. الإنشاء، ترجمة: كمال أبو ديب، مؤسسة الأبحاث العربية، بيروت، الطبعة العربية الثانية، ١٩٨٤م.

(٤) أسعد عيد الفارس: الرحالة الغربيون في شبه الجزيرة العربية، أهدافهم وغاياتهم، بحوث ندوة الرحلات إلي شبه الجزيرة العربية، دارة الملك عبد العزيز، الرياض ١٤٢٤ هـ، الجزء الأول، ص ٥٥٥ - ٦٠٢.

(٥) بتس، جوزيف: رحلة جوزيف بتس إلي مصر ومكة المكرمة والمدينة المنورة، ترجمة: د. عبد الرحمن عبد الله الشيخ، الهيئة المصرية العامة للكتاب، الألف كتاب الثاني - ١٨٩ - القاهرة، ١٩٩٥م.

(٦) د. بلقاسم سعد الله: رحلة ليون روش إلي الحجاز ١٨٤١ - ١٨٤٢، بحوث ندوة الرحلات إلي شبه الجزيرة العربية، دارة الملك عبد العزيز، الرياض، ١٤٢٤ هـ الجزء الأول، ص ٢٤٧ - ٢٨٢.

(٧) بوركهارت، جون لويس: رحلات في شبه جزيرة العرب، ترجمة: د. عبد العزيز الهلابي، د. عبد الرحمن الشيخ، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٤١٣ هـ/ ١٩٩٢ م.

(٨) بيرتون، ريتشارد، رحلة بيرتون إلي مصر والحجاز، ٣ أجزاء، ترجمة وتعليق: د. عبد الرحمن عبد الله الشيخ، الهيئة المصرية العامة للكتاب، الألف كتاب الثاني ١٦١، ١٧٦، ١٧٧، القاهرة، ١٩٩٤ - ١٩٩٥م.

(٩) بيرن، جاكلين: اكتشاف جزيرة العرب، ترجمة: قدري قلعجي، تقديم: الشيخ حمد الجاسر، دار الكاتب العربي، بيروت، مكتبة النهضة، بغداد، ١٣٨٣ هـ / ١٩٦٣ م.

(١٠) تاميزييه، موريس: رحلة في بلاد العرب - الحجاز، ترجمة وتعليق: د. محمد بن عبد الله آل زلفة، دار بلاد العرب للنشر والتوزيع، الرياض، ١٤٢١ هـ / ٢٠٠١ م.

(١١) حمد الجاسر: رحالة غربيون في بلادنا، دار اليمامة للبحث والترجمة والنشر، ١٤١٧ هـ.

(١٢) الرحلات إلي شبه الجزيرة العربية، بحوث ندوة الرحلات إلي شبه الجزيرة العربية المنعقدة في الرياض من ٢٤ - ٢٧ رجب ١٤٢١ هـ / ٢١ - ٢٤ أكتوبر ٢٠٠٠ - جزءان، إصدارات دارة الملك عبد العزيز (١٣٣) الرياض ١٤٢٤ هـ.

(١٣) ريزفان، يفيم: الحج قبل مائة سنة، الصراع الدولي على الجزيرة العربية والعالم الإسلامي الرحلة السرية للضابط الروسي عبد العزيز دولتشين إلي مكة، دار التقريب بين المذاهب الإسلامية، بيروت، ١٤١٤ هـ / ١٩٩٣م.

(١٤) زيمه، البرت: شبه الجزيرة العربية في كتابات الرحالة الغربيين في مائة عام (١٧٧٠ - ١٨٧٠)، ترجمة: غزي عبد الرحيم شنيك، مكتبة الملك عبد العزيز، الرياض، ١٤١٩ هـ.

(١٥) سمير عطا الله: قافلة الحبر، الرحالة الغربيون إلي الجزيرة والخليج ١٧٦٢ - ١٩٥٠ م، دار الساقي، بيروت، ١٩٩٤ م.

(١٦) د. عبد الرحمن بدوي: موسوعة المستشرقين، دار العلم للملايين، الطبعة الثالثة، بيروت، ١٩٩٣ م.

(١٧) د. عبد الحليم محمود: أوروبا والإسلام، دار المعارف، القاهرة، الطبعة الثالثة، ١٩٨٦ م

(١٨) عبد الرحمن عبد الله الشيخ: لود فيكو دي فارتيما " الحاج يونس المصري " الرحالة الإيطالي والعميل البرتغالي ورحلته إلي الأراضي المقدسة سنة ١٥٠٣، مجلة جامعة الملك سعود، المجلد الرابع، ج ٢، الرياض، ١٤١٢ هـ / ١٩٩٢.

(١٩) عرفه عبده علي: دار الهجرة.. في عيون الرحالة الغربيين، مجلة " الحج والعمرة " - المملكة العربية السعودية، العدد الثالث، السنة الثامنة والخمسون، ربيع الأول ١٤٢٤ هـ / مايو ٢٠٠٣ م.

(٢٠) فارتيما، لودفيكو: رحلات فارتيما (الحاج يونس المصري)، ترجمة وتعليق: د.عبد الرحمن عبد الله الشيخ، الهيئة المصرية العامة للكتاب - الألف كتاب الثاني - ١٣٤ - القاهرة، ١٩٩٤ م.

(٢١) كراتشكوفسكي، اغناطيوس: تاريخ الأدب الجغرافي العربي، ترجمة: صلاح الدين عثمان هاشم، الإدارة الثقافية بجامعة الدول العربية، لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، ١٩٦٣ م.

(٢٢) كوبولد، ايفلين: الحج إلي مكة، جريدة السياسة، العدد ٥٩٥، السنة الثالثة عشر، ٢ يناير سنة ١٩٣٥، القاهرة.

(٢٣) كورتلمون، جيل جرفيه: رحلتي إلي مكة، ترجمة: د. محمد محمد أحمد الحناس مؤسسة التراث، الرياض، ١٤٢٣ هـ/ ٢٠٠٢ م.

(٢٤) محمد أسد: الإسلام على مفترق الطرق، ترجمة: د. عمر فروخ، دار العلم للملايين، بيروت، الطبعة الثامنة، ١٩٧٤ م.

(٢٥) محمد أسد: الطريق إلي مكة، ترجمة: عفيف البعلبكي، بيروت، ١٩٥٦م.

(٢٦) محمد حسين زيدان: رحلات الأوروبيين إلي شبه الجزيرة العربية، إصدارات دارة الملك عبد العزيز، الرياض، ١٣٩٧ هـ.

(٢٧) مراد هوفهان: الإسلام في الألفية الثالثة ديانة في صعود، تعريب: عادل المعلم، يس إبراهيم، مكتبة الشروق، القاهرة، الطبعة الأولى، ٢٠٠١ م.

(٢٨) د. معراج نواب مرزا، د. محمد محمود السرياني: دوافع رحلة سنوك هورجرونيه وقيمتها العلمية بوصفها مصدراص من مصادر تاريخ شبه الجزيرة العربية، بحوث ندوة الرحلات إلي شبه الجزيرة العربية، الجزء الثاني، ص ٦٠٥ - ٦٣٧

(٢٩) هورجرونيه، سنوك: صفحات من تاريخ مكة المكرمة في نهاية القرن الثالث عشر الهجري، تعريب: محمد السرياني، معراج مرزا، منشورات نادي مكة الثقافي الأدبي، ١٤١١ هـ.

المراجع والمصادر الأجنبية :-

(1) Al Saleh, Fadia Saud: Travels to Arabia during the Reign of King Abdulaziz. Conference on the Kingdom of Saudi Arabia, 100 years.

(2) Ankawi, A.: The Pilgrimage to Mecca in Mamluk Times, Arabian Studies, I, 1974, P. 146 - 170.

(3) Arkoun, M., Guellouz, E., Frikha, A.: Pelerinage a la Mecque, Lausanne, Paris and Tunis, 1977.

(4) Asad, Muhammad: Thr Road to Mecca, Simon and Schuster, New yourk, 1954, Second reprint: Islamic Book Trust, Kuala Lampur, Malaysia, 1999.

(5) Azmat Sheikh: The Holy Mecca and Medina - Saudi Arabia, Lahore, 1980.

(6) Beckingham, C.F.: Dutch Travellers in Arabia in the XVII the Century, JRAS, 1951, P. 64 - 81.

(7) Bidwell, Robin: Travellers in Arabia, Garnet Publishing Limited, Berkshire, 1994.

(8) Burckhard, J.: Travels in Arabia, London 1968, Reisen in Arabien, Waimar 1830, Neudruck, stuttgart, 1963.

(9) Burton, R.: Personal Narrative of a Pilgrimage to El Madinah and Meccah, 2 vol, London , 1907.

(10) De Geayu, G.: Rulers of Mecca, London, 1951.

(11) Denise, B.: La Vie et l'Oeuvre de Etianne Dinet, Les Orientalistes, vol2 , ACR edition, Paris 1991.

(12) Dickson: The Arab of Desert , Geroge Allen a unuin Ltd, London , 1972.

(13) Dinet, Nacir ed dine and El-Jadj Sliman ben Ibrahim: Le Pelerinage de la Maison Secree d' Allah, 2 Vols, Paris, 1962.

(14) Duguet, F.: Le Peleringe de La Mecaue, Paris , 1932.

(15) Drdmann, Kurt: Ka'bah - Fliesen, Ars Orientalis, 3, 1959, P. 192 - 7.

(16) ESIN, E.: Mecca the Blessed and Madinah the Radiant, Italy, 1944.

(17) ESIN, Emel: Mekka und Medine, trans. By Eva Bornemann, Frankfurt, 1963.

(18) Ettinghausen, R.: Die bildlich Darstellung der Ka'aba in Islamischen Kulturkreis, ZDMG, 1932, P. 111 - 137.

(19) Faroqhi, Suraiya: Pilgrims a Sultans the Hajj under the Ottomans 1517 - 1683 I.B. Touris a coltd, London , 1990.

(20) Farsi, Z.,M.: Makkah al Mukarramah, City and Hajj Guide, Jeddah, 1408 / 1987.

(21) Gervais - Courtellement: Mon Voyage a la Mecque, Paris, 1896.

(22) Ghazy Makky: Mecca , the Pilgrimage city, Astudy of Pilgrim Accommodation, London , 1978.

(23) Hamza, Ahmed: The History of the Prophet's Mosque, the Islamic Review, XXXIX, No 7, 1951.

(24) Hurgronje, C.S.: Mekka in the latter Part of the 19 th Century, Daily life, Customs and learning, trans. By J.H. Monahan, London and leiden, 1931.

(25) Hurgronje, Ch.S.: Een Mekkaansch gezantschap naar Atjeh in 1883, in Verspreide Geschriften, 7 vols, Bonn and leipzig, 1923.

(26) Jones, John Winter: The Travels of Ludovico di Varthema in Egypt, Syria, Arbia Deserta and Arabia Felix, in Persia, India and Ethiopia , A.D. 1503 to 1508, London , 1863.

(27) Keane, J.F.: Six Mohths in Mecca London, 1881.

(28) Korte, Karl, Sch.: Johann Wild - the first German in Mekka and Medina, 1604 - 1611, English Research, P. 58 - 60

(29) Long D.E.: The Hajj today, A Survey of the Contemporary Makkah Pilgrimage, Albany, Ny, 1979.

(30) Long, D.E.: International health aspects of the Hajj, Sources for the History of Arabia, Part 2 , Riyad Univ. Press, 1977, P. 183 - 195.

(31) Ochsenwald, W.: The Hijaz Railroad, Charlottesville, Virginia, 1980.

(32) Peters, F.E.: Mecca, A literary History of the muslim Holy land. Bulletin Critique, Supplement aux Annales islamologiques, T. 13, IFAO, Le Caire, 1997.

(33) Pitts, Joseph: An Account by Joseph Pitts of his Journey from Algiers to Mecca and Medina and back , ed by Sir William Foster CIE, London , 1949.

(34) Ralli, A.: Christians at Mecca, London , 1909.

(35) Roches, Leon: Trente - deux ans a travers l'Islam (1832 - 1864) 2 Vols, Paris, 1887.

(36) Rutter, E.: The Holy Cities of Arabia, London, New York, 1930 - 2. First Publ. 1928.

(37) Stephane, Y.: Les Voyageurs dans l' empire ottoman (XIVE - XVIE Siecles) Conseil Suprene d'Ataturk pour Culture, Publications de la Societe Turque D'Histoire, Serie VII, Ankara, 1991.

(38) Strika, V.: A Ka'ba Picture from Mosul Sources for the History of Arabia, Part2 , P. 145 - 148.

(39) Varthema, L.: The travels of ludovico di Varthema, ed. By john W. Jones, G. Percy Badger, Hakluyt Society I , Series No xxxII, New York, 1863.

(40) Veinstein, G.: les Pelerins de la Mecque a travers quelques actes du Qadi de Sarajevo, 1557 - 1558, Turcica, XXI - XXIII , 1991 , P. 473 - 494.

(41) Wild, Johann: Reysbeschreibung eines gefangenen christen Anno 1604,

trans. And introduced by Georg A. Narciss and Karl Teply, Stuttgart, 1964.

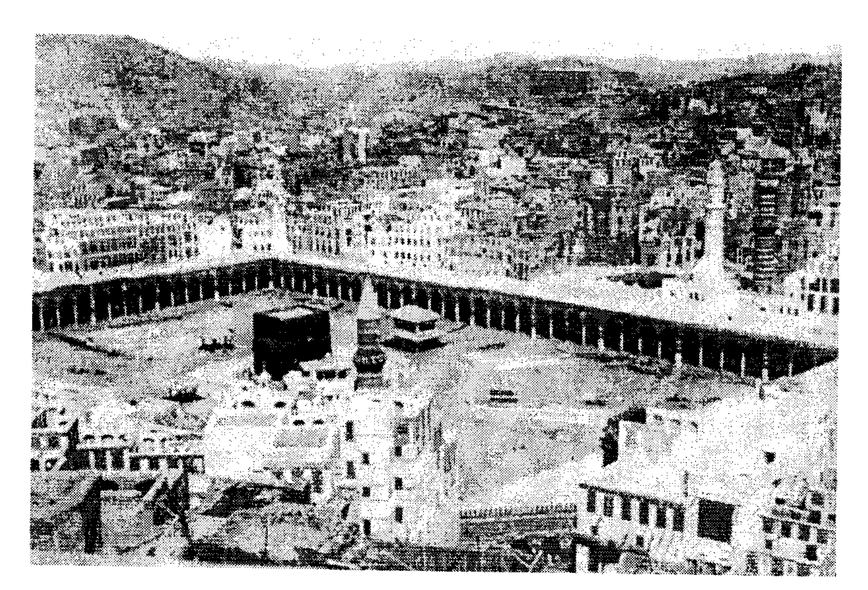
(42) Wavell, A.: A Moderm Pilgrim in Mecca, London, 1912.

(43) Wellested, J.R.: Travels in Arabia, 2 vols, John Murray, London , 1838.

(44) Winder, R.B.: Saudi Arabia in the Nineteenth Century, St. Martin's Press, New York, 1965.

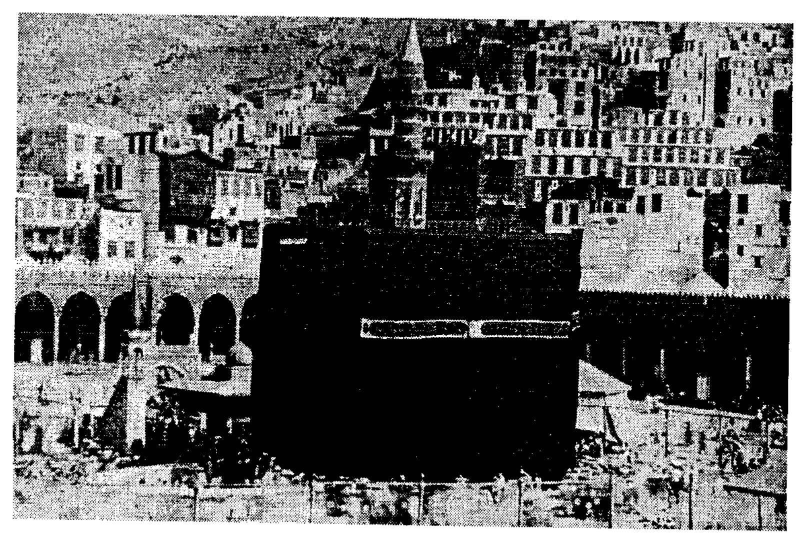


ملحق الصور

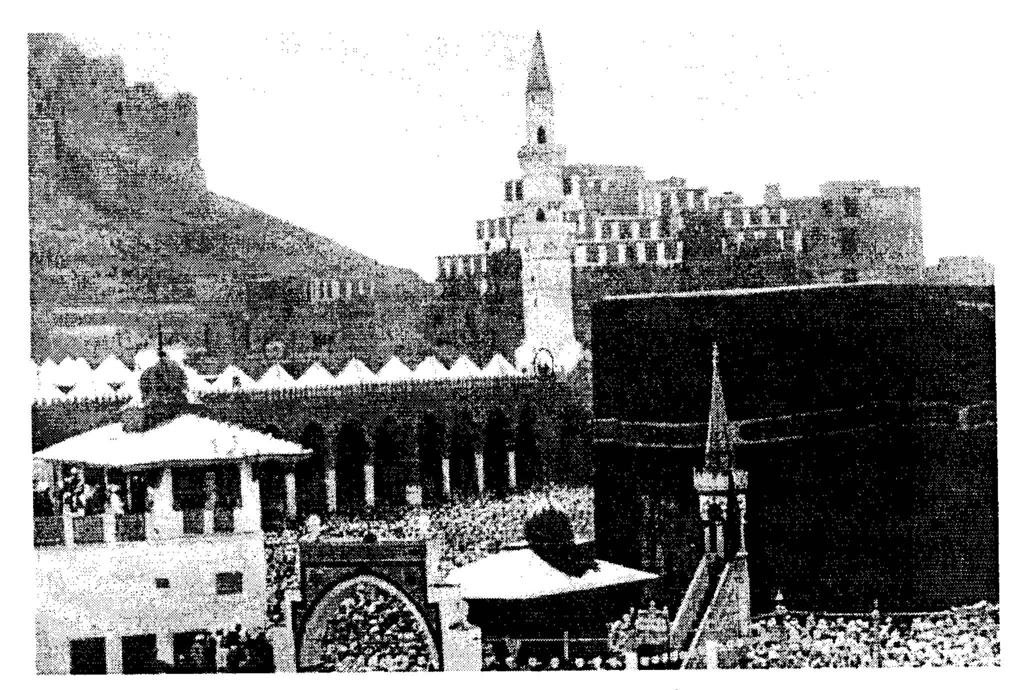


أول صور للحرمين الشريفين
التقطها محمد صادق بك عام 1880

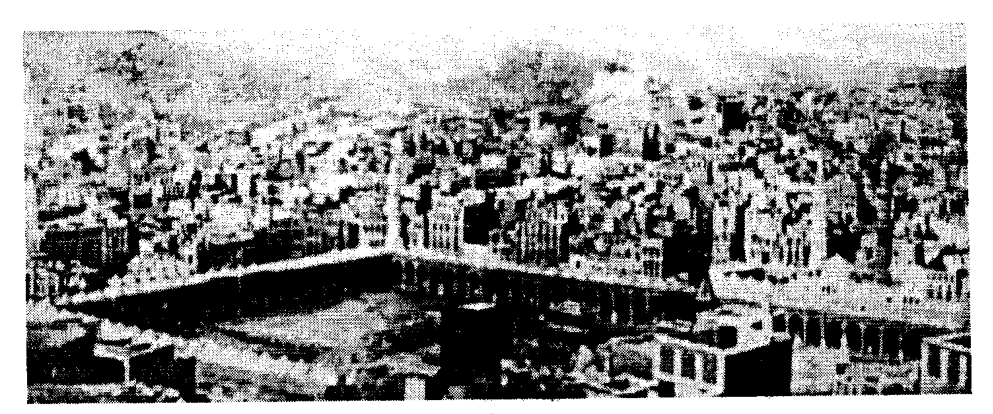
1- منظر عام للحرم المكي من فوق جبل أبي قبيس



2- الكعبة المشرفة



3- الكعبة وجانب من الحرم المكي من أعلى باب السلام



3- منظر عام آخر للحرم المكى



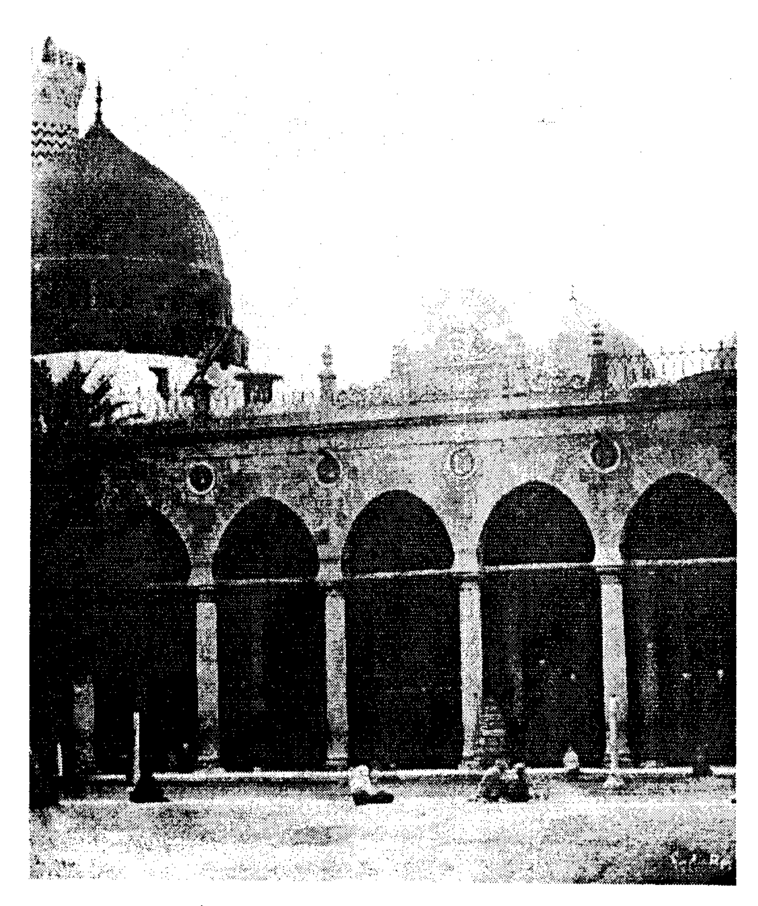
4- باب الصفا - أشهر أبواب الحرم المكي



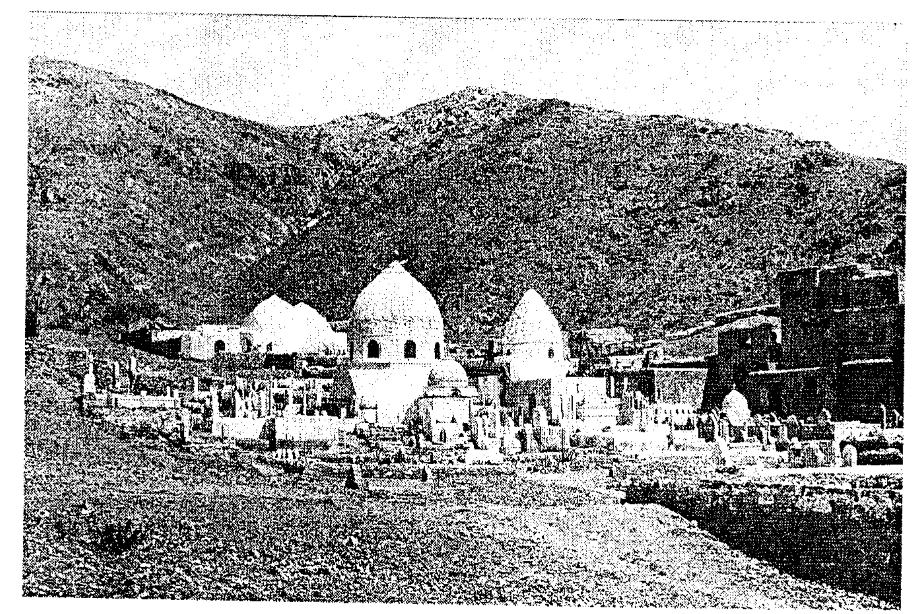
5- مخيم الحجيج في منى



6- منظر عام للمدينة المنورة



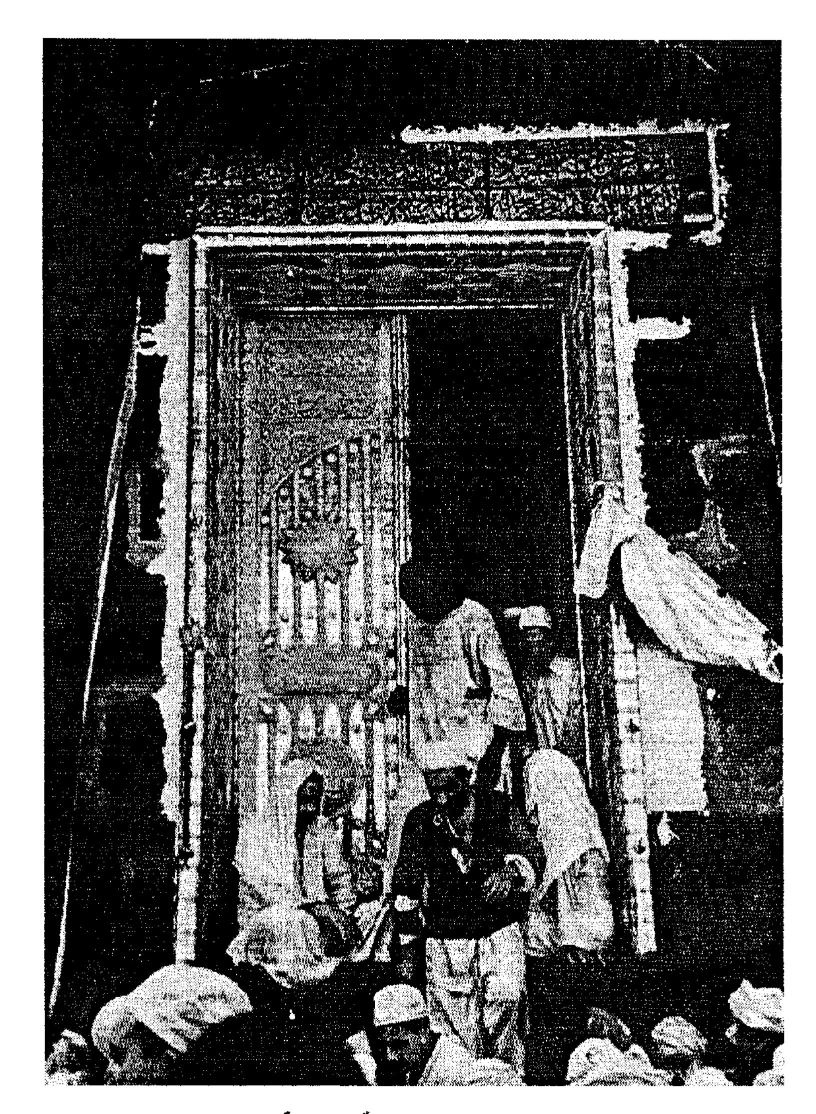
7- جانب من صحن المسجد النبوى وبستان فاطمة



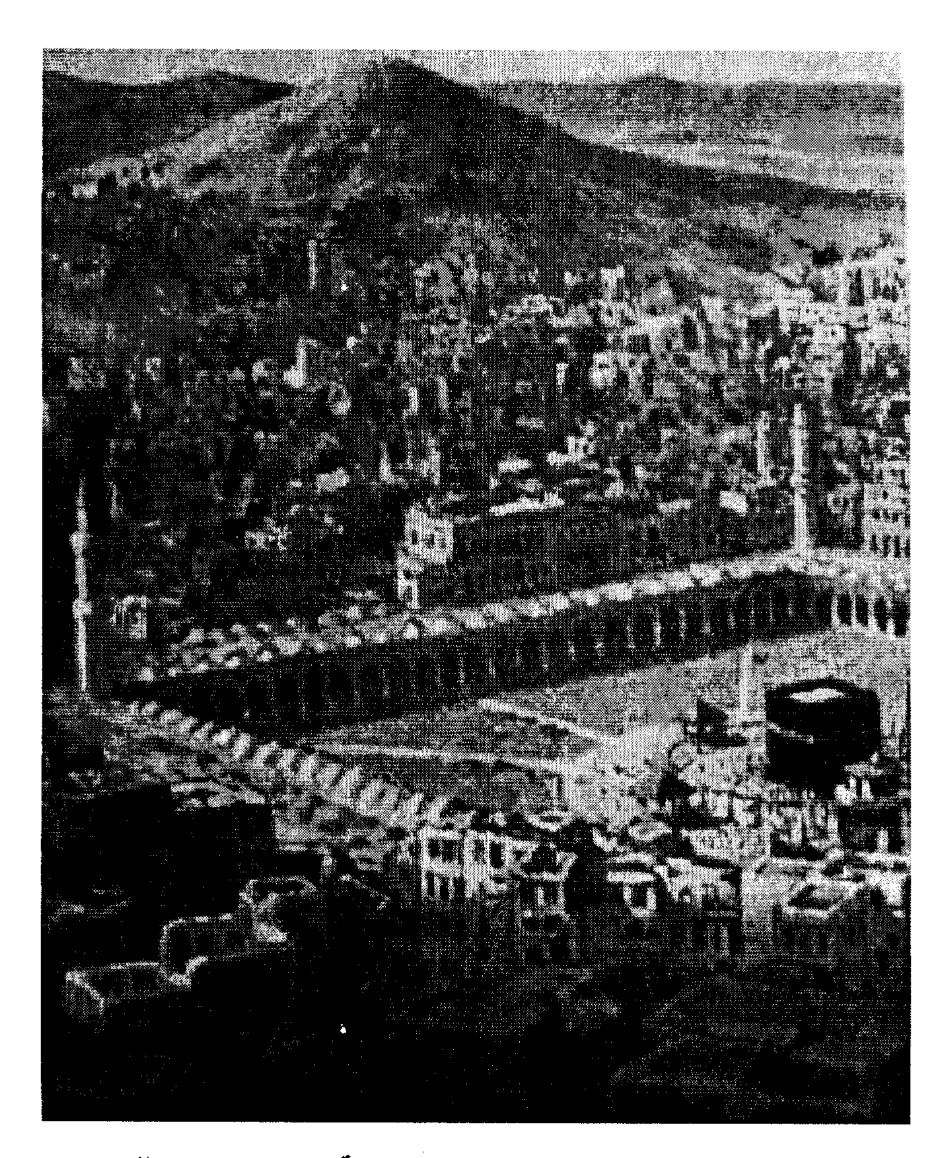
8- مقبرة المعلاة بمكة المكرمة



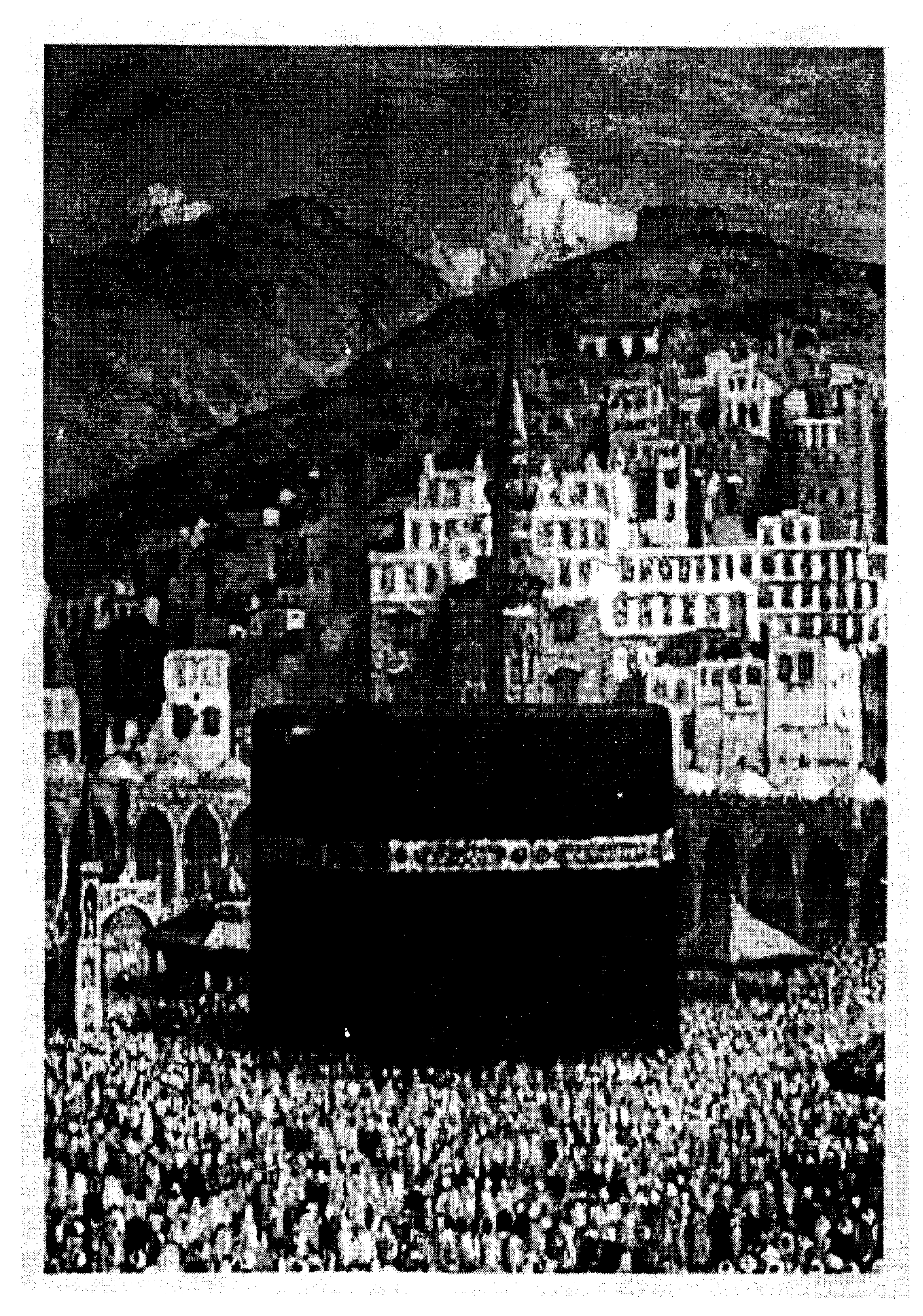
إسدال الكسوة الجديدة على الكعبة المشرفة - 1900



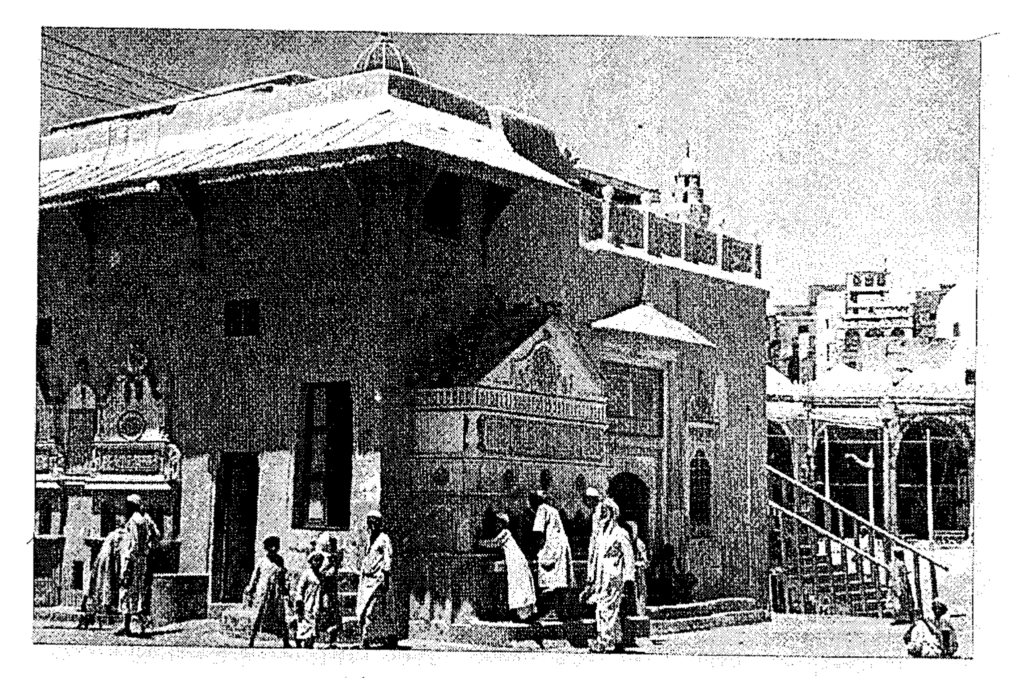
الباب الذهبي للكعبة المشرفة



الحرم المكي وجبل ابي قبيس - من ابداعات الفنان دينيه



الكعبة المشرفة بريشة ناصر الدين دينيه



بئر زمزم وجرى تشييد البناء على يد الملك عبدالعزيز، طيب الله ثراه

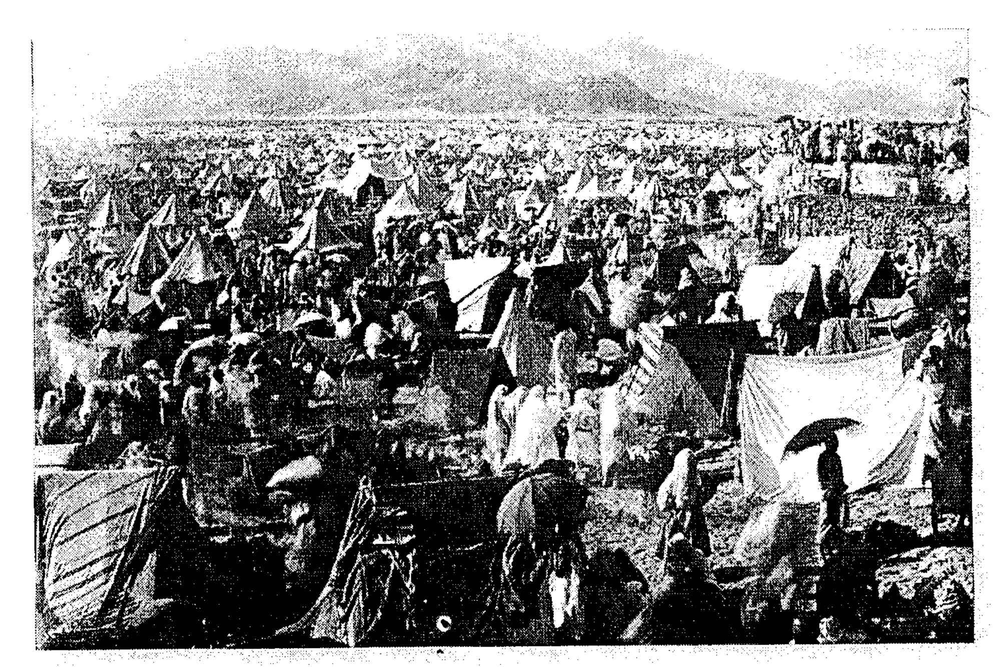
محمد حلمي، ١٣٦٦هـ - ١٩٤٧م



قافلة حجيج على طريق مكة - 1907

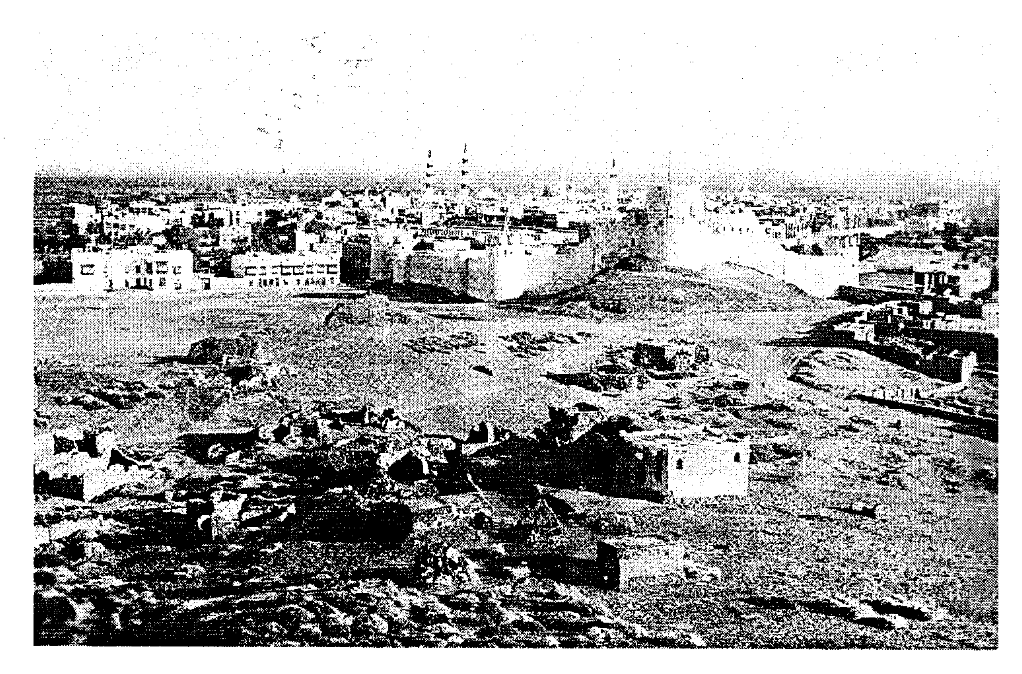


الصعود على جبل عرفات

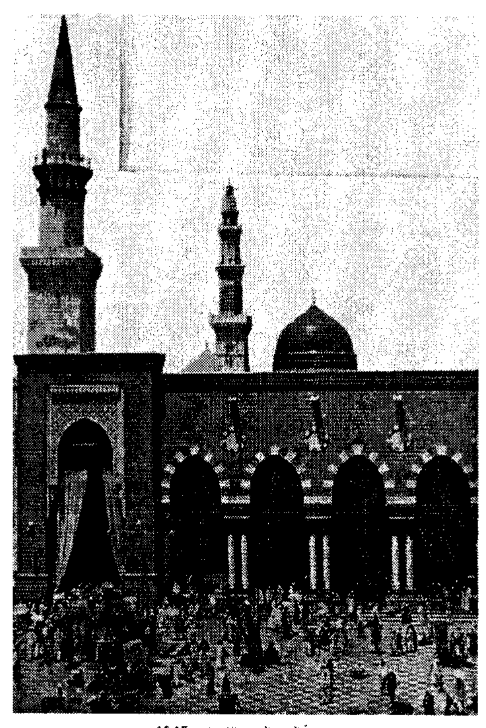


مخيم للحجاج في عرفات

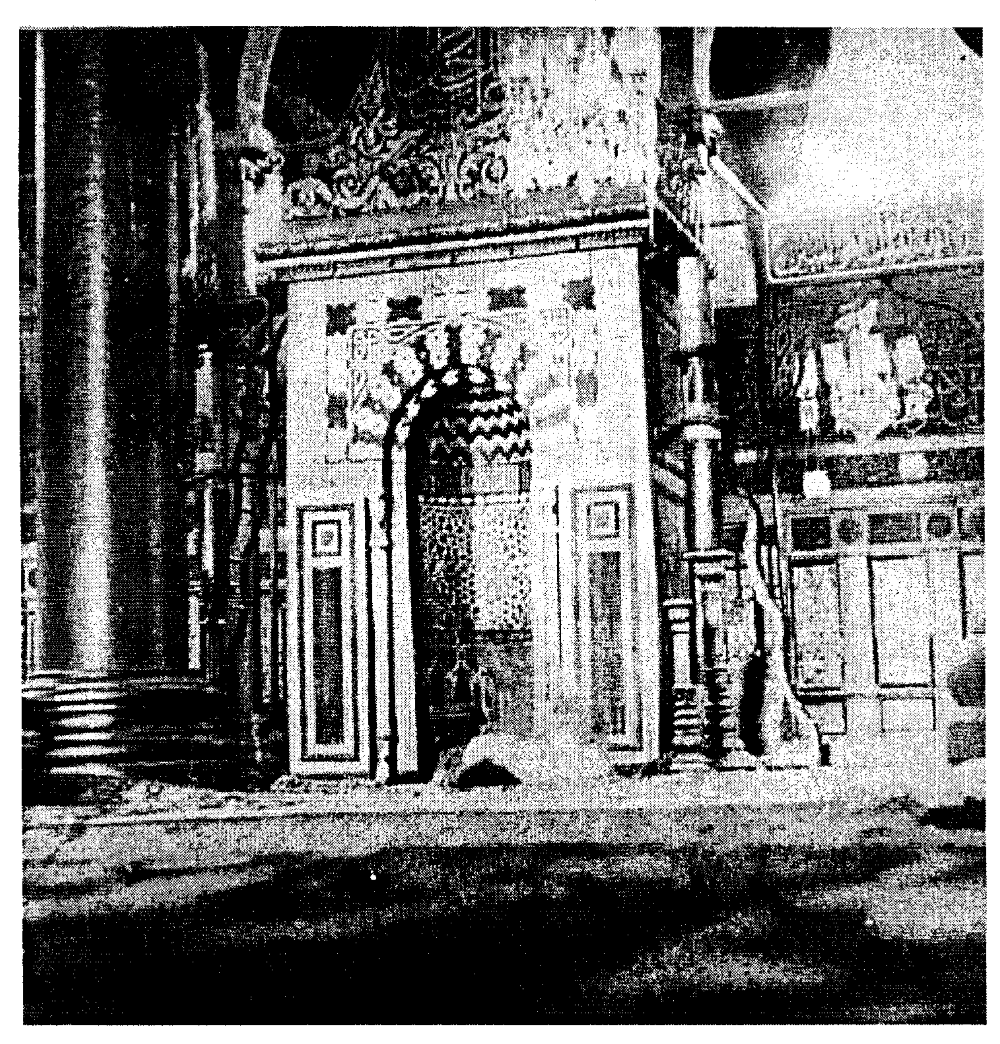
ميرزا، حوالي ١٣٠٧هـ - ١٨٩٠م



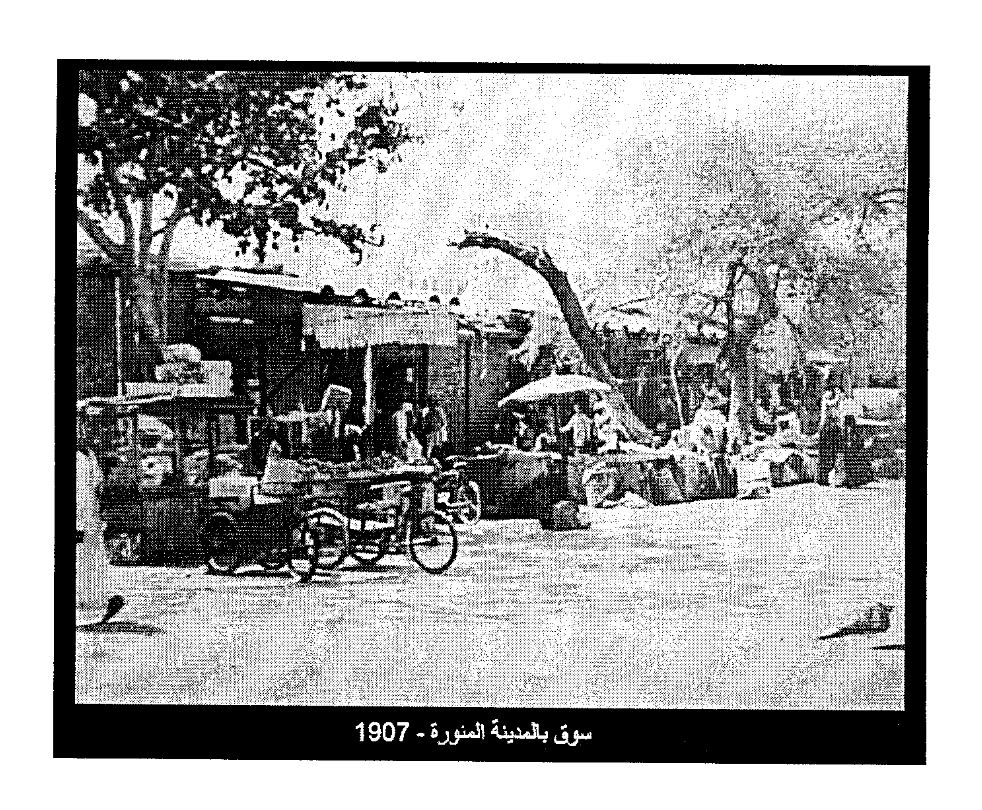
مشهد عام للمدينة المنورة - 1886م



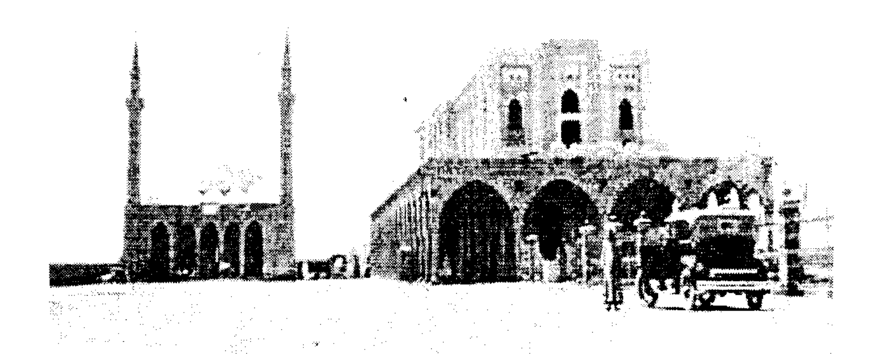
واجهة الحرم النبوى الشريف - 1945



القبلة النبوية - 1880



سوق بالمدينة المنورة - 1907



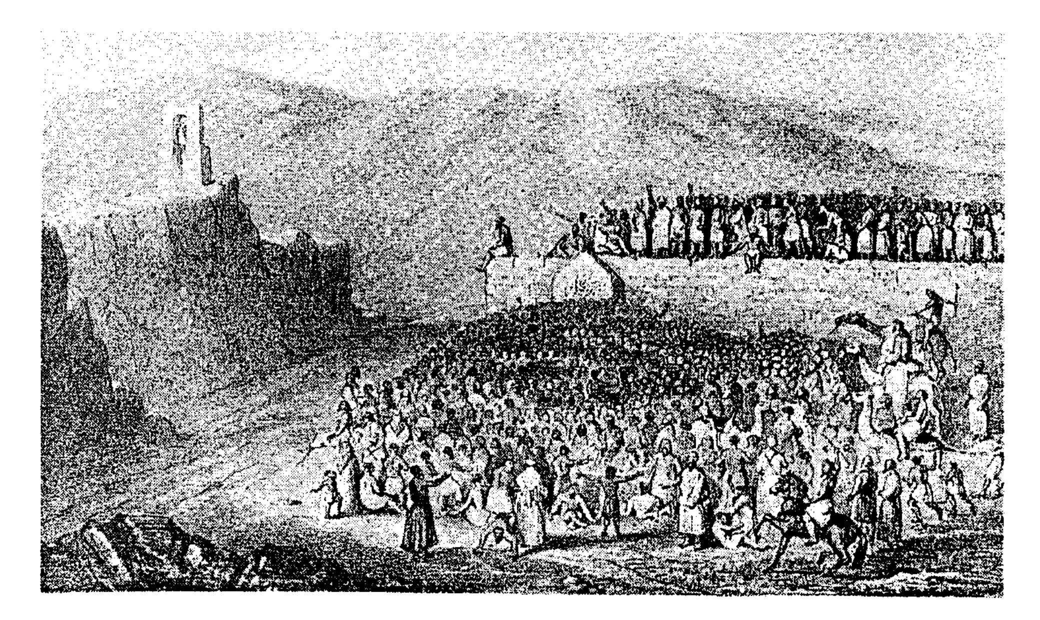
محطة السكك الحديدية بالعنبرية - 1914 م



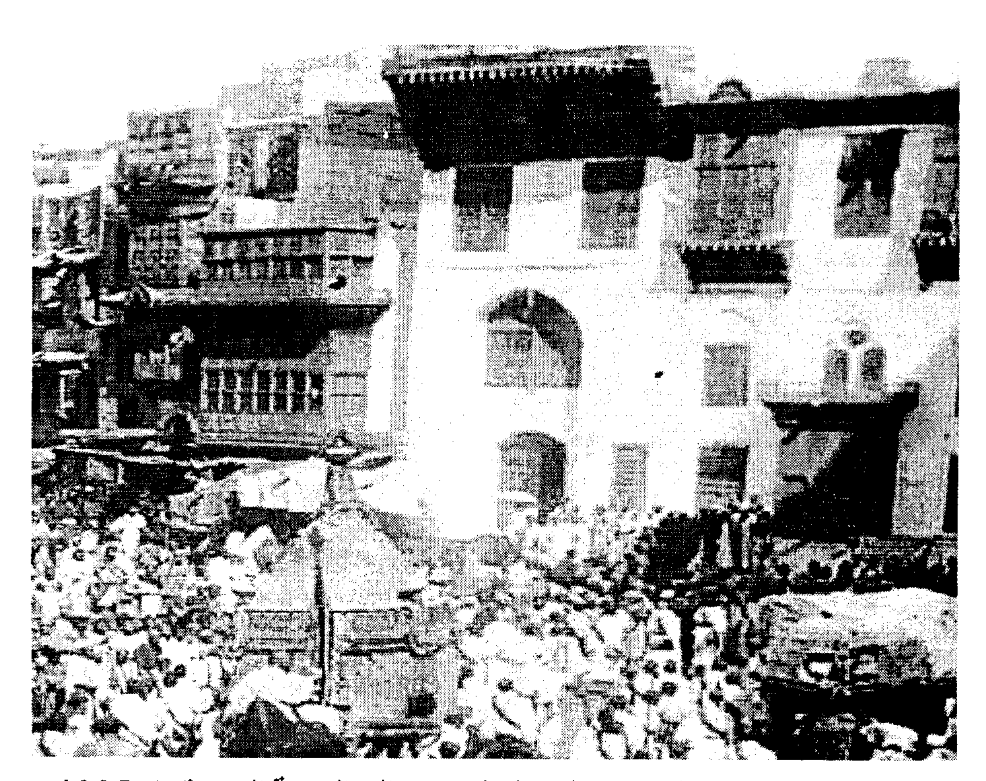
الطريق المؤدي الي باب العنبرية



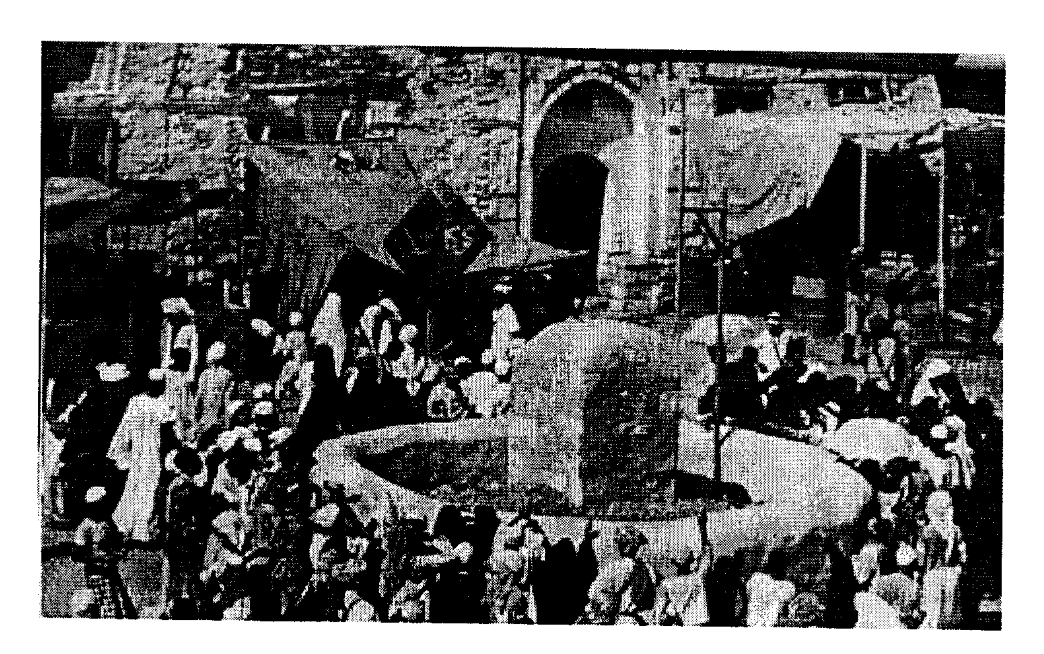
قافلة الحجاج بالمناخة بالمدينة المنورة



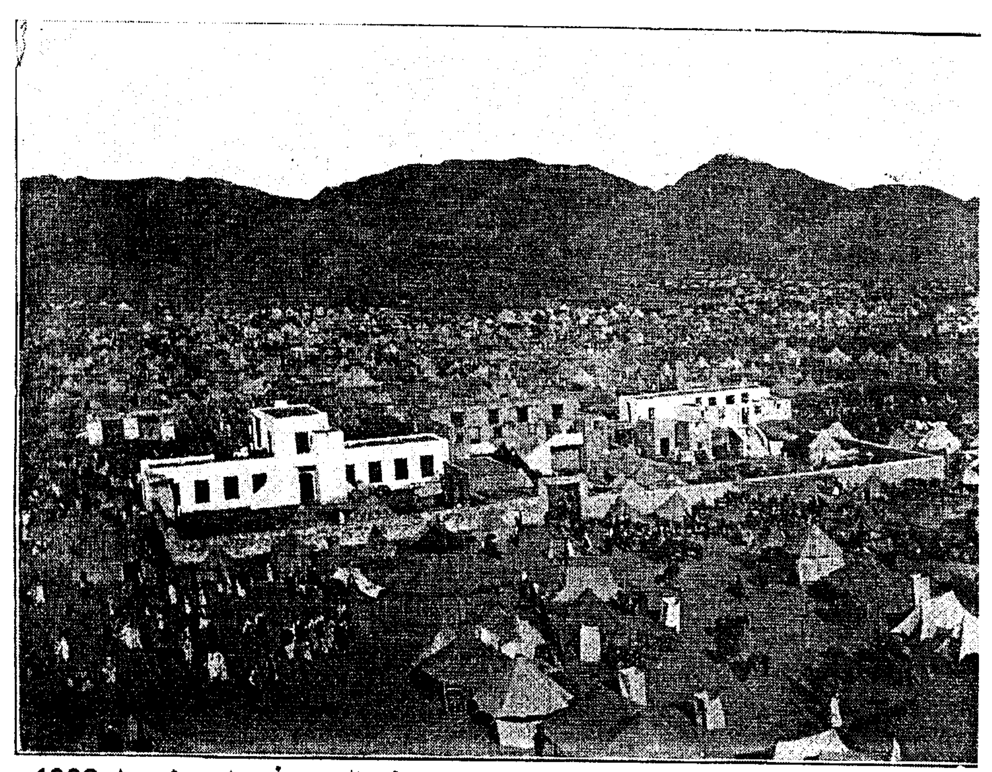
رمي الجمرات ـــ رسم برتون ١٨٥٣م



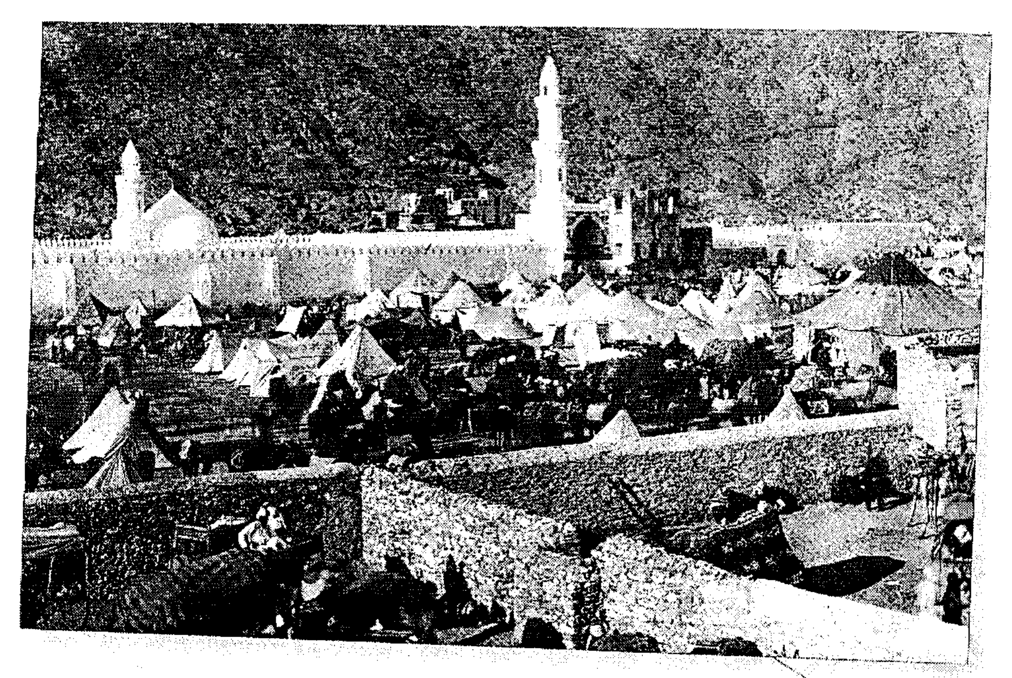
دخول موكب المحمل المصري الي المدينة المنورةعام 1908 م



رمي الجمرات عام 1950 م



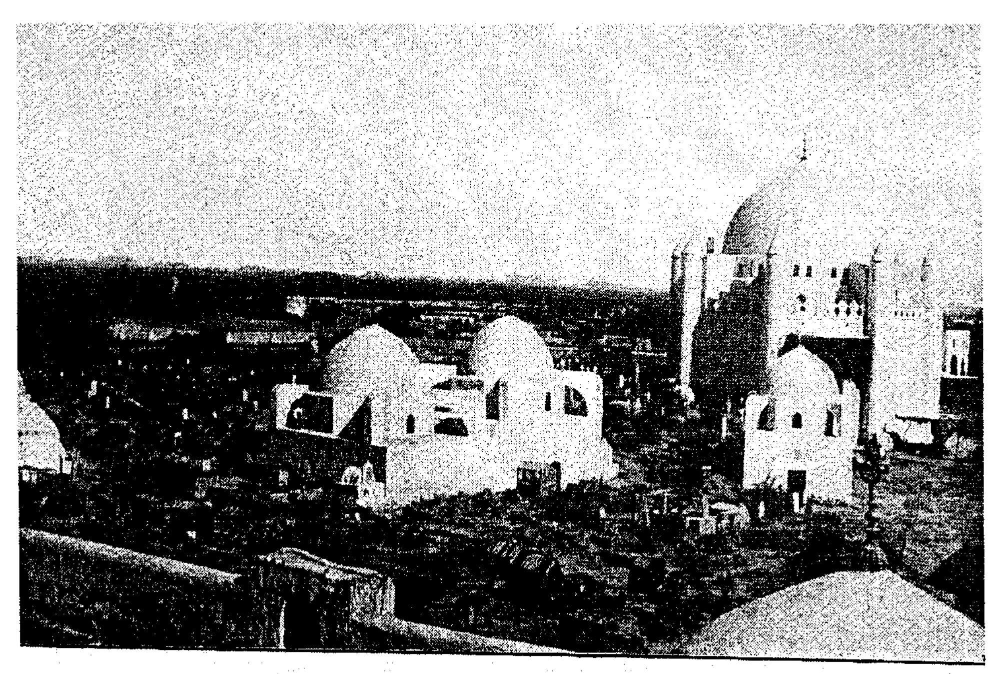
مخيم الحجيج في وادي مني عام 1908 م



مسجد الخيف في منى ـ ١٩٠٧م



سوق بجوار سور الحرم المكي الشريف



EHME & ANDERER, CAIRO.

البقيع جبانة المدينة المنورة وفيه قبة سيدنا عثمان على اليسار وعلى يمينها قبة الامام مالك
ثم قبة زوجات النبي صلى الله عليه وسلم ثم قبر سيدنا ابراهيم بن النبي ثم القبة الكبرى وفيها قبرا
سيدنا العباس وسيدنا الحسن بن علي رضي الله عنهم اجمعين

الفهرس

ـــ الكاتب والمؤرخ / **عرفه عبده على**

ـــ عضو اتحاد الكتاب .

ـــ نشر له العديد من الدراسات والمقالات بالصحف والدوريات المصرية والعربية.

ـــ تخصص فى تاريخ اليهود فى مصر ، وتاريخ القاهرة ومعالمها ، وأدب الرحلات.

ـــ بدأ الكتابة عام ١٩٨٧ بنشر سلسلة دراسات تناولت الاختراق الفكرى الصهيونى للمجتمع المصرى وعصر الامتيازات الامريكيه ، والكشف عن نشاط المركز الاكاديمى الاسرائيلى بالقاهرة... وبضغط من مدير المركز الأكاديمى الإسرائيلـى أجبر على تقديم استقالته من المعهد الفرنسى للآثار الشرقية بالقاهرة.. و وضع على قائمة "الموساد"!! .. (روز اليوسف فى ٢٨ أكتوبر ١٩٩٦) .

- مساعد مدير مكتبة المعهد الفرنسي للأثار الشرقية بالقاهرة - مدير مكتب كامل زهيري نقيب الصحفيين العرب والمصريين سابقاً.

-مؤلفاته مراجع للمؤرخين الأجانب والباحثين المصريين والعرب ، كما عممت وزارة الخارجية مؤلفاته عن يهود مصر بالسفارات والقنصليات المصرية بالخارج

أعماله :

(١) **تهويد عقل مصر** ، دار سينا للنشر ، ١٩٨٩م (نشر أيضا حلقات مسلسله بجريدة الوطن الكويتية) .

(٢) **رحله فى زمان القاهرة** ، مكتبة مدبولى ، ١٩٩٠ م .

(٣) **جيتو إسرائيلى فى القاهرة** ، مكتبة مدبولى ، ١٩٩٠ م .

(٤) **وصف مصر بالصورة** ، دار الشروق ، ١٩٩٣ م ، رُشح لجائزة أحسن كتاب فى معرض فرانكفورت الدولى عام ١٩٩٦ ، يعاد طبعه حاليا باللغات الانجليزية والفرنسيه والعربية .

(٥) **ملف اليهود فى مصر الحديثة** ، مكتبة مدبولى ، ١٩٩٣ م (نشر أيضا حلقات بجريدة الشرق القطرية ـ ١٩٩٤).

(٦) **قراءة فى الفكر الإسرائيلى المعاصر** (حلقات مسلسلة بجريدة الشرق القطرية ١٩٩٤) .

(٧) **موالد مصر المحروسة** ، دار عين للدراسات ، ١٩٩٧ م .

(٨) **يهود مصر .. بؤساء وبارونات !..** ، ايتراك ، ١٩٩٧ م .

(٩) **القاهرة فى عصر إسماعيل** ، الدار المصرية اللبنانية ، ١٩٩٨ م .

(١٠) **مملكة الأقطاب والدراويش** ، هيئة قصور الثقافه ، ١٩٩٨ م .

(١١) **رمضان فى الزمان الجميل** ، كتاب الجمهورية ، ديسمبر ١٩٩٩ (١٣ طبعه) .

(١٢) **يهود مصر منذ عصر الفراعنه حتى عام ٢٠٠٠**، الهيئة المصرية العامه للكتاب، ٢٠٠١ م.

(١٣) **تحالف الحاخام .. والجنرال !..** ، الهيئة المصريه العامة للكتاب ، ٢٠٠٢ م .

(١٤) **إيلى كوهين فى دمشق** ، كتاب الجمهورية ، طبعتان ، مايو ، يونيو ٢٠٠٨م

(١٥) **القاهرة .. رحلة فى المكان والزمان** ، تقديم جمال الغيطانى ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ٢٠١٠م

(١٦) **يهود مصر .. منذ الخروج الأول إلى الخروج الثانى** ، الهيئة العامة لقصور الثقافة ، ٢٠١٠م

(١٧) **المحمل وأيامه** ، كتاب اليوم ، مؤسسة أخبار اليوم ، أكتوبر ٢٠١٢م